الحروب الصليبية

تأليف

ارنست باركر

Ernest Barker

نقله الى العربية

الدكتور السيد الباز العريني
استاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

الحروب الصليبية

تأليف

ارنست باركر
Ernest Barker

نقله الى العربية

الدكتور السيد الباز العريني
استاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب جامعة القاهرة

الطبعة الثانية

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

مقدمة

شهد الشرق الاوسط في اواخر القرن الحادي عشر الميلادي ، حركة استعمارية من قبل الغرب ، لم يشهد لها مثيلاً في العصور الوسطى ، واتخذت من الدين ستاراً لاخفاء ما تنطوي عليه من المطامع والاغراض ، وتتمثل هذه الحركة فيما هو معروف بالحروب الصليبية . وترجع بوادرها الى القرن العاشر الميلادي حين ظهرت في غرب اوروبا حركة دينية ، اشتهرت باسم الحركة الكلونية ، نسبة الى دير كلوني في برجنديا .

وكانت الحركة الكلونية ترمي اول الامر الى اصلاح احوال رجال الدين ، وتدعو الى العودة الى فضائل المسيحية من التقوى والعفة والطهارة ، ثم تطورت الى الحرص على التخلص من سيطرة السلطات الزمنية ، وجعل البابا زعيما للعالم المسيحي ، فينبغي ان يخضع لسلطانه جميع المسيحيين ، يشترك في ذلك الملوك والامراء والفرسان . ولم تعد مهمة البابا فحسب توحيد العالم المسيحي ، بل صار يسعى الى نشر نفوذه الديني في خارج العالم المسيحي . وترتب على ذلك ان ما حدث في القرن الحادي عشر من القتال بين المسيحيين والمسلمين في اسبانيا اتخذ صفة دينية ، وما جرى من النضال بين النرمان والمسلمين في صقلية وجنوب ايطاليا ، اتخذ صفة صليبية ، اي ان هذه الحروب نشبت قبل الحروب الصليبية المعروفة .

على اننا نتساءل عما اذا كانت الحرب التي وقعت في اسبانيا او جنوب ايطاليا وصقلية ، جرى فيها من الاعداد والتكتل ، مثلما جرى في الحروب الصليبية الموجهة الى الشرق الاوسط ؟

سبق للامبراطور الكسيوس ، امبراطور الدولة البيزنطية ، ان استنجد في سنتي ١٠٨٧ ، ١٠٨٨ ، بأمير الفلاندر ، بلدوين ، ليرسل اليه العساكر ،

فاستجاب لرجائه ، غير ان ما طلبه بلدوين من الجند ، لم يضارع في العدد ، الجيوش التي نهضت سنة ١٠٩٧ ، ولم يكن لهذه المساعدة من الصفة الصليبية مثلما كان لمساعدة البابا اربان الثاني .

والواقع ان البابوية قامت بدور كبير في توجيه الفرسان وحشدهم لمهاجمة المسلمين ، لتحقيق ما تصبو اليه من فرض سيطرتها الروحية والزمنية على العالم المعروف وقتذاك . على ان الامراء والفرسان وتجار المدن الايطالية لم يستجيبوا لنداء البابا اربان الثاني ، الا لانهم رأوا في الاشتراك في الحرب ، وسيلة لتحقيق مطامعهم التي ليست من الدين في شيء . مثال ذلك ما كان من طموح بوهمند ابن جويسكارد النرمندي ، اقامة امارة له في الشرق ، وصرح بذلك اثناء وجوده بالقسطنطينية ، في طريقه الى الشرق الاوسط . ومن هذه المطامع ايضاً ، ما تطلعت له المدن الايطالية من الحصول مباشرة على منتجات الشرق بأثمان منخفضة ، بفضل ما تقيمه في شرق البحر المتوسط من مستودعات تجارية . وتعتبر هذه المطامع من اهم العوامل التي واجهت الحملة الصليبية منذ بدايتها ، الى ان انتهت اواخر القرن الثالث عشر الميلادي . وما جرى من موقف الدولة البيزنطية ازاء الحركة الصليبية ، انما يرجع جانب منه الى ما يربط هذه الدولة من علاقات المودة او العداء مع المدن الايطالية . ومن الدليل على ذلك ما حدث سنة ١٢٠٤ ، من سيطرة البندقية على الحملة الصليبية الرابعة وتوجيهها كيفما شاءت ، وترتب على ذلك ، ان تحولت الحملة الى مهاجمة القسطنطينية والاستيلاء عليها ، واقامة حكومة لاتينية بها ، وحصول البندقية على اكبر نصيب من الغنائم .

وما كانت ترمي اليه البابوية من اقامة حكومة تيوقراطية في الشرق ، تجمع بين السلطتين الدينية والزمنية ، لم يكن الا املا بددته قوة الحوادث والمطامع الدنيوية والتجارية . فانتصر الامراء ، وحققوا اطماعهم ، بما انشأوه من امارات في الشرق الاوسط ، الرها ، وانطاكية ، وبيت المقدس وطرابلس . وتحقق

للمدن الايطالية ما كانت تبتغيه من حقوق وامتيازات في الاملاك الصليبيـــة بالشرق الاوسط .

على ان السبب الاكبر في نجاح الصليبيين ، لم يرجع فحسب الى كثرة عددهم ، والى ما تلقوه من مساعدات من الدولة البيزنطية ، بـــل يرجع اساساً الى تفرق وحدة المسلمين من الناحيتين السياسية والدينية . ففي الوقت الذي انطلقت فيه القوات الصليبية نحو الشرق ، اشتد النزاع بين الاخوين دقاق ورضوان من امراء السلاجقة ، من اجل حرص كل منهما على ان ينفرد بحكم سوريا ، ونشبت فعلا الحرب بين الاخوين ، بينما كان الصليبيون في طريقهم الى الشام . وما حدث من الاختلاف الديني والسياسي ، بين الخلافة العباسية في بغداد ، والخلافة الفاطمية في القاهرة ، كان معروفاً عند الصليبيين . وحينما سعى الامراء السنيون في الشام الى الاتصال بالخليفة الفاطمي ، يطلبون التعاون لوقف تقدم الصليبيين ، لم يجدوا استعداداً عند الخليفة الفاطمي لتحقيق غرضهم .

واذ تبين ان نجاح الصليبيين يرجع الى ما ساد العالم الاسلامي من الاختلاف السياسي والديني ، سعى الامراء والقادة المسلمون ، امثـــال مودود ، وزنكي ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين ، الى القضاء على اسباب هذه التفرقة ، فأعلنوا حركة الجهاد الديني . فاحرزوا من الانتصارات ما ادى الى توحيد مصر والشام واعالي الجزيرة ، وبذلك تم حصر الصليبيين على الساحل ، وتلى ذلـــك ازالة الخلافة الفاطمية ، وعودة الديار المصرية الى المذهب السني ، فتحققت بذلـــك الوحدة الروحية ايضاً . وتيسر لصلاح الدين عندئذ ان يقهر الصليبيـــين ، وان يسترد معظم ما استولوا عليه من الاراضي واضحت هذه السياسة ، هي القاعدة التي جرى عليها الايوبيون والمماليك حتى انقطع دابر الصليبيين نهائياً من الشرق سنة ١٢٩١ ، فضلا عن تجنب البلاد خطر المغول بعـــد ان حاقت بهم الهزائم المتكررة .

وهذا الكتاب الذي نقلته الى اللغة العربية ، انما يصور ما صاحب الحركة

الصليبية من اغراض استعمارية ، ويشرح العوامل المختلفة التي تحكمت في توجيه الحروب الصليبية ، ويبين ان العداء بين الغرب والشرق انما يرجع الى قرون عديدة ، وان الغرب اتخذ من الاساليب ما حاول بها تحقيق آماله الاستعمارية في الشرق . وما اوردته في الملحق الذي اضفته الى هذا الكتاب ، يشرح يقظة العالم العربي وقتذاك ، وادراكه انه لن يتم القضاء على القوات المعادية الا بالاتحاد والصبر على جهاد العدو. غير انه ينبغي ان نشير ايضاً الى ان الجهاد الديني الذي نادى به الزعماء والقادة من المسلمين ، استجاب له السكان في جميع انحاء الوطن العربي .

ولما للحروب الصليبية من اهمية في تطور العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين الشرق والغرب ، صدر الجزء الاول من تاريخ الشرق الاوسط والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٦٣) ، الذي يتناول بعد ظهور الاجزاء التالية معالجة ادوار هذه الحروب ومراحلها ، والنظم التي نجمت عنها في الشرق ، وتطور الحركة الصليبية ، ويصف بالتفصيل ما جرى في العالم العربي من حشد الجهود لتحقيق الوحدة ، والقضاء على اسباب الاختلاف والنزاع ، وما ترتب على ذلك من التغلب على الاخطار التي تعرض لها العالم العربي من قبل الصليبيين والمغول ، واثر ذلك في تشكيل سياسة الشرق الاوسط ، وما حدث به من تطور في النواحي الاقتصادية والعسكرية والسياسية .

وجرت اضافة ملحق آخر ، يشمل نصوصاً ووثائق عديدة عن مراحل الحروب الصليبية وحملاتها .

والله ولي التوفيق .

السيد الباز العريني

بيروت : رمضان سنة ١٣٨٦

يناير (كانون ثان) سنة ١٩٦٧

الفصل الاول

اهمية الحروب الصليبية

يصح ان تعتبر الحروب الصليبية ذروة الاحياء الديني ، الذي بدأ في غرب اوربا ، اثناء القرن [1] العاشر الميلادي ، وارتفع شأنه اثناء القرن الحادي عشر الميلادي . وتعتبر هذه الحروب ، من ناحية اخرى ، فصلا ، بل اهم الفصول ، في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب . واعتبرها المعاصرون لها ، في مظهرها الاول، « حروباً مقدسة » و « طريق الحاج » الى كنيسة القيامة (قبر المسيح)، على ان العين الفاحصة للمؤرخ لا بد ان تعتبرها، انها في مظهرها الثاني (العلاقات بين الشرق والغرب)، لم تكن اقل اهمية عن المظهر الاول . فاذا جرى اعتبار الحروب الصليبية ،«حروباً مقدسة»، فلا بد من تفسيرها بمقتضى افكار العصر الذي تغلبت فيه الروح الدينية والتعلق بالحياة الآخرة ،فخضعت وفقاً لذلك لما يمثل العالم الآخر من سلطة دينية . فهي ليست الا نوعاً جديداً من الخلاص وطريقاً جديداً مؤدياً الى السماء،

---

(١) نبع الاصلاح الديني من دير كلوني ببرجنديا اوائل القرن العاشر الميلادي. وكان يهدف اول الامر الى نشر العفة والتقوى والنظام في الاديرة . ثم اتسعت الحركة الاصلاحية حتى اضحت منهجاً للاصلاح الكنسي العام . على ان ليو التاسع (١٠٤٨ - ١٠٥٤) نظر الى البابوية على انها هيئة عالمية ذات سلطان مطلق ، وسمو غير محدود ، واستقلال تام ، وتفويض الهي بالرقابة الروحية . ورأي البابا جريجوري السابع الذى ولي البابوية سنة ١٠٧٣ ، ان العالم بأسره دولة مسيحية واحدة يسيطر عليها البابا ، له العصمة ، وله القدرة ، ولا يحده قانون، وهو الذي يخلع المسيئين من الملوك ، ويقطعهم من رحمة الكنيسة ، ويحل رعيتهم من طاعتهم ، ونادى بضرورة انشاء قوة حربية خاضعة لسلطان الكنيسة الكاثوليكية ، وهذا البابا هو الذي رأى ضرورة امتداد الحرب ضد المسلمين في الشرق . (انظر فيشر : تاريخ اوربا للعصور الوسطى - ترجمة زيادة والعريني - جـ ١ ص ١٤٣ - ١٤٦) .

Runciman : History of the Crusades . vol. I. p. 99 .

لا بد من اجتيازه ، ابتغاء نيل السعادة التامة ، ومن اجل غفران الذنوب. وهي (الحروب الصليبية) ايضاً تعتبر السياسة الخارجية للبابوية، لما تقوم به من توجيه رعاياها المخلصين الى الحرب الكبرى التي تخوضها المسيحية ضد اعدائها[١]. واذ جرى اعتبار الحروب الصليبية وسيلة جديدة للخلاص، فانها لهذا المعنى ارتبطت بتطور مبدأ التوبة . وباعتبارها السياسة الخارجية للكنيسة تعلقت الحروب الصليبية بما حدث من التطهير الديني، وتوجيه المجتمع الاقطاعي وغرائزه، الذي تمثل فيما هو معروف بالسلام الالهي Peace of God [٢] وفي نظام للفروسية . اما نظام التوبة الذي نفذه القسيس ، طبقاً للقانون الاخلاقي عند الاعتراف ، باقرار التوبة — التوبة التي ينبغي اداؤها، على انها شرط للقبول في القداس — التي تعتبر منذ اقدم العصور ، وسيلة كبيرة في تمدين العناصر الجرمانية . والتوبة يصح ان تشمل الصيام ، ويصح ايضاً ان تتم بما يلحقه الانسان بنفسه من الايذاء البدني ، ويجوز ايضاً ان تؤدى بالحج . والحج من اجل التوبة ، يرجع فيما يبدو الى زمن

---

(١) انظر ما سبق في الحاشية رقم ١ .

(٢) ما حدث في غرب اوربا من تسلط الروح الحربية ، وتمجيد المحارب طبقا لقانون الفروسية ، منع الكنيسة من مقاومتها . بل ان الكنيسة حرصت على ان تفيد من هذه الروح لصالحها ، فاصبحت الحرب المقدسة ، اي الحرب لتحقيق اغراض الكنيسة ، مقبولة وجائزة ، اذ اعلن البابا ليو الرابع ، في منتصف القرن التاسع ، بأن كل من يموت في سبيل الدفاع عن الكنيسة ، كان مثواه الجنة . واعتبر البابا حنا الثامن ، ان كل من يموت في حرب مقدسة ، من الشهداء . على ان ما ساد من الفوضى والاضطراب الذي ادى الى تخريب الكنائس ، وما اصاب الفقراء من الشدة ، جعل المجامع الدينية ، التي انعقدت اول الامر في اكيتانيا وبرجنديا ، منذ سنة ٩٨٩ ، تنكر هذه الفوضى ، وتسعى الى اتخاذ ما يعرف بالسلام الالهي Peace of God . ويقضي بالالتجاء الى القضاء ، في فض المنازعات ، وكل من يخالف ذلك ، تعرض للقطع من الكنيسة . ولم يلبث ان اقسم الامراء في فرنسا سنة ١٠١٦ ، على ألا يرغموا رجال الدين او الفلاحين على ان يلتحقوا بجيوشهم ، وألا يغيروا على محصولاتهم ، والا يصادروا دوابهم . وهذا النجاح جعل الاساقفة يطالبون بأكثر من ذلك . اذ امر رئيس اساقفة Bourges في سنة ١٠٣٨ ، بأن كل مسيحي تجاوز الخامسة عشرة من عمره يعتبر عدواً لكل من يعكر صفو السلام ، ومن واجبه ان يقاتل كل من يعتدي على السلام الالهي . انظر :
Runciman : op. cit. vol. I. pp. 85-86 .

مبكر ، الى سنة ٧٠٠ م ، وقد تضاعفت بركته ، لا لانه في ذاته يعتبر فحسب من اعمال التكفير عن السيئات ، شأنه في ذلك شأن الصيام والايذاء البدني ، بل لانه ايضا هيأ للحاج ميزة الوقوف بالارض المقدسة . وبتأثير الحركة الكلونية التي بدأت في القرن العاشر الميلادي ، ازداد مسير الحجاج[1] . وتعتبر بيت المقدس ، عادة ، الهدف الذي يقصده الحجاج . ودرج الحجاج الذين يتوجهون الى بيت المقدس ، على ان يسيروا في جماعات التماساً للأمن[2] ، وان يمضوا في طريقهم مسلحين . وبلغ عدد الحجاج الذين ساروا سنة ١٠٦٤ ، بزعامة رئيس اساقفة ماينز ، نحو سبعة آلاف شخص . فلما جرت آخر الامر الحرب الصليبية ، لم تكن سوى حجيج من اجل التوبة ، ساروا في حماية السلاح ، ويضاف الى ذلك هدف آخر ، وهو الاستيلاء على هدف الحجاج (بيت المقدس). اما كيف تحول « مسير الحجاج » الى الحرب المقدسة ، ذلك يعتبر حقيقة ، يصح تفسيرها ، اذا ادركنا ما قامت به الكنيسة من محاولات ، اثناء القرن الحادي عشر ، لتطهير الغريزة الاقطاعية من الحروب الخاصة ، والعمل على توجيهها . فمنذ نهاية القرن العاشر الميلادي ، اهتمت المجالس الدينية ، التي انعقدت في مقاطعات فرنسا بسن تشريعات ، ووضع قواعد للامن ، من اجل

---

(١) اقرت الحركة الكلونية الحج ، وسعى الكلونيون لتسيير سبل الحجاج . وفي مستهل القرن الحادي عشر ، خضع معظم الحجاج الى المشاهد الاسبانية لسلطانهم . وفي الوقت ذاته ، صاروا يرتبون امر تسيير الحجاج الى بيت المقدس . ومن الدليل على اثر جهدهم في هذه الناحية . ما جرى من ازدياد عدد الحجاج من فرنسا واللورين في القرن الحادي عشر . وساعدهم في ذلك كونتات انجو ودوقات نورمنديا ، انظر (Runciman : op. cit. vol. I. pp. 45-46)

(٢) على الرغم من ان كبار امراء الاقطاع في الغرب كانوا يصحبون معهم حرسا مسلحا ، وان كثيرا من الحجاج صاروا ينضمون اليهم ، فانه لم يكن ثمة من الاخطار ما يهدد الحجاج اذا ساروا فرادى او في جماعات صغيرة . انظر (Runciman : op. cit. I. pp 48 - 49)

المحافظة على سلام الله[1] (Pax Dei) وهدنة الله (Treuga Dei)[2] . ففي كل مقاطعة ظهر تشريع ، يقضي بتقرير متى يجري نقض السلام ، وتألفت هيئة تنفيـــذية للمحافظة على السلام ، وتنفيذ قرارات المشرع . غير انه ايسر من ذلــك ، ان يجري الابقاء على غريزة المقاتلة لا اخمادها ، ولم يكن نظــام الفروسية الا مثلا من امثلة هذا التكريس الديني للنزعات الحربية ، التي حاولت الكنيسة حتى ذلك الحين قمعها ، لاغراض مثالية ورغبات نبيلة . وفي هذه الناحيـــة ايضا ، يصح اعتبار الحروب الصليبية ، مرحلة من مراحـــل الاصلاح الديني للمقاتلين من العلمانيين . فاذا وجهت الفروسية الرجل العلماني للدفاع عما هو حق ، فان التبشير بالحرب الصليبية ، انما وجهه ايضا لمهاجمة مايعتبره شرا ، وهو امتلاك المسلمين لقبر المسيح . فالحروب الصليبية من هذه الناحية تعتبر المظهر الهجومي للفروسية ، فالفروسية تعتبر بذرة الحروب الصليبية ، كما تعتبر ايضا ربيبتها . والفارس الذي يشترك في الحروب الصليبية ، انما يشبع بذلك النزعة الحربية الكامنة فيه ، تحت اشراف الكنيسة وبأمرها ، وينال بذلك الخلاص التـــام ، والتطهر من الذنوب ، وهو ما كان يسعى اليه بشدة ، الجانب الروحي من طبيعته . فربمــا امعن الفارس طوال اليوم في القتل والتذبيح ، حتى خاضت قدماه في الدماء ،

---

(١) انظر ما سبق ص ٩ حاشية ١ .

(٢) تعتبر هدنة الله امتدادا لسلام الله . على ان هدنة الله يغلب عليها الطـــابع الكنسي فالكنيسة هي التي تقررها ، وتفرض العقوبات على من يخالفها . اذ حتمت الكنيسة على المسيحي ان يعتبر بعض الايام والازمنة مقدسة ، فيكف اثناءها عن القيام بأي عمل من اعمال العنف . فتقرر اول الامر الكف عن هذه الاعمال ، ابتداء من مساء الاربعاء الى صباح الاثنين ، تذكارا لما اصاب المسيح اثناءها من الآلام . ثم امتدت هذه الهدنة ، فشملت الفترة الواقعة بين عيدالبشاره الى يوم الاحد الذي يلي عيد الغطاس ، وكذا الصوم الكبير ، والاسبوع المقدس حتى يوم عيد القيامة . ومن الطبيعي ان تعبر الكنائس وافنيتها مواضع مقدسة ، واماكن محايدة . وفي جنوب فرنسا تقرر عدم التعرض لاشجار الزيتون لما لها من اهمية جوهرية في اقتصاد البلاد . وحظيت حركة الدعوة للهدنة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر بنتائج مادية محسوسة ، بفضل توجيه الكنيسة . انظر Cambridge Medieval History, vol III, pp. 281-288 466,

Runciman : op. cit. vol. I. p. 86.

فاذا جاء الليل ، ركع امام مذبح كنيسة القيامة ، يهلل من فرط فرحه ، الم يكن ما تخضب به من الدماء ، انما جرى من اجل السيد المسيح ؟ والواقع اننا لا نستطيع ان نفهم شيوع الحروب الصليبية ، الا اذا ادركنا ، انها هيأت للناس ان يوقنوا بانهم لن يبلغوا العالم الآخر ، الا بما يقومون به من قتال عنيف على ظهر الارض ، وانهم لن يجنوا ثمار الزهد والتقشف، الا باستجابتهم للغرائز الطبيعية . ولم تستطع الكنيسة فحسب ، بفضل الحروب الصليبية ، ان توجه الغرائز الحربية للمجتمع الاقطاعي ، بل استطاعت ايضاً ان تمضي لتحقيق هدف سياستها المباشرة ، وان تحاول نشر المسيحية في جميع انحاء العالم المعروف وقتذاك ، ولو ادى ذلك الى النضال .

وعلى هذا تجدد، على نطاق واسع العداء القديم بين الشرق والغرب ، وهو العداء الذي لم يخمد ابداً . ففي فترة مقدارها الف سنة ، ابتداء من الهجرة النبوية التي وقعت في سنة ٦٢٢ الى حصار الترك لمدينة فينا سنة ١٦٨٣م ، ظل خطر استيلاء المسلمين على اوربا ماثلاً باستمرار في اذهان الناس . ولذا تعتبر الحروب الصليبية من هذه الناحية ، رد فعل من قبل الغرب ضد ضغط الشرق ، وهو الذي حمل الغرب على مهاجمة الشرق ، فاقام مملكة لاتينية مسيحية على الشاطىء الاسيوي . فالحروب الصليبية قامت بحماية اوربا من الاسلام ، الذي نهض من جديد على يد الترك . فهيأت لأوربا بذلك فرصة من الراحة ، نمت فيها المدن الغربية في العصور الوسطى . على ان العلاقة بين الشرق والغرب ، زمن الحروب الصليبية ، لم تكن كلها عدائية او سلبية . اذ كانت مملكة بيت المقدس مكانا لالتقاء حضارتين ، وعلى ارضها تعلم الشرق من الغرب ، بل ان ما تعلمه الغرب من الشرق يزيد على ذلك كثيراً . وما نما في الغرب اثناء القرن الثالث عشر من حضارة ، لم تنشأ فحسب بفضل ما بذلته الحروب الصليبية من حماية ، بل انها قامت على ما جلبته من مواد الشرق بفضل الحروب الصليبية . ومع ذلك فان ما دانت به اوربا من فضل للحروب الصليبية في هذه الناحية الاخيرة ، لم يجد ما يؤيده . اذ ان صقلية فاقت مملكة بيت المقدس ، من حيث انها موضع للالتقاء بين الشرق والغرب ، وما قدمه مسلمو اسبانيا لاوروبا من الثقافة يزيد كثيراً على ما قدمه اهل الشام .

الفصل الثاني

الاسباب التاريخية للحروب الصليبية

لم يكد على هجرة النبي (صلى الله عليه وسلم) خمس عشرة سنة ، حتى سقطت بيت المقدس امام جيوش عمر بن الخطاب ، وذلك سنة ٦٣٧ م. وظلت بيت المقدس في يد الحكام المسلمين حتى نهاية الحرب الصليبية الاولى . ومع ذلك فان ما حدث من الاتصال المستمر بين الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس ، وبين المسيحيين في الغرب ، وبقائه نشيطاً قروناً عديدة ، انما يرجع الى تسامح الفاتحين المسلمين . والمعروف ان شارلمان ، بصفة خاصة ، كان وثيق الصلة ببيت المقدس : اذ ارسل اليه بطريرك بيت المقدس ، سنة ٨٠٠ م ، مفاتيح المدينة وعلمها . وفي سنة ٨٠٧ م ، اعترف هرون الرشيد بما حدث من التنازل الرمزي عن المدينة[1] ، واقر شارلمان حامياً لبيت المقدس ، ومالكاً لكنيسة القيامة . وشيد شارلمان بالمدينة المقدسة مستشفى ومكتبة . اما الاسطورة التي ترجع الى عصر متأخر ، وتجعل من شارلمان اول المحاربين الصليبيين ، واول الفاتحين

---

(١) اشارت الحوليات الملكية ، وهي المصدر الوحيد المعاصر ، في شيء من التفصيل ، الى ما قام به بطريرك بيت المقدس من ارسال مفاتيح كنيسة القيامة الى شارل .

والواقع ان هذا الحادث لم يختلف عما جرى من ارسال مفاتيح كنيسة القديس بطرس في روما الى شارل مارتل وشارلمان ، ولم يترتب على ذلك انتقال السلطة الى هذين الملكين . وما اورده اجينهارد من الاشارة الى قبول هرون الرشيد ، بأن يكون لشارل السلطة والاشراف على الاماكن المقدسة ، ربما كان المقصود منه التخلص من النفوذ البيزنطي في بيت المقدس . (انظر ــ شارلمان ــ ترجمة العريني ص ٣٠٣ ــ ٣٠٤) .

للاراضي المقدسة[1] فانها استندت الى شيء من الحقيقة . وظل الاتصال مستمرا اثناء القرن التاسع ، اذ ارسل كل من الفرد ملك انجلترا ، ولويس ملك المانيا ، المساعدات الى بيت المقدس ، فصار لكنيسة بيت المقدس ضياع شاسعة في الغرب . وبقي هذا الاتصال ايضا في القرن العاشر . غير ان الصلة بدأت تنقطع في القرن الحادي عشر . فما اشتهر به الخليفة الحاكم بامر الله الفاطمي من التعصب ، ترتب عليه تدمير كنيسة القيامة ، فانهى بذلك حماية الفرنجة لها ، وذلك سنة ١٠١٠ م[2] ، وانتقل الى الامبراطورية البيزنطية في سنة ١٠٢١ امر رعاية الاماكن المقدسة ، التي ظلت مصدر نزاع بين الكنيستين اليونانية واللاتينية ، حتى بداية حرب القرم (في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي) .

وترتب على هذا التغيير ان صار قدوم الحجاج من الغرب امرا شاقا وعسيرا . فالبيزنطيون ، ولا سيما بعد حدوث الانشقاق الديني في سنة ١٠٥٤ م[3] ، لم يحرصوا على ان يجعلوا طريق الحجاج هينا سهلا ، وكان لزاما على البابا فكتور الثاني ، ان يجأر بالشكوى ، الى الامبراطورة تيودورا ، بسبب ما لجأ اليه موظفوها من ابتزاز اموال الحجاج واهانتهم . على ان ما هو اسوأ من ذلك عند اللاتين ، ما حدث سنة ١٠٧١ من استيلاء الترك السلاجقة على بيت المقدس . اذ ان السلاجقة ، الى جانب ما اشتهروا به من التعصب ، بلغوا من الشدة والقسوة ما لم يبلغه عرب مصر الذين نزعوا منهم بيت المقدس ، على حين ان ما وقع من

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في كتاب شارلمان – ترجمة العريني – ص ٢٨٥ – ٢٨٨ .

(٢) المعروف ان الحاكم بامر الله الفاطمي لم يختص بسياسته فئة معينة من الناس ، ولذا لم تسلم طائفة من الطوائف من اضطهاده وظلمه . انظر ابن تغرى بردي : النجوم الزاهرة . طبعة القاهرة جـ ٤ ص ١٧٨ .

(٣) هذا الانشقاق يرجع في الظاهر الى الاختلاف بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية ، على بعض المسائل الدينية مثل زواج القسس وعبادة الصور ونحلة التبني . والواقع ان الاختلاف يرجع الى ما هو اعمق من ذلك ، بسبب الحركة الكلونية ، ذلك ان السلطتين الروحية والزمنية انما ارتبطتا بالبابا في روما ، وانه ينبغي على بيزنطة ان تدرك ان البابوية ، بعد اصلاحها ، لن تقبل الاذعان . – انظر (Runciman ; op. cit. I. p.p. 96-97)

الحروب بين الفاطميين في مصر، وبين العباسيين في بغداد، الذين يدافع السلاجقة عن مصالحهم، جعلت سوريا اقليما شديد القلق والاضطراب، فلقي السكان المسيحيون الشقاء، ووجد حجاج الغرب ان طريقهم الى بيت المقدس، لا زال بالغ الصعوبة والشدة، وحدث ذلك في وقت اخذت فيه الجموع، التي بلغت اعدادها من الزيادة ما لم تبلغه من قبل، تتزاحم على القدوم الى الشرق. وادرك المسيحيون في الغرب ما يعترض طريقهم، ويمنع حركتهم الطبيعية نحو منبع ديانتهم، فكان من الطبيعي انه لا بد لهم آخر الامر، ان يبذلوا جهدهم في تمهيد طريقهم [1]. وما حدث من هذا القبيل، في عصر متأخر، وفي مجال اقل اتساعا، من اغلاق الطرق التجارية نتيجة زحف الاتراك العثمانيين، ادى الى ان يسعى التجار الى كشف طرق جديدة، ودعا الى الطواف حول رأس الرجاء الصالح، وكشف اميركا. وينبغي ايضا ان لا ننسى بان البحث عن وسائل جديدة مباشرة للاتصال بطرق التجارة الشرقية، يعتبر من الاغراض التي انطوت عليها الحروب الصليبية ذاتها، وادت الى ما يصح تسميته اكتشاف آسيا في القرن الثالث عشر الميلادي.

ولهذه الاسباب، كان من الطبيعي ان يضحى الاستيلاء على بيت المقدس هدفا لتحقيق اطماع المسيحية الغربية، ومن الطبيعي ان تتعلق به الكنيسة، وتحاول ان تسير به قدما، وذلك لحرصها على تحقيق حلمها بقيام كنيسة عالمية تخضع لسلطانها. على ان ثمة عاملان اتحدا سويا لتحقيق هذا الهدف،

---

(١) الواقع ان المؤلف بالغ في تصوير سوء معاملة الحجاج المسيحيين. وسبقت الاشارة الى ان طريق الحجاج الى بيت المقدس ظل مفتوحا حتى نشوب الحروب الصليبية. كما انه لم يتعرض السكان المسيحيون على وجه خاص للاضطهاد من قبل الحكام المسلمين. انما جرى عليهم ما جرى على سائر السكان، لما يربطهم من الصلات، اذ ان لغتهم كانت اللغة العربية، ومعظمهم من العنصر العربي، فضلا عن دخول كثير منهم في وظائف الحكومة. كما انه لم يرد في المراجع ما يشير الى انهم تركوا مواطنهم تحت ضغط اضطهاد من قبل المسلمين. وما اورده المؤلف في هذا الموضع عن سوء احوال المسيحيين انما يقصد به تبرير سياسة المسيحية الغربية، كما يدل على ذلك ما ورد في الفقرة التالية في المتن.

واعتباره من الامور الطبيعية . فمن ناحية ، ما حـدث من استرداد الدول المسيحية ، لما استولى عليه المسلمون من الاراضي ، اخذ يسير قدما ، منذ اكثر من مائة سنة ، قبل نشوب الحرب الصليبية الاولى . ومن ناحية اخرى ، كان مركز الامبراطورية البيزنطية بعدسنة ١٠٧٠م يدعوصراحة الى الاستنجادبالغرب المسيحي ، وهيأ في ذلك الحين الفرصة المباشرة للحرب المقدسة . فمنذ زمن مبكر ، يرجع الى سنة ٩٧٠ م ، بدأ استرداد الممتلكات التي استولى عليها المسلمون في الشرق ، على يد الامبراطورين نقفور فوكاس وحنا زسكيس ، اللذين امد فتوحاتهما ، لوقت قصير ، الى ان بلغت انطاكية والرها . وما حدث من احتلال مؤقت لبيت المقدس ، انما يرجع الى الجيوش البيزنطية . وفي الطرف الآخر من البحر المتوسط ، حيث اسبانيا ، كانت الخلافـة الاموية وشيكة السقوط . اذ بدأ الاسبان حربهم الصليبية ضد البربر . ففي سنة ١٠١٨ ، قـاد روجر توسني Roger de Tosni النرمنديين الى كاتالونيا ، لمساعدة الاسبـان الوطنين[1] وفي الجزء الاوسط من البحر المتوسط ، استمر القتال بين المسيحيين والمسلمين زمنا طويلا ، غير انه نزع آخر الامر الى ان تكون النتيجة في جانب المسيحيين . والمعروف ان العرب شرعوا في الاستيلاء على صقلية من يد الدولة البيزنطية في سنة ٨٢٧ ، وهاجموا ارض ايطاليا ذاتها سنة ٨٤٠ ، وتزعم البابوات انفسهم المقاومة الايطالية . ففي سنة ٨٤٨ وعد البابا ليو الرابع كل من يموت في سبيل الدفاع عن الصليب بالامل الاكيد في الخلاص . على ان ايطاليـا اضحت بمأمن من الخطر منذ سنة ٩١٦ ، بعد الاستيلاء على الحصن الاسلامي المنيـع الواقع على نهر جاريجليانو . ثم حدث بعدئذ ، ان تم من جـديد فتح جزائر

---

(١) المعروف ان دير كلوني ابدى اهتماما شديدا براحة الحجاج ، وحرص على تأمين طريق الحجاج الى Compostella ، والمحافظة على سلامة الامارات المسيحية في اسبانيا . والراجح انـه بفضل تأثير الحركة الكلونية ، قدم روجر توسني من نرمنديا لمساعـدة اميرة برشلونة ، التي تعرضت سنة ١٠١٨ الى تهديد المسلمين انظر

Runciman : op. cit. vol. I p. 90

البحر المتوسط الواقعة بالقرب من ايطاليا . فاستولى البيازنة على سردينية حوالي سنة ١٠١٦ ، بناء على تحريض البابا بنيدكت الثامن . وانتزع النرمنديون ، تحت لواء باركه البابا اسكندر الثاني، صقلية من يد المسلمين ، بعد حرب استمرت ثلاثين سنة (من سنة ١٠٦٠ الى سنة ١٠٩٠) . على أن استيلاء النرمنديين على صقلية يصح أن يطلق عليه انه حرب صليبية قبل الحروب[١] الصليبية . اذ انه أضاف دافعاً جديداً لما جرى بعدئذ من محاولة انتزاع سوريا من يد المسلمين ، كان ابرز القادة فيها بوهمند ، المنحدر من نفس البيت الذي استولى على صقلية . غير انه بينما كان المسيحيون في الغرب ينتزعون ، كما رأينا ، اراضي جديدة من يد المسلمين ، اثناء القرن الحادي عشر الميلادي ، كان على الامبراطورية البيزنطية وقتذاك ، ان تتحمل الصدمة التي نجمت عن احياء الاسلام على يد السلاجقة . على ان هذا الاحياء ، الذي سحق الروم فترة من الزمن ، لم يكن الا حافزاً جديداً للاتين ، كيما يحملوا السلاح ، ويتوجهوا نحو الشرق ، فالسلاجقة الذين كانوا اول الامر جنداً مأجورين في بغداد ، ثم اضحوا سادة بها ، لم يلبثوا ان وهبوا الخلافة العباسية ببغداد حياة جديدة ، بعد ان اصابها التداعي والانهيار . ففي زمن سلاطين السلاجقة الذين قاموا في بغداد ، حوالي منتصف القرن الحادي عشر ، بدور حجاب القصر ، اندفع الترك السلاجقة غرباً نحو الخلافة الفاطمية في مصر ، والامبراطورية البيزنطية . فانتزعوا من الفاطميين سنة ١٠٧١ م بيت المقدس ، وفي نفس السنة انزلوا هزيمة

---

(١) صارت البابوية ، منذ سنة ١٠٥٩ ، بعد الانشقاق الديني مع بيزنطة ، حليفة للنرمان ، وما قام به روجر النرماني من قتال المسلمين في صقلية منذ سنة ١٠٦٠ جرى اعتباره حرباً مقدسة ، حرص البابا على تشجيعها وتأييدها . انظر

(Runciman : op. cit. vol. I. p 98).

ساحقة بالامبراطور البيزنطي في مانزيكرت ، وترتب على هذه الهزيمة ، ان فقد البيزنطيون كل آسيا الصغرى تقريباً ، فامتدت املاك الترك حتى بلغت بحر مرمرة . وفي سنة ١٠٧٣ م ، ارسل ميخائيل السابع امبراطور القسطنطينية الى البابا جريجوري السابع ، طلبا للمساعدة كالذي تكرر السماع عنـــه في القرون التالية . واستمع جريجوري لهذا الطلب ، غير انه لم يقترح ، كما تردد دائماً القول ، الدعوة الى حرب صليبية [١] ، بل اشار بارسال حمـــلة كبيرة ، تستطيع ان تسترد آسيا الصغرى من يد المسلمين ، وتعيدهـــا الى الامبراطورية البيزنطية ، مقابل اعادة اتحاد الكنيسة الشرقية مع الكنيسة الغربية ، والواقع ان جريجوري حشد في سنة ١٠٧٤ جيشاً كبيراً ، غير ان ما حدث من نزاع بينه وبين روبرت جويسكارد ، وما تلى ذلك من نشوب حرب التقليد [٢] ، منعه من المضي في خططه ، والنتيجة الوحيدة التي ترتبت على ذلك ، ان ما وقع كان سابقـــة وايحاء لما وقع من حوادث سنة ١٠٩٥ ، حـــين كرر الامبراطور الكسيوس

---

(١) ترتب على هزيمة البيزنطيين الساحقة ، على يد الاتراك السلاجقة ، في مانزيكرت سنة ١٠٧١ ان رأى الامبراطور ميخائيل السابع ضرورة التفاهم مع البابوية ، وادرك ما للبابوية من اهمية في منع ما تتعرض له بيزنطة من الخطر النرماني ، لا سيا بعد استيلاء النرمان على باري في سنة ١٠٧١ ، من املاك البيزنطيين في ايطاليا . يضاف الى ذلك ان الحصول على امدادات من الغرب انما يكفله العلاقة الطيبة مع البابا . فانتهز الامبراطور ميخائيل السابع ، فرصة اعتـــلاء جريجوري السابع كرسي البابوية . سنة ١٠٧٣ فارسل يهنئه ، ويدعو الى توطيد الصلات .
(Ibid. p. 98.)

(٢) تبين للبابا جريجوري السابع ان الامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع صادق في دعواه ، ووقف على تطور الاحوال في آسيا الصغرى بعد انثيال الترك فيها ، وخطر له امر امتداد الحرب المقدسة الى آسيا بعد ان تبين نجاحها في اسبانيا . ورأى ان يرسل للبيزنطيين جيشاً مؤلفاً مـــن فرسان مسيحيين يأتمرون بأمر الكنيسة ، واذ تراءى له ان ثمة من المشاكل الكنسية ما يتطلب الحل ، فلا بد له ان يتولى قيادة الجيش . فاذا تم طرد الترك من آسيا الصغرى ، انعقد مجمع ديني في القسطنطينية ، واعترف فيه ، مسيحيو الشرق بزعامة روما .

اما حرب التقليد فان سببها يرجع الى ما اعلنه جريجوري السابع سنة ١٠٧٥ من انه ليس =

كومنين رجاء ميخائيل السابع . وعلى الرغم مما اشتهر به الكسيوس من الشجاعة والحكمة ، لم يكن في استطاعته ان يتغلب في وقت واحد على ما يواجهه من عداء النرمنديين في الغرب ، والبجناك في الشمال ، والسلاجقة في الشرق والجنوب . استنجد الكسيوس فعلا ، في سنتي ١٠٨٧ ، ١٠٨٨ ، ببلدوين امير الفلاندر، ليرسل اليه العساكر، واستجاب بلدوين لرجائه . واستنجد الكسيوس ايضاً اكثر من مرة بالبابا اربان الثاني ، وكان رد اربان الثاني ، ارسال الحملة الصليبية الاولى . على ان الحملة الصليبية الاولى لم تكن ما طلبه الكسيوس من مساعدة ، او توقع الحصول عليها ، اذ انه لم يلتمس الا ارسال امدادات لاسترداد آسيا الصغرى ، غير انه تلقى مئات الالوف من الجند ، يعملون مستقلين عنه ، ويهدفون الى ان يستولوا لحسابهم ، على بيت المقدس ، على الرغم من انهم في الوقت ذاته ، يصح ان يستردوا ، اثناء سيرهم ، آسيا الصغرى ، وان يعيدوها الى الامبراطورية البيزنطية . على انه يجوز هنا مقارنة الكسيوس بالساحر ، الذي ما كاد يردد اسم شيطان يأتمر بأمره ، حتى احاط به حشود من الشياطين ، وللواقع ان استنجاد الكسيوس، ادى الى ان ينطلق مافي الغرب من القوى ، التي لم تعمل فحسب مستقلة عن مصالح الامبراطورية البيزنطية ، بل صارت آخر الامر معادية لها .

وتعتبر الكنيسة القوة الاساسيــــة التي حولت ملتمس الكسيوس بطلب الامدادات الى حرب مقدسة للاستيلاء على فلسطين . فالمعروف ان التفكير

=من حق الحاكم العلماني - اي السياسي - ان يقلد احدا من رجال الكنيسة شارات المنصب الديني ، وان الاقدام على ذلك هدم للقانون الالهي ، لا يطاق ولا يغتفر . انظر التفـــاصيل في تاريخ اوربا العصور الوسطى تأليف فيشر وترجمة زيادة والعريني جـ١ ص١٤٥ وما يليها .
انظر ايضاً Runciman : op. cit. vol. I, p. 99 انظر خطاب جريجوري السابع في وثائــق تاريخ العصور الوسطى .

الديني هـــو التفكير المبتكر في العصور الوسطى . فالكنيسة هي التي خلقت الامبراطورية الكارولنجية ، لان رجـــال الدين هم الذين يدركون معنى الامبراطورية ، والكنيسة هي التي ابتكرت الحرب الصليبية الاولى ، لان رجال الدين يؤمنون بالحج من اجل التوبة ، فيجوز ان تتحول الحرب ضد السلاجقة الى الحج الى كنيسة القيامة ، ولان رجال الدين ايضا يرغبون في ان يوجهوا ما عند العلمانيين من غريزة المقاتلة ، كما ان ما تشتهر به بيت المقدس من اسم مقدس يجعل المسير اليها يتسم بالبراءة وعدم الريبة ، وفوق كل ذلك ، لان البابوية انما ارادت انه لا بد ان يحكم في الارض المقدسة كنيسة عالمية خالصة . غير انه من الخطأ ان تعتبر الحروب الصليبية (وكذلك الامبراطوريـــة الكارولنجية) ، من خلق وابتكار الكنيسة ، او انها ترجع الى سياسة تيوقراطية ، تعمل على توجيه الرجال الى الحرب المقدسة ، التي تعتبر الحرب الوحيدة التي تستطيع التيوقراطية اثارتها . على انه من الاصوب ، انما لم يكن كل الصواب ، ان نقول بأن رجال الدين اطلقوا اسم الحرب الصليبية لتبرير المصالح والمطامع التي حدث ان اتفقت مع ما اختاروه من وسائل ، على الرغم من ان هذه الحروب انطلقت لتحقيق اغراض مخالفة لاغراض الكنيسة . مثـــال ذلك ما كان من طموح الامير المغامر ، والابن الاصغر (لجويسكارد) الحريص على ان يقيم لنفسه امارة في الشرق ، ويعتبر بوهمند من هـــذا الطراز . وثمة ايضا مصلحة المدن الايطالية ، التي حرصت على ان تحصل على منتجات الشرق بسعر رخيص ، وبطريق مباشر ، بفضل ما تشيده من مستودعات في شرق البحر المتوسط . فالنوع الاول (الذي يمثله بوهمند) ، يعتبر القوة المحركة التي كفلت النجـــاح للحرب الصليبية الاولى ، بينما فشلت الحملات المتأخرة بسبب افتقارها الى هذا المؤثر . اما النوع الثاني (الذي يمثله مصلحة المدن الايطالية) فيعتبر الحليف القوي المتين ، الذي بفضله وحده استطاع بلدوين الاول ، وبلدوين الثاني ، ان

يقيما بمملكة بيت المقدس . وما ادت اليه الحروب الصليبية من نتائج مادية دائمة في الشرق ، انما يرجع الى حد كبير الى هذين العاملين . فالحماس المضطرب غير المنظم ، لم يكن له الا اثر ضئيل ، بل يكاد الا يكون له اثر مطلقا . اما الحماس الذي اتخذه ووجهه كل من النرماني الماكر ، والبندقي او الجنوي الذي لا يقل عنه مكرا ، فهو الذي ادى الى نتائج ثابتة . والواقع ان انشاء الامارة او اقامة المستودع ، لم يكن الا من اغراض الامير او التاجر . على انه ينبغي ان يكون معروفا ان الحافز الديني يعتبر كل شيء عند جموع الصليبيين . ولذا ينبغي ان نعود الى الرأي الذي يعتبر الحرب الصليبية الاولى من خلق الكنيسة . فالمعروف ان الامل في احراز الفضائل الروحية ، لابد ان يعتبر حافزاً كبيراً عند الوف الصليبيين ، والمعروف ايضا ، كما تدل على ذلك سجلات العظات الصليبية ، ان في الحروب الصليبية عاملا قويا من جوهر الاحياء الديني ، وان الوفا هرعوا الى اتخاذ الصليب ، نتيجة ما حدث من نوبة حماس متدفق كالذي يثيره اليوم اجتماعات دعاة الاحياء الديني والمبشرين به . غير انه ينبغي ايضا التسليم بأن ثمة من الاغراض الدنيوية ما اجتذب الى الحروب الصليبية جموع الدهماء . فما حدث في مواطنهم من المجاعات والاوبئة ، دفع الناس الى الهجرة الى الشرق ، ابتغاء الخروج من الضيق ، واملا في الخلاص منه . ففي سنة ١٠٩٤ وقع وباء انتشر من الفلاندر وامتد الى بوهيميا ، وفي سنة ١٠٩٥ حدثت مجاعة في اللورين . فلا عجب ان تدفق نحو الشرق سيل من الهجرة ، مثلما يجري في الازمنة الحديثة من الانسياب نحو منجم من مناجم الذهب ، جرى اكتشافه حديثاً . وهذا السيل اشتهر بما حمله في ثنايا المياه العكرة ، من الوسخ الزائد ، والافاقين والمفلسين وشذاذ الطرق ، والابقين من الرهبان ، والهاربين من الارقاء ، وامتاز ايضا بمثلما امتاز به الاندفاع نحو منجم الذهب حديث الاكتشاف ، من تعدد الجماعات ، واختلاف عناصرها ، وشدة الرغبة في البقاء ، وتناوب الجاه والشحاذة.

هذه كانت القوى التي اطلقها من عقالها البابا اربان الثاني ، حينما انتقل الى كليرمونت ، في الجنوب الشرقي من فرنسا ، بعد ان عقد مجمعا دينياً في بياكنزا (في مارس سنة ١٠٩٥) ، وتلقى به التماسات جديدة من الكسيوس . وفي كليرمونت ، وفي ٢٦ نوفمبر سنة ١٠٩٥ ، القى اربان الثاني خطابه الشهير [١] الذي اعقبه الحرب الصليبية الاولى . ودعا اربان في هذا الخطاب الى مساعدة اليونانيين (البيزنطيين) ، غير ان جوهر هذا الخطاب ، انما دار حول ما تعرضت له المسيحية من الخطر . « فلتجر مراعاة هدنة الله في ارض الوطن ، وينبغي تجريد جيوش المسيحيين في حملة لقهر المسلمين ، ابتغاء الحصول على التوبة الكاملة التامة » . ولم يختلف اربان الثاني عن جريجوري السابع ، في الحوص على مساعدة الامبراطورية البيزنطية ، غير انه يخالفه في ان جريجوري لم يشر الى القبر المقدس الا في رسالة واحدة ، ولم يتعرض فيها الى ذكر بيت المقدس الا عرضاً وتلميحاً . وما تجاوب من هتاف « هكذا اراد الله » ردا على اشارة اربان الثاني ، انما يدل على ان اربان اصاب كبد الحقيقة . اذ بادر الالوف الى اتخاذ الصليب ، وكان اولهم ادهيمر اسقف باي Puy ، الذي جعله اربان نائباً عنه ، ونصبه قائداً للحملة الصليبية الاولى ، لان الحرب المقدسة ، وفقاً للفكرة الاصيلة عند اربان ، ينبغي ان يتولى قيادتها احد رجال الدين . وبعد ان حدد اربان يوم ١٥ اغسطس سنة ١٠٩٦ ، موعدا لرحيل الصليبيين ، وعين القسطنطينية مكانا لاجتماعهم ، رجع من فرنسا الى ايطاليا . ومن الملحوظ ان بذور الحروب الصليبية ، جرى القاؤها في تربة فرنسية ، وان الذي بشر بالحروب الصليبية بابا من اصل فرنسي ، وانها بدأت واستمرت في جوهرها مشروعا فرنسيا (ويجوز ان نقول انها فرنسية نرمانية) ، وان

---

(١) انظر نص الخطاب في كتاب وثائق تاريخ العصور الوسطى .

المملكة التي اقامها الصليبيون بالشرق ،كانت ايضا في جوهرها مملكة فرنسية ، في لغتها وعاداتها ، وفي فضائلها ورذائلها . ومن الطبيعي ان تكون فرنسا مهد الحروب الصليبية ، اذ انها كانت فعلا موطن الحركة الكلونية ، والمركز الذي انبعث منه « سلام الله » ، والموطن المختار للفروسية . وتستطيع فرنسا ان تقدم من النبلاء الاقطاعيين حشداً لم يكن شديد الارتباط بمكانته في المجتمع ، ومستعدا لان ينطلق في مغامرة كبيرة . يضاف الى ذلك ان فرنسا قاست كثيرا مما وقع بها من المعارك والحروب ، وعانت ما حدث بها من الوباء والمجاعة . فالهروب من هذه الاحوال انما يلقى ترحيباً. على أن الحروب الصليبية لقيت عند النرمان بصفة خاصة قبولاً طيباً ، اذ انها استجابت لما اشتهر به الشماليون منذ زمن قديم من الميل الى الحركة والانتقال ، هذا الميل الذي دفع الشمالي منذ زمن بعيد الى المسير شرقاً كيما يحصل على الذهب (الدورادو) El-Dorado في ميكلجارث Miklegarth (القسطنطينية) ، يستطيع الان ان يجد له منفذاً طبيعياً في حملة موجهة الى بيت المقدس . وتتجاوب الحروبالصليبية ايضاً مع ما اشتهر به النرمان من التدين الذي جعل منهم قوماً من الحجاج ، وحلفاء للبابوية ، وجعل منهم في انجلترا وصقلية ، صليبيين قبل نشوب الحروب الصليبية . والحروب الصليبية تتفق آخر الامر مع تلك النزعة في امتلاك اراضي جديدة ، تلك النزعة التي اعتبرها Malaterre من خصائص الامراء النرمانديين . فلا عجب اذن ، اذا تم حشد الجيوش الصليبية في فرنسا ، او اذا تولى قيادتها رجال ينتمون الى بيت هوتفيل Hauteville [1] . وفي تلك الاثناء ، كان لدى انجلترا ، الحديثة العهد بالفتح النرماني ، من المشاكل ما يتطلب الانصراف الى حلها . اما المانيا فان ما اصابها من التمزق بسبب الحروب الداخلية ، ومن الطبيعي ألا تسعى الى اشغالها، انما جعلها تسخر من الصليبي .

---

(١) هي الاسرة ، النرمندية التي تولت الحكم في صقلية وجنوب ايطاليا ، واليها ينتمي النرمنديون الذين اشتركوا في الحروب الصليبية ، امثال بوهمندوتانكرد .

الفصل الثالث

الحملة الصليبية الاولى ـــ خطة سيرها

من الطبيعي ان تتألف الحملة الصليبية الاولى من قسمين: يصح ان يتخذ القسم الاول منها اسم حملة الشعوب ، وان يطلق على القسم الثاني حملة الامراء . ومن الطبيعي ان تجري اولاً معالجة القسم الاول منها ، نظراً لأسبقيته في الترتيب الزمني، على الرغم من ان حملة الشعوب تلي حملة الامراء في الاهمية. فما ألقاه البابا اربان الثاني من موعظة في كليرمونت ، اضحت زاداً للمبشرين الجائلين ، ومن هؤلاء المبشرين بطرس الناسك، الذي امتاز على سائر المبشرين بحماسه الملتهب[1]. اذ امتطى حماراً ، وصار ينتقل من مكان الى مكان ، فاجتاز فرنسا ، وسار على امتداد الراين ، واستطاع بفضل ما اشتهر به من الفصاحة ، ان يجتذب اليه ألوف الفقراء . وفي ابريل سنة ١٠٩٦ ، اي قبل ثلاثة او اربعة شهور، من الموعد المحدد الذي حدده اربان الثاني ، تم حشد خمسة جيوش من الفقراء . على ان ثلاثة من هذه الجيوش ، بقيادة فولشر صاحب اورليان ، وجوتشلك وولیم النجار على الترتيب ، لم تستطع الوصول الى القسطنطينية ، اذ لقي جيشا فولشر وجوتشلك في يونيه سنة ١٠٩٦ ، الدمار على يد المجريين ، جزاء ما ارتكبه الجند من اعمال

---

(١) تعزو اسطورة متأخرة اصل الحرب الصليبية الاولى ، الى ما قام به بطرس الناسك ، من التبشير بها ، والدعوة اليها . وتعرضت الاسطورة لدراسة المؤرخين المحدثين . والواقع ان بطرس شخصية ليس لها الا اهمية ثانوية ـ انظر :

F Duncalf : The Peasants' Crusade : AHR. 1921 pp. 440-453 .

العنف والتخريب . اما الجيش الثالث ، فانه بعد ان اشترك في قتال اليهود بالبلاد الواقعة بوادي نهر الراين ، هلك اثناءه نحو ١٠ آلاف من اليهود ، وكان ذلك من بوادر النتائج الاولى للحماس الصليبي ، لم يلبث ان تبدد شذراً في بلاد المجر (اغسطس) . على ان جيشين من هذه الجيوش الخمسة وصلا في امان الى مدينة القسطنطينية ، وأولهما بقيادة والتر المفلس Walter the Penniless ، اجتاز بلاد المجر في مايو ، وبلغ القسطنطينية في منتصف يوليه ، حيث بقي بها في انتظار بطرس الناسك . اما الجيش الثاني الذي قاده بطرس الناسك ، فانه اجتاز بلاد المجر آمناً مطمئناً ، غير انه لقي عناء شديداً في بلغاريا ، ولم يبلغ القسطنطينية آخر يوليه ، الا بعد ان نقص عدد كبير منه ، وازدادت حالته سوءاً . وعلى الرغم من المعاملة الطيبة التي لقيهـا هذان الجيشان من الكسيوس ، امبراطور الدولة البيزنطية ، فانهما امعنا في ارتكاب الفظائع مع اليونانيين ، واتحدا سوياً ، ثم عبرا البوسفور في اغسطس ، على حين ان بطرس بقي في القسطنطينية . وفي نهاية اغسطس هلك هذان الجيشان عن آخرهما على يد السلاجقة بآسيا الصغرى ، ولم يبق من آثارهما الا كومة من العظام ، لتشهد من تلاهم من الصليبيين ، عند اجتيازهم هذا الموضع ، على مصير حملة الشعوب .

وفي تلك الاثناء ، اخذ الفرسان يجتمعون في مارس سنة ١٠٩٦ ، اذ ان هؤلاء الفرسان اخذوا ؛ طوال سنة ١٠٩٦ ، يهرعون في جماعـات صغيرة ، وبمختلف الطرق ، صوب الجنوب والشرق . وتألف من هؤلاء الفرسان ، ثلاثة جيوش كبيرة ، قادها ثلاثة امراء مشهورون . اذ ان جودفري دي بويون تولى مع اخيه بلدوين ، قيادة الصليبيين القادمين من اللورين ، واتخذ الطريق المعروف « بطريق شارل الكبير » الذي يجتاز المجر الى القسطنطينية ، التي بلغها في ٢٣ ديسمبر . اما ريموند امبرتولوز (وهو اول امير انضم الى الحركة الصليبية) ، فانه

اشتراك مع الاسقف ادهيمر، المندوب البابوي، في قيادة البروفنساليين الى ساحل ايلليريا، ومن ثم سارا شرقاً الى القسطنطينية، فبلغاها في آخر ابريل سنة ١٠٩٧ على حين ان بوهمند ، امير اوترانتو ، والذي شاء القدر ان يكون قائداً للحملة الصليبية ، قاد مع ابن اخيه (تانكرد) جيشاً من النرمان ، فاتخذ طريق البحر الى دورازو ، ومنها سار براً الى القسطنطينية ، فبلغها حوالي الوقت الذي قدم فيه ريموند ، واجتمع ايضاً بهذا الموضع الكبير قادة آخرون ، بعضهم يزيد في المكانة على جودفري او ريموند او بوهمند ، غير انه لم يكن بينهم من له مـــن النفوذ والاثر ما كان لهم في مصير الحرب الصليبية . فمنهم مثلاً هيو فرماندوا Hugh of Vermandois الاخ الاصغر للملك فرنسا ، فيليب الاول ، والذي قدم الى القسطنطينية، في نوفمبر سنة ١٠٩٦، في هيئة اقرب ما تكون الى الاسر الشريف، اذ لم يلبث ان اعلن ولاءه لالكسيوس. اما روبرت امير نورمنديا، وستيفن امير بلوا ، اللذان قدم لهما البابا اربان الثاني في لوكا ، لواء القديس بطرس ، ويعتبران آخر الامراء الصليبيين، فلم يصلا الى القسطنطينية الا في مايو سنة ١٠٩٧، وذلك بعد ان تخلى عنهما رفيقهما في السلاح، الكونت روبرت صاحب الفلاندر ، فأمضى الشتاء في باري ، ثم عبر البحر (الادرياتي) الى القسطنطينية قبل نهـــاية سنة ١٠٩٦ م.

وبذلك اجتمع بالقسطنطينية في ربيع سنة ١٠٩٧، حشد كبير قدره فولشر بنحو ٦٠٠ الف رجل ، وجعله اربان الثاني ٣٠٠ الف والراجح انه يقـــارب ١٥٠ الف من الرجال الاشداء [١] .

---

(١) بلغ عدد جيش جريجوري نحو ٣٠ الف من المشاة ، ١٠ آلاف من الفرسان . وقدر اربان الثاني فرسان بوهمند بنحو ٧ آلاف . (انظر Rahricht p. 617) اختلف المؤرخون في تقدير عدد الصليبيين ـ وناقش الاستاذ رنسيمان الآراء المختلفة ، في الملحق الثاني الذي اورده في كتابه عن الحروب الصليبية انظر (Runciman : op. cit Vol. I. pp. 336-341)

وقبل المضي في تتبع هذا الحشد الى آسيا ، يحسن ان نقف برهة للتعرف الى مختلف العوامل التي سوف تتحكم في طريقه، او تؤثر نشاطه. فمن الناحية الغربية، ومن جهة الصليبيين انفسهم ، ثمة عاملان على جانب كبير من الاهمية ، سبقت الاشارة اليها [1] . اغراض الامراء المغامرين ، ومصالح التجار الايطاليين. ومن ناحية الشرق ثمت عاملان هامان ايضا – الاول ، سياسة اليونانيين (البيزنطيين) والثاني احوال الشرق الاسلامي . وسبق ان رأينا ان من الامراء الذين انضموا الى الحملة الصليبية الاولى ، من اشتهروا بانهم من السياسيين ، ولم يكونوا من المتحمسين للدين ، بل نزعوا الى الحصول على كسب دنيوي الى جانب الكسب الروحي . وهذا الطراز من الامراء يمثله بوهمند الذي يصح اعتباره مصدر الهام الامراء ومثير همتهم . فمنذ البداية ، جعل بوهمند في قرارة فكره انشاء امارة بالشرق . واذا حكمنا بما اورده تابع بوهمند [2] الذي دون « اعمال الفرنجة » ، فانه ما جرى من الحديث في القسطنطينية تناول اتخاذ انطاكية مركزا لهذه الامارة . ومن الواضح ان سياسة بوهمند اوحت الى بلدوين ، شقيق جودفري دي بويون ، بأن ينافسه في هذه الناحية ، فحاول من جهة ان يحبط جهود تانكرد ، ابن اخ بوهمند، حين شرع في تأسيس امارة بالشرق لعمه ، بأن استولى على قليقية ، ومن ناحية اخرى ، اقام بلدوين لنفسه امارة في الرها . اما ريموند امير بروفانس ، وثالث الامراء الكبار ، في الحملة الصليبية الاولى ، الذين غلبت عليهم الصفة السياسية ، ويعتبر آخر واحد فيهم من هذه الناحية، فانه لم يختلف عن بلدوين ، فيما يكنه من حسد لبوهمند ، اذ دفعه الحقد ، اول الامر، الى ان

---

(١) انظر ما سبق ص ٢٠ ، ٢١ .

(٢) انظر مقدمة كتاب اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس – ترجمة الدكتور حبشي القاهرة ١٩٥٨ .

يحاول ان ينتزع انطاكية من بوهمند، وان يؤسس لنفسه ايضا امارة طرابلس، جنوب انطاكية، فيمنع بذلك امتداد ونمو سلطان بوهمند. وما اشتهر به هؤلاء الامراء الثلاثة من اغراض سياسية، وما حدث من التعارض والتشابك في سياستهم المختلفة، كان عاملاً في تحديد مصير الحملة الصليبية الاولى، وما يترتب عليها من نتائج. اما اثر المدن الايطالية فلم يصبح محسوساً الا بعد انتهاء الحملة الصليبية الاولى، حين اسهمت في اقامة مملكة بيت المقدس، بالاضافة الى الامارات الثلاثة التي انشأها بوهمند وبلدوين وريموند. على ان السفن الايطالية التي ارتادت اثناء الحرب الصليبية الاولى شواطىء سوريا، استطاعت ان تمد الصليبيين بالمؤن والذخائر، وان تقدم مساعدتها في حصار انطاكية وبيت المقدس [1]، فكان للقوة البحرية بذلك اثرا في تقرير ما احرزه الصليبيون من الانتصار.

اما الاحوال في الشرق، فانها كانت بصفة عامة، ملائمة للصليبيين فالمشكلة الوحيدة، والتي تعتبر حقا مشكلة خطيرة، انما تمثلت فيما اتخذه الكسيوس من من خطة واتجاه، ذلك ان الكسيوس حين واجه الصليبيون الذين التمس منهم المساعدة، تحتم عليه ان يختار احدى سياستين. اذ يصح ان يعتبر الصليبيين حلفاء مستقلين، فيعاملهم على انهم اسوياء له، فيشترك معهم على هذا الاساس في القتال، ويقتسم معهم ما يترتب على الحرب من الفتوح. وفي هذه الحالة يصح رسم خط، ينتهي عند شمال شرقي انطاكية، فيكون للصليبيين ان يمتلكوا ما يستطيعون امتلاكه، من الجهات الواقعة الى الجنوب والشرق من هذا الخط. غير انه لسوء الحظ تمسك بالاعتقاد بأن كل الاراضي التي سوف يحتازها الصليبيون ليست الا

---

(١) في سبتمبر سنة ١٠٩٦، دعا البابا اربان الثاني الجنويين، الى ان يتوجهوا بسفنهم الى الشرق، لاستخلاص الطريق المؤدي الى قبر السيد المسيح - (انظر):

Runciman : op. cit. Vol. l. pp. 111-112 .

املاكاً فقدتها امبراطوريته ، وترتب على ذلك انه حث الصليبيين على ان يعلنوا له ولاءهم ، وبذلك فكل ما يفتحونه من الجهات انما يفتحونه باسمه ، وكل ما يضعون يدهم عليه ، انما ينالونه على انه منحة منه ، وعلى انهم اتباع له . وعلى هذا النحو صار هيو امير فرماندوا من اتباع الكسيوس في نوفمبر سنة ١٠٩٦ . اما جودفري دي بويون ، فلم يعلن ولاءه الا بعد مشقة وجهد ، في يناير سنة ١٠٩٧ . وفي ابريل ومايو سنة ١٠٩٧ حذا حذوه سائر الامراء ، ومنهم بوهمند وريموند العنيد ، غير ان سياسة الكسيوس ترتب عليها نتائج سيئة ، لكل من الامبراطورية البيزنطية وللحركة الصليبية . فالمعروف ان الغرب توافر له من قبل ، شكاوى عديدة ضد الشرق ، وان الاباطرة البيزنطيين استغلوا حمايتهم للاماكن المقدسة ، ففرضوا على الحجاج ، من الاتاوات ، ما ارغم البابوية على ان تحتج وتتظاهر ضد بيزنطة . ولم يكن لدى المدن الايطالية ، باستثناء البندقية المحظوظة بما نالته من احتكارات ، من الدواعي ما يجعلها في ود مع مدينة القسطنطينية المشهورة باحتكاراتها . وما اشتهر من قديم الزمن من الاختلاف بين الكنيستين الغربية والشرقية ، لم يلبث ان انبعث من جديد في سنة ١٠٥٤ . على ان سياسة الكسيوس اضافت الى الحقد القديم ، حقداً جديداً ، بلغ الذروة بما حدث سنة ١٢٠٤ من فتح اللاتين للقسطنطينية . يضاف الى ذلك ان ما اصابته الحركة الصليبية من نجاح ، لم يلبث ان تعرض وقتذاك وبعدئذ للخطر بسبب ما تكنه لها اسرة كومنين من الحقد . فما اضمره الاباطرة الكومنينيون دائماً من كراهية شديدة للامارة التي انشأها بوهمند ، على الرغم من يمين الولاء الذي اتخذه للامبراطور البيزنطي ، جعلهم يسهمون في ضياع الرها سنة ١١٤٤ ، ويعجلون بتفكك مملكة بيت المقدس . على انه ينبغي ان نتذكر ، انصافاً لالكسيوس ، ان ما واجهه من مشكلة خطيرة ، فضلاً عن سلوك الصليبيين انفسهم ، لم يجعله مستعداً لان يقبلهم اخوة له في السلاح .

اما حالة آسيا الصغرى وسوريا في سنة ١٠٩٧ ، فتعتبر في نواح عديدة ملائمة

لنجاح الصليبيين. اذ لم يحفل سلاطين السلاجقة الا بالاحتلال العسكري لما فتحوه من الاقليم، فاستقرت حاميات سلجوقية في بعض المدن ، مثل نيقية وانطاكية، واستعدت لمواجهة الصليبيين والاستماتة في مقاومتهم، وتفرق ايضاً في انحاء البلاد جيوش سلجوقية ، اما مرابطة في جهات معينة ، او في حالة انتقال وارتحال . غير ان سكان المدن كانوا دائماً اعداء للحاميات العسكرية السلجوقية ، كما ان مناطق شاسعة لم يكن بها على الاطلاق قوات عسكرية . وترتب على ذلك ، ان الصليبيين ، حين استولوا على مدينة نيقية ، وانزلوا الهزيمة بالجيش السلجوقي الرئيسي ، في دور يليوم (اسكي شهر) ، اضحى الطريق مفتوحاً امامهم داخل آسيا الصغرى . لم يكن هذا هو كل شيء ، بل انهم ادركوا وقدروا ، على الاقل ، اهمية ما يبديه السكان الاصليون من الحياد المشوب بالعطف نحوهم ، كما انهم توقعوا مساعدة ايجابية ، من الامارات الارمنية ، الواقعة في الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى، والتي بقيت قائمة وسط طوفان الفتح السلجوقي. وهذا الامل في مساعدة الارمن، سوف يفسر ما اتخذه الصليبيون، بعد مغادرة هرقلة، من طريق يتجه نحو الشمال الشرقي . غير ان ما غلب على الاحتلال السلجوقي من الطابع الحربي الخالص ، ساعد الصليبيين في ناحية اخرى . فما حدث من اشتداد الحاجة الى القادة الاكفاء في الاقاليم المستقلة بالامبراطورية السلجوقية ، دعا هؤلاء الى ان يجعلوا من انفسهم، كما هو الحال دائماً في الامبراطوريات الشرقية، قادة مستقلين فيما خضع لهم من جهات ، لانه لم يكن ثمة من النظم ما يجعلهم يخضعون جميعاً لسلطان واحد . فلما مات ملك شاه (١٠٩٢ م) آخر السلاطين الاقوياء من السلاجقة، تفككت الامبراطورية السلجوقية، وتولى الحكم في بغداد سلطان جديد ، وهو بركياروق (١٠٩٤ — ١١٠٤) ، غير ان آسيا الصغرى خضعت لحكم قلج ارسلان ، باعتباره سلطاناً مستقلا ، اتخذ عاصمته في قونيه، على حين ان سوريا كلها كانت مستقلة فعلا . على ان الضعف لم يلحق سوريا

فحسب بسبب ما حدث من انفصالها عن جسم الامبراطورية السلجوقية ، بل ايضاً بسبب ما انتابها من انقسامات في الداخل ، وما تعرضت له من هجمات الخليفة الفاطمي بمصر من الخارج . ففي سنة ١٠٩٥ ، تولى الاخوان ، رضوان ودقاق ، حكم حلب ودمشق على الترتيب ، غير ان الحرب لم تلبث ان شبت بينهما ، واشترك ياغي سيان امير انطاكية فيما وقع بينهما من المنازعات ، ولم يتوقف رضوان وياغي سيان عن مهاجمة دقاق ، الا حين بلغتهما الانباء باقتراب الصليبيين ، فاسرع ياغي سيان الى انطاكية ، في خريف سنة ١٠٩٧ .

وفي تلك الاثناء لم يتوان الفاطميون في الافادة من هذه المنازعات . اذ ان انشقاقاً دينياً كبيراً ، كان يفصل الخليفة الفاطمي في القاهرة ، وزعيم المذهب الشيعي ، عن الخليفة العباسي ببغداد ، وزعيم المذهب السني . وهذا الاختلاف يجوز مقارنته ، بما كان بين الكنيستين اليونانية واللاتينية من نزاع، بل انه يفوقه بما غلب عليه من طابع الاختلاف السياسي . وكيفما كان الامر ، فان هذا الاختلاف ادى الى عرقلة حركة المسلمين مثلما ادى ما بين الكسيوس واللاتين من الحسد والحقد ، الى عرقلة حركة الحرب الصليبية . وادرك الامراء الصليبيون تمام الادراك ، الفجوة التي تفصل بين خليفة القاهرة عن الامراء السنيين في سوريا ، وسعوا عن طريق مبعوثيهم الى ان يتصلوا بخليفة القاهرة ، املا في ان يظفروا ، بفضل مساعدته ، ببيت المقدس ، التي حكمها وقتذاك نيابة عن الترك سقمان ابن الامير ارتق [1] . غير ان الخليفة (الفاطمي) رأى ان ينفرد بالعمل لنفسه ،

---

(١) حدث في وقت واحد المفارضات والقتال اثناء الحرب الصليبية الاولى . وجرى ذلك ايضاً في الحرب الثالثة والحرب السادسة . ولنلحظ ما قام به الملمانيون من نشاط في توجيه سير الحرب الصليبية . فعلى الرغم من ان هذه الحرب قامت على اساس ديني ، فانها اتخذت في سيره صفة دنيوية . ومن الامور المتناقضة ان حملة دينية اسهمت في نمو الحافز الدنيوي ، وهيأت =

واستغل ما وقع بين امراء سوريا من حروب ، وما اثاره زحف الصليبيين من الخوف والرعب ، فاستولى على بيت المقدس (اغسطس سنة ١٠٩٨) .على الرغم من ان زعماء الحملة الصليبية لم يحرزوا شيئاً من النجاح في استغـــلال ما وقع من منازعات بين المسلمين على النحو الذي يبتغونه ، فالواقع ان ما اصابوه من النجاح ، انما يرجع الى حد كبير الى هذه المنازعات . وما وقع من الفرقة بين امراء الشام ، وما حدث من الانقسام بين العباسيين والفاطميين هيأ للصليبيين الاستيلاء على المدينة المقدسة ، وانشاء مملكة بيت المقدس . على ان مصير المسيحية اللاتينية في الشرق تقرر ، حينما نهض بالموصل حوالي سنة ١١٣٠ م قوة جديدة ، استطاعت ان توحد الشام ، وحينما انضمت ايضاً سوريا ، بعد اتحادها ، الى مصر ، واجتمعتا في يد صلاح الدين .

والآن نلتفت الى تتبع تاريخ الحملة الصليبية الاولى . اذ ان الصليبيين اخذوا في اول مايو سنة ١٠٩٧ ، يعبرون البوسفور ، وينفذون الى ممتلـكات قلج ارسلان (آسيا الصغرى) . واول عمل قام به الصليبيون ، هو انهم حاصروا نيقية ، التي تولى الدفاع عنها حامية سلجوقية ، غير انها لم تلبث ان سقطت ، بفضل مساعدة الكسيوس . وبعد حصار استمر شهراً (يونيه ١٠٩٧) ، فوضع الكسيوس يده على المدينة ، وعلى الرغم من ان الكسيوس كافأ الامراء الصليبيين في سخاء ، فان ما قام به من تصرف اثار سخطهم . وكان على الصليبيين بعد سقوط نيقية ، ان يلتقوا في معركة مع جيش قلج ارسلان ، غير ان جيش قلج ارسلان لقي الهزيمة ،

= للعلمانيين ان يفلتوا من ذلك الميل نحو التيوقراطية البابوية ، وكان ذلك واضحاً في زمن بابوية جريجوري السابع .

أنظر حبشي : الحرب الصليبية الاولى - القاهرة ١٩٥٨ ص ١٢٦ - ١٢٧

William of Tyre Trans. Krey· 1943 . Vol. I. pp. 223-224 .

بعد ان خاض معركة عنيفة ، استمرت زمناً طويلا ، عند دور يليوم (اول يوليه سنة ١٠٩٧) ، ثم توجه الصليبيون ، دون ان يصادفوا مقاومة ، جهة الجنوب الشرقي، الى هرقلة . وهنا توجه تانكرد، ومن بعده بلدوين، الى قيليقية ، وشرع في الاستيلاء على مدن قيليقية لا سيا طرسوس ، فبدأ بذلك ، فيما يبدو ، في انشاء امارة انطاكية النرمندية . اما الجيش الاساسي فانه سار جهة الشمال الشرقي نحو قيصرية كيا يتصل بأمراء هذه المنطقة من الارمن ، ثم سار صوب الجنوب، مرة اخرى ، الى انطاكية . وعند مرعش ، التي تقع في منتصف الطريق بين قيصرية وانطاكية ، انحاز الى الجيش بلدوين ، بعد ان طرد تانكرد من طرسوس . غير ان بلدوين لم يلبث ان انسحب من جديد ، من الجيش الرئيسي واتخذ طريقه نحو الشرق الى الرها ، حيث اقام بها امارة . وفي نهاية اكتوبر سنة ١٠٩٧ ، اتخذ الصليبيون مواضعهم امام انطاكية التي كان يحكمها باغي سيان، فاخذوا يحاصرون المدينة ، واستمر الحصار من ٢١ اكتوبر سنة ١٠٩٧ ، الى ٣ يونيه سنة ١٠٩٨ . ومن الطبيعي ان يكون بوهمند من اكبر الشخصيات في حصار انطاكية ، مثلما كان من قبل بطل دوريليوم. فأحبط ما قام به دقاق (٣١ ديسمبر سنة١٠٩٧)، ورضوان (٩ فبراير سنة ١٠٩٨) ، من محاولات لمساعدة انطـــاكية ، ويسر الاتصال بين المحاصرين وبين السفن الجنوية الراسية في ميناء سان سيمون ، ميناء انطاكية (مارس ١٠٩٨) . وهي حركة افادت فوراً في معالجة ما كان يقاسيه الصليبيون من نقص في المؤن، ووفرت من المواد ما يلزم لبناء القلاع، التي حاول بها بوهمند ، وفقاً لما هو معروف عند النرمنديين ، ان يثير الفزع في نفوس اهل المدينة المحاصرة . واستطاع بوهمند ، آخر الامر ، ان يستولي على المدينة بفضل خيانة الامير فيروز احد قادة باغي سيان . على ان القادة الآخرين وعدوه ، قبل ان ينتهي من مفاوضاته مع فيروز، بأن يمتلك المدينة، غير ان الامر بلغ من طول التأجيل والمراوغة ، ان الجيش الذي نهض بقيادة كربوجا أمير الموصل لمساعدة

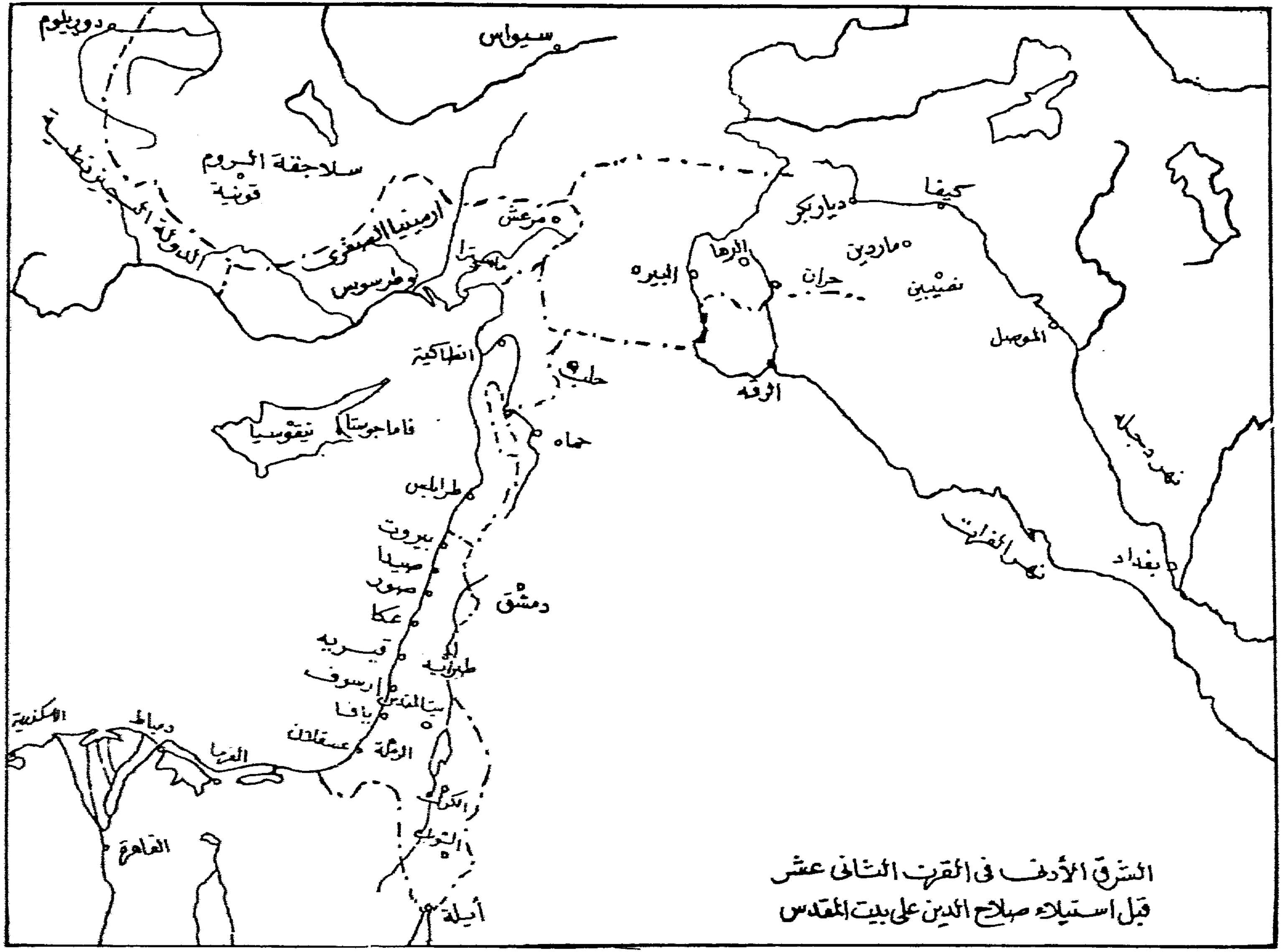

الشرق الأدنى فى القرن الثانى عشر
قبل استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس

انطاكية ، لم يكن الا على مسيرة ثلاثة ايام حينما سقطت انطاكية في يد الصليبيين (٣ يونيه سنة ١٠٩٨) . على ان المحاصرين ما كادوا يدخلون المدينة حتى اضحوا محاصرين بقوات كربوجا. وما اعقب ذلك من فترة مدتها خمسة وعشرون يوماً، تعتبر من اسوأ فترات الشدة والضغط ، التي صادفها الصليبيون . على ان الظواهر « الروحية » لم تأخذ في الظهور الا تحت هذه الشدة وذلك التوتر. وهذه الظواهر لم تبرز الا في صفوف جيش البروفنساليين ، حيث يبدو ان ما اشتهر به الكونت ريموند من التقوى ، امتد الى سائر اتباعه ، وبلغت هذه الظواهر الذروة حين جرى الكشف المزعوم للحربة المقدسة التي اخترقت جانب السيد المسيح (المنقذ)، ولم يلبث ان امتد التأثر الى كل الجيش. وما ترتب على هذا الكشف من قوة مثيرة، مكنت الصليبيين من ان يلتقوا بكربوجا في معركة حاسمة ويهزموه في ٢٨ يونيه. غير ان ذلك لم يتم الا بعد ان تسلل من الجيش الصليبي ، وهرب من ساحة القتال عدد كبير من فرسانهم ، ومنهم الكونت ستيفن امير بلو ذاته .

وصار للكونت ريموند اهمية جديدة بسبب ما حدث من اكتشاف الحربة المقدسة ، التي اضحت من خصائص البروفنساليين. وعلى الرغم مما اشتهر به ريموند من التقوى ، فانه اتصف بالعناد الشديد ، والسعي الى تحقيق اطماعه الشخصية ، فلما تم رد كربوجا نهائيا ، اخذ ريموند ينازع بوهمند امتلاك انطاكية ، مرتكناً في ذلك الى يمين الولاء التي اقسمها بوهمند للامبراطور الكسيوس . وترتب على استمرار النزاع بضعة شهور ، ان تأجل مسير الصليبيين ، والواقع ان ريموند غادر انطاكية في نوفمبر ، وتحرك صوب الجنوب الشرقي ، الى معرة ، غير ان رجاله ظلوا يحتلون موضعين في انطاكية ، ولم يستطع بوهمند طردهم من هذين الموضعين ، الا في يناير سنة ١٠٩٩ . ولما تم طرد البروفنساليين من انطاكية، حاول ريموند العنيد ان يعوض ذلك في الجنوب (حيث اقام فيما بعد كونتية

طرابلس) ، ومن فبراير الى مايو سنة ١٠٩٩ ، انصرف ريموند الى حصار عرقة الواقعة الى الشمال الشرقي من طرابلس ، وحدث اثناء حصار عرقة ، ان تعرض لاختبار النار بطرس بارثلميو ، وهو اول من ظهرت له رؤية الحربة المقدسة ، ومن الطبيعي انه لم يترتب على ذلك نتيجة من النتائج ، فأخذ النرمان المشهورون بالعناد والصلابة ، يشكون فيما لاية رؤية بروفنسالية من صفة حقيقية ، وازداد شكهم حينما تحولت هذه الرؤية ، كما في هذه الحالة ، الى ميزة سياسية للبروفنساليين. فطال امد الحصار ، وحرصت جموع الحجاج على ان يسيروا الى بيت المقدس ، وقد اشتد تبرمهم وضجرهم — على حد تعبير مؤلف اعمال الفرنجة — لما وقع بين ريموند وبوهمند من منازعات سياسية . وعندئذ تقدم جودفري دي بويون ، وتزعم الحجاج الساخطين ، فأرغم ريموند على ان يقبل شروط امير طرابلس ، وان يرفع الحصار عن المدينة ، وان يتوجه الى بيت المقدس ، وذلك في منتصف مايو سنة ١٠٩٦ . اما بوهمند فبقي في انطاكية ، بينما توجه سائر القادة مع الحملة ، واتخذوا الطريق الساحلي ، الى ان صاروا امام بيت المقدس في اول يونيه سنة ١٠٩٦ . وسقطت المدينة في ايدي الصليبيين (١٥ يوليه سنة ١٠٩٩) ، بعد حصار استمر ما يزيد على شهر ، واجرى الصليبيون مذبحة مريعة ، اذ ان الدماء بلغت من شدة التدفق في الشوارع ، ان خاض الناس بخيولهم فيها . ولما انزل الليل استاره ، اقبل الصليبيون آخر الامر الى كنيسة القيامة ، وقد « بكوا من شدة الفرح » ، وفي الكنيسة رفعوا ايديهم المخضبة بالدماء ، وصاروا يجهرون بصلاتهم ، وفي ذلك اليوم من شهر يوليه ، انتهت الحملة الصليبية الاولى .

ولم يبق الا ان يتقرر امر الحكومة المقبلة في بيت المقدس . وهنا ظهرت المشكلة الازلية لما بين الكنيسة والدولة من العلاقات . اذ كان يبدو طبيعياً ان المدينة المقدسة ، التي تولى فتحها في حرب مقدسة ، جيش عين البابا احد رجال

الكنيسة ، الاسقف ادهيمر ، قائداً له ، ينبغي ان يتولى امرها حكومة من قبل الكنيسة ، غير ان ادهيمر مات في اغسطس سنة ١٠٩٨ ، (وترتب على وفاته ما حدث في نهاية سنة ١٠٩٨ ، واول سنة ١٠٩٩ ، من الارتباك والمنازعات) ، ولم يكن ثمة من رجال الكنيسة ، بعده ، من توافر فيه من الهيبة والمكانة ما يكفل انتصار امر الكنيسة . ففي اجتماع الصليبيين ، الذي انعقد في ٢٢ يوليه ، لم ترتفع الا اصوات قليلة تؤيد وجهةالنظر التي تقضي بأن «نائباً روحياً» ينبغي ان يجري اختياره اولا ، ليحل مكان بطريرك بيت المقدس الذي قضى نحبه ، (منذ وقت قريب بجزيرة قبرص) ، وذلك قبل ان يجري انتخاب اي حاكم علماني . غير ان هذه الاصوات القليلة لم يستمع لها احد ، بل اقبـــل الامراء على انتخاب حاكم علماني . رفض ريموند امير تولوز ان يقبل ترشيحهم له ، مستنداً في ذلك ، من الناحية الشكلية ، الى سبب روحاني ، وهو انه لم يرغب في ان يحكم في الموضع الذي عانى فيه المسيح العذاب عند صلبه ، على الرغم من انه ثمة من دواعي الشك ما يدل على ان اقامة امارة في طرابلس ، وما حدث من توقف اجراء ذلك ، بسبب ضغط الحجاج ، لا زال الهدف الاول لطموحه . والنتيجة الطبيعية الناجمة عن رفض ريموند ما حدث من اختيار جودفري دي بويون ، الذي لم يحز شهرته الا — كما شهدنا — منذ حصار عرقه . فاضحى جودفري ، تبعاً لذلك ، حامياً «للقبر المقدس» لا ملكاً. وما كادت تمضي ايام قليلة على ذلك، حتى اصبح ارنولف قسيس روبرت النرمندي، واحد المتشككين في مسألة الحرب المقدسة ، نائباً لكرسي البطريركية الشاغر . واول ما قـــام به جودفري من الاعمال انه رد هجوماً من قبل المصريين ، وحقق ذلك في عسقلان بمساعدة سائر الصليبيين (١٢ اغسطس) . وفي نهاية اغسطس ، عاد الصليبيون [١] الى بلادهم ،

---

(١) المعروف ان ريموند لم يغادر البلاد الا بعد ان اثار لجودفري في بيت المقدس من القلق والاضطراب ما اثاره من قبل لبوهمند في انطاكية، وذلك لما قام به من محاولات لعقد صلح منفرد مع السكان الاصليين، دون الرجوع الى جودفري، فتعرض بذلك لسخط جودفري واتباعه. انظر:
Runciman : op. cit. vol I. pp. 297-928 .

وبقي جودفري في جيش صغير لا يتجاوز عدده الفين من الرجال ، ويستند الى مساعدة تانكرد الذي اصبح امير الجليل ، ويخضع لحكمه اربع مناطق متفرقة: يافا ، وبيت المقدس ، والرملة ، وحيفا . وفي نهاية السنة (١٠٩٩ م) ، قدم حاجاً الى بيت المقدس بوهمند (صاحب انطاكية) ، وبلدوين اخو جودفري ، والذي اصبح كونت الرها . على ان زيارة بوهمند ، ادت الى خلق متاعب جديدة لجودفري ، اذ استطاع بوهمند ان يفوز بانتخاب داجوبرت ، رئيس اساقفه بيزا ، ليشغل كرسي البطريركية الشاغر ، وذلك لما يكنه بوهمند من الكراهية لأرنولف ، ولانه يأمل ، فيما يبدو ، في ان يجد في البطريرك الجديد سنداً سياسياً . واصبح جودفري وبوهمند من اتباع داجوبرت . وفي الربيع بدا كأن جودفري ، دخل في اتفاق مع البطريرك ، بأن يسلمه بيت المقدس ويافا ، وذلك اذا استولى جودفري على اراضي او مدن جديدة ، وعلى الاخص القاهرة ، او اذا مات دون ان يعقب ورثة مباشرين . فلما مات جودفري في يوليه سنة ١١٠٠ (وذلك بعد ان قام بغارات ضد المسلمين ، امتدت حتى بلغت دمشق) ، بدا كأن حكومة تيوقراطية لا بد ان تقوم في بيت المقدس ، على الرغم من الحوادث التي وقعت سنة ١٠٩٩ م .

الفصل الرابع

المملكة اللاتينية في بيت المقدس

زمن الملوك الثلاث الاوائل

١٠٩٩ — ١١٤٣

على انه لم يقدر لحكومة تيوقراطية ان تقوم في بيت المقدس . اذ مات جودفري دون ان يعقب ورثة مباشرين . غير ان اخاه بلدوين في الرها ، كان مستعداً لان يحل مكانه . ورضي داجوبرت ، اول الامر ، ان يحقق رغبة جودفري عند موته ، بأن يخلفه اخوه في الحكم . غير انه لما مات جودفري ، رأى داجوبرت ان الفرصة اثمن من ان تفلت من يده ، فقاوم بلدوين ، اعتماداً على تأييد بوهمند الذي بعث اليه داجوبرت يلتمس منه المساعدة[١] . على انه ظهر في بيت المقدس حزب برآسة « النائب الروحي » ارنولف ، نهض لمقاومة دعاوي داجوبرت في النظام الكنسي وما يستند اليه من النفوذ النرماني ، وهذا الحزب الذي يمثله العلمانيون من اللوثرنجيين هو الذي احرز النصر ، وكسب المعركة. اذ جرى استدعاء بلدوين من الرها ، فلما وصل الى بيت المقدس آخر السنة ، تولى داجوبرت نفسه تتويجه ، وبذلك تأسس في يوم عيد الميلاد سنة ١١٠٠ م مملكة

---

(١) على الرغم من ان الاستاذين فون سبيل وهيجنمير سلما بصحة هذه الرسالة فانها تعرضت للشك والتجريح عند كل من بروتز وكوجلر .

بيت المقدس اللاتينية ، وزال كل احتمال لقيام حكومة تيوقراطية. فنبت بذلك في تربة فلسطين مملكة اقطاعية من السادة الفرنجة ، بدلا من ان يقوم بها للبطريرك امارة زمنية Dominium temparal كالتي للبابا في وسط ايطاليا ، كما انه لم يقم ثمة من قبل الكنيسة من العقبات الكبيرة ما يحول دون نمو المملكة . عـــلى انه في الواقع شب نضال ، استمر سنتين ، بين بلدوين الاول والبطريرك داجوبرت . اتهم بلدوين البطريرك بالخيانة ، وحاول ان يرغمه على ان يسهم في الدفاع عن المملكة . وانتهى النزاع سنة ١١٠٣ بعزل البطريرك وانتصـــار الملك ، وعلى الرغم من ان النضال تجدد فترة من الزمن على يد البطريرك ستيفن، زمن بلدوين الثاني (١١٢٨ — ١١٣٠) ، فان النضال الجديد كان قصير الامد ، ولم يلبث ان انتهى عقب وفاة ستيفن .

لم يكن تأسيس مملكة في بيت المقدس سنة ١١٠٠ لطمة موجهة فحسب للكنيسة ، بل كانت موجهة ايضاً للنرمان في انطاكية . ففي نهاية سنة ١٠٩٩ ساد الاعتقاد عند المعاصرين المهتمين بما جرى من الاحداث، بأن انطاكية ينبغي ان تكون عاصمة المسيحية اللاتينية في الشرق . اذ ان انطاكية تقع في اقليم من اخصب الاقاليم بالشرق . كما ان بوهمند يعتبر اعظم رجال عصره عبقرية . ولما زار بوهمند بيت المقدس في نهاية سنة ١٠٩٩ ، قاد جيشاً مؤلفـــاً من ٢٥ الف مقاتل . ومعظمهم من النرمان فماذا يستطيع جودفري ان يفعل ازاء هذه القوة؟ ومع ذلك فان ما تضطلع به امارة جودفري من امور لاكثر اهميـــة ، واعلى شأناً ، مما تلتزم به امارة بوهمند . فان ما احتفظت به بيت المقدس ، مثلمـــا احتفظت به روما ، من الاسم الكبير ، انما يضفي هيبة كبيرة على حاكمها ، واذ صارت الاقامة في روما ، تعتبر من اهم الاسباب في قوة البابوية في العصور الوسطى ، فان الاقامة في بيت المقدس تعتبر سبباً من اسباب ما صـــار للملوك

اللوثرنجيين من سيادة تامة . واجتذبت بيت المقدس من سيل الحجاج القادم من جهة الغرب ، ما لم يكن في وسع انطاكية ان تفعـــله . وعلى الرغم من ان الاغلبية الساحقة من الحجاج لم يكونوا الا كالطيور العابرة ، فان عدداً كبيراً منهم ، استقر بصفة دائمة في الشرق . ولذا ظلت الهجرة مستمرة الى مملكة بيت المقدس، لتزيد من قوة جيوشها، ولتمد من نشاط السكان الاصليين بدماء جديدة. ولعل ما هو اهم من ذلك ، ان موانى المملكة اجتذبت المدن الايطالية ، فأمدت المملكة بقوة جيوشها وبالمهارة في فنون الحصار ، مقابل الحصول على امتيازات، بلغت من الضخامة انها اضعفت موارد المملكة التي اسهمت هذه المدن في قيامها. وبينما امتازت بيت المقدس بما احرزته من هذه المزايا ، لم تكن انطاكية مجردة من العيوب والنقائص . اذ كان لزاماً عليها ، ومن الاصوب ان نقول انها جرت على نفسها ، ان تواجه عداوة ما يجاورها من الدول الاسلامية القوية . فمنذ زمن مبكر يرجع الى سنة ١١٠٠ ، وقع بوهمند اسيراً في معركة حربية ، في يـــد دانشمند امير سيواس ، وترتب على اسره ان البطريرك لم يتلق ما اعتـــاده من مساعدة النرمان ، فأدى ذلك الى ان يلي بلدوين الاول الحـكم دون منـــازع . وحدث ايضاً في سنة ١١٠٤ ان حل بالنرمان، اثناء محاولتهم الاستيلاء على حران، هزيمة ساحقة على نهر بالق قرب الرقة . ولهذه الهزيمة اهمية ، في انها قضت على فرصة قيام امارة نورمندية كبيرة[1]. غير انه لا يقل عنها خطورة ، ما اشتهر به الكسيوس من العداوة التي غذاها وشجعها ما يكنه ريموند امير تولوز لبوهمند

---

(١) ومع ذلك فان الامارات الواقعة في شمال الشام ، اشتهرت بان سكانها اكثر عدداً من سكان الجنوب ، كما ان اللاتين استمروا في انطاكية وطرابلس نحو مائة سنة بعـــد سقوط بيت المقدس . يضاف الى ذلك ان ارض امارات شمال الشام ، تزيد خصوبة على ارض الجنوب، كما ان اتصال هذه الجهات الشمالية بقبرص وارمينيا له اهمية في حمايتها ، فضلا عن بعدها عن مصر، التي تعتبر منذ زمن صلاح الدين مركز القوة الاسلامية .

(امير انطاكية) ، من كراهية شديدة وعداوة مريرة . واذ طالب الكسيوس بانطاكية ، لم يكن ذلــك الا لان انطاكية تعتبر من ممتلكات الامبراطورية البيزنطية ، ولان بوهمند اعلن ولاءه لالكسيوس ، ولمـا ابداه ريموند من الاستعداد للدفاع عن دعاوى الكسيوس ، اذ ان بوهمند كان له نداً ومنافساً خطيراً . وترتب على ذلك، ان اضحى الكسيوس وريموند حليفين. وبفضـل مساعدة الكسيوس ، شرع ريموند ، منذ سنة ١١٠٢ في اقـامة الامارة التي اصبحت بعد الاستيلاء على طرابلس سنة ١١٠٩، معروفة باسم امارة (كونتية) طرابلس ، وبذلك اوقفت الامارة الجديدة امتداد انطاكية الى الجنوب . وفي هذه الاثناء، لم تقم جيوش الكسيوس فحسب بمنع اي توسع جديد (لانطاكية) نحو الشمال الغربي ، بل استولت ايضـاً على مدن قليقية سنة ١١٠٤ . ولذا لا ندهش اذا وطن بوهمند نفسه على الانتقام من الامبراطورية البيزنطية سنة ١١٠٨ ، غير انه صادف هزيمة مهينة في دورازو .

ومن ثم ارتفع شأن بلدوين ، على حين ان قدر بوهمند اخذ يهوي . ومـا حدث من نمو مملكة بلدوين على النحو الذي سبق شرحه ، انما يرجع معظمه الى مصالح المدن الايطالية لا الى الحماس الصليبي. والواقع انه حدث في سنة ١١٠٠، من الاهمية لقدوم حملة صليبية جديدة من الغرب — وهذه الحمـلة التي جرى الشروع في تأليفها منذ سقوط انطاكية سنة ١٠٩٨ ، وتحركت بعـد سقوط بيت المقدس في يد الصليبيين سنة ١٠٩٩ — كان من المقرر ان تحقق اعمالا عظيمة للمملكة الناشئة، فانضم الالوف من الرجال الى هذه الحملة التي سوف تقوم بتوجيه ضربة قاضية للمسلمين . وانضم الى هذه الحملة وليم التاسع كونت بواتييه ، واول شعراء التروبادور ، ولعله فعل ذلك ليجمع زاداً لفكره وخياله ، كما انضم اليها فريق من الذين اشتركوا في الحملة الصليبية الاولى ، ولم يبلغوا بيت المقـدس ،

امثال ستيفن امير بلوا وهيو امير فرماندوا . وتمسك الصليبيون الجدد بخطط بالغة الاهمية ، اذ قرروا ان يطلقوا سراح بوهمند ، وان يستولوا على بغداد . غير ان كل فئة من الفئات الثلاثة ، التي يتألف منها جيشهم ، صادفت هزيمة ساحقة في آسيا الصغرى على ايدي امراء سيواس وحلب وحران في منتصف سنة ١١٠١ م ، ولم ينج منهم الا عدد قليل ليروي نبأ الكارثة الماحقة . ولم يعد بلدوين الاول ، تبعاً لذلك ، ينتظر من الغرب من المساعدة سوى التي تأتي من قبل المدن الايطالية . والمعروف انالسفن الايطالية توجهت منذ زمن مبكر في اثر الصليبيين، اذ ان سفناً لجنوة كانت بميناء سان سيمون في ربيع سنة ١٠٩٨، وفي ميناء يافا في سنة ١٠٩٩ . وفي سنة ١٠٩٩ قاد داجوبرت رئيس اساقفة بيزا ، اسطولا من بيزا الى الارض المقدسة . وفي سنة ١١٠٠ قدم الى يافا اسطول للبنادقة مؤلف من ٢٠٠ سفينة ، ووعد قادته بأن تقدم البندقية كل مساعدة ، مقابل الاعفاء من المكوس ، والحصول على ١/٣ كل مدينة اسهمت في فتحها . غير ان الجنويين هم الذين خدموا بلدوين الاول اكثر من سائر الايطاليين ، اما البنادقة فصارت لهم ، منذ سنة ١٠٨٠ ، مكانة ممتازة في القسطنطينية ، ولم يكن ثمة ما يدعوهم الى ان يلتمسوا لهم متجراً في الشرق ، بينما ارتبطت بيزا ، بفضل داجوبرت ، بانطاكية [1] لا ببيت المقدس . وما حباها به ، فيما بعد ، الامبراطور الكسيوس من امتيازات ، جعلها لا تحرص على ان يكون لها منفذ في الارض المقدسة . غير ان الجنويين ، الذين اسهموا في الاستيلاء على انطاكية وبيت المقدس ، بما قدموه من مؤن وخبرة في الحصار ، اشتدت دعواهم عند

---

(١) من الطبيعي ان ترتبط بيزا بانطاكية ، لما بين انطاكية والقسطنطينية من العداء . يضاف الى ذلك ان بيزا تكن كراهية شديدة للقسطنطينية ، منذ ان خص الكسيوس الاول ، سنة ١٠٨٠ ، البندقية بامتيازات وفيرة . والمعروف ان البندقية اشتهرت بعدائها التقليدي لبيزا.

الصليبيين وازداد اهتمامهم بالحصول على مستودع للتجارة الشرقية . ولذا جرى في سنة ١١٠١ عقد محالفة . وعد الجنويون ان يقدموا بمقتضاها المساعـــدة (للصليبيين) ، مقابل الحصول على ثلث ما يحوزونه من الغنائم ، وحي في كل مدينة يتم الاستيلاء عليها ، وحق الاعفاء من الرسوم . وبهذه الوسيلة استطاع بلدوين الاول الاستيلاء على ارسوف وقيصرية سنة ١١٠١ ، وعلى عكا سنة ١١٠٤ ، غير ان مساعدة الجنويين جرى بذلها لغير بلدوين من الامراء (فاستطاع ريموند بفضلها ان يستولي على ببلوس سنة ١١٠٤ ، وتمكن خليفته في الحكم ٠ وليم ، من الاستيلاء على طرابلس سنة ١١٠٩) ، كما ان بلدوين حصل من غير الجنويين على مساعدات اخرى. ففي سنة ١١٠٠م استطاع بلدوين ان يستولي على صيدا بفضل مساعدة ملك النرويج سيجورد Sigurd the Soralafari الذي قـــدم الى الارض المقدسة ، بأسطول مؤلف من ٥٥ سفينة ، وقد بدأ سيره في سنة ١١٠٧ ، وجاء بعد ان امضى ثلاث سنوات متجولا ، على الطريقة النرمانية يحارب المسلمين في اسبانيا ، ويؤاخي النرمان في صقلية . ولم تبذل البندقية مساعدتها لملوك بيت المقدس ، الا في عصر متأخر ، يرجع الى زمن بلدوين الثاني . ومن الطبيعي ان تسعى جمهورية البندقية للحصول على منفذ لها في الارض المقدسة، بسبب سخطها وغضبها على ما اعطاه الكسيوس من الامتيازات للبيازنة في سنة ١١١١ ، وبسبب حنقها على ما لجأ اليه حنا كومنين في سنة ١١١٨ من سحب امتيازاتها . وفي سنة ١١٢٣ قدم الى الاراضي المقدسة اسطول بندقي مؤلف من ١٢٠ سفينة ، وبعد ان اسهم في رد هجوم قام به المصريون ، منتهزين فرصة وقوع بلدوين الثاني في الاسر . ساعد الوصية على العرش يوستاس Eustace ، في الاستيلاء على صور سنة ١١٢٤ م مقابل الحصول على امتيازات وفيرة ، منها الاعفاء من دفع الرسوم في سائر المملكة (اللاتينية) والحصول على حي في بيت المقدس، وحمامات وافران في عكا ، وثلث مدينة صور وضواحيها ، وان يكون لهم محاكم وكنائس خاصة؛

وبعد ان استقرت اقدام البنادقة في صور ، اصبح في استطاعتهم ان يهاجموا ، عند عودتهم ، جزائر بحر ايجة ، انتقاماً لما فقدوه من امتيازات في القسطنطينية. على ان ما وقع بين البندقية والامبراطورية البيزنطية من عداء ، لم يلبث ان ركد ريحه ، حين اعاد حنا كومنين للبنادقة امتيازاتهم القديمة . ومع ذلك ظل البنادقة محافظين على مركزهم في فلسطين وبقيت احياؤهم ، واحيـــاء الجنويين ، تتمتع بامتيازات تجارية في دولة اقطاعية .

وبهذه الوسيلة ، اتسعت مملكة بيت المقدس ، فأصبحت تشمل رقعـــة من الارض امتدت على الساحل من بيروت (التي تم الاستيلاء عليها سنة ١١١٠)[١] ، الى العريش الواقعة على تخوم مصر ، وهي اراضي لم تستقر قوتها في يهوذا ، مثل مملكة داود ، بل استقرت على النقيض من ذلك (على ان النوازع التجارية تفسر هذا التناقض) ، في فينيقيا وارض الفلسطينيين . وعلى الرغم من امتداد هـذا الاقليم ، فانه لم يكن بالغ الاتساع . ويحد هذا الاقليم من جهـــة الشمال ، امارة دمشق ، ويتسع قليلا في الوسط حتى يتجاوز نهر الاردن ، ولم يظهر اتساعه الحقيقي ، الا في الجنوب . وفي الجنوب جرت اضافة موضعين هامـــين : فالى الجنوب من البحر الميت ، امتد لسان من الارض حتى بلغ ايلة الواقعـــة على رأس الذراع الشرقي للبحر الاحمر (خليج العقبة) واستولى بلدوين الأول على

---

(١) وهي السنة التي اكتمل فيها قيام المملكية ، اذ ان فترة الغزو الصليبي انتهت من الناحية العملية في هذه السنة ، على الرغم من انه جرى الاستيلاء عل بعض المدن بعد هذا التاريخ. ولهذه السنة اهمية اخرى ، اذ تولى فيها مودود اتابكية الموصل ، فتعتبر بذلك بداية رد الفعل من قبل المسلمين ضد الصليبيين . ادرك له المسلمون ما بين الامراء الصليبيين من جفوة ونزاع ، وانضم الى مودود سنة ١١١٩ م امراء ماردين وخلاط وميافارقين . وتطلع مودود الى ضرب امارة الرها، فلم يلبث ان اعلن الجهاد بعد موافقة الخليفة ورضاء السلطان السلجرقي . انظر حبشي : الحملة الصليبية الاولى القاهرة . سنة ١٩٥٩ ص١٢ – ١٣ .

هذه البقعة ، على سبيل الانتقام من المصريين لما شنوه من هجمات على مملكته ، وفي هذا الموضع ، شيد بلدوين الاول منذ سنة ١١١٦ حصن الشوبك Montreal في منتصف الطريق بين ايلة والبحر الميت . والى الشرق من البحر الميت ، تقع رقعة اخرى من الارض ، قام بها الحصن الكبير المعروف بالكرك ، الذي شيده حوالي سنة ١١٤٠ ساقي الملك ، وهو باجانوس Paganus ، زمن فولك ملك بيت المقدس . والمعروف ان هذه الاضافات التي جرت في الجنوب والشرق انما املاها ايضاً حافز تجاري . اذ انها هيأت للمملكة ما جعلها تتصل بالبحر الاحمر وما يرتبط به من نشاط بحري ، وساعدت الفرنج على ان يسيطروا على طرق القوافل ، لا سيما الطريق الممتد من دمشق الى مصر والبحر الاحمر . فمن الواضح اذن ان كل ما جرى من اتساع المملكة اللاتينية (الذي يصح القول بانه بلـــغ اقصاه سنة ١١٣١ عند وفاة بلدوين الثاني) ، انمـــا املته الى حد كبير حوافز تجارية ، ويتضح ايضاً ان اقوى حافزين يسيطران على تفكير الانسان ، الحافز الديني والرغبة في الكسب والربح ، عملا على ان يرفعا مملكة بيت المقدس (التي تعتبر في آن واحد ارض المسيح ومركزاً طبيعياً للتجارة) الى مكان الصدارة والسيادة على الامارات اللاتينية . وفي اثناء عملية النمو ، ارتبطت المملكـــة بعلاقتها مع مجموعتين من القوى : امارات الفرنج الثلاثة في شمال سوريا ، والدول الاسلامية الواقعة اعالي الفرات والنيل ، وهذه العلاقة اثرت في نمو المملكـــة وطابعها .

ومن امارات الفرنج الثلاثة ، تعتبر الرها ، التى انشأها بلدوين الاول سنة ١٠٩٨ ، اقطاعاً طبيعياً لبيت المقدس . ففي الرهـــا حكم بلدوين دي برغ Baldwin de Burgh ، الذي صار فيما بعد بلدوين الثاني ، من سنة ١١٠٠ م حتى سنة ١١١٨ ، على انه من اتباع بلدوين الاول . ومن بعده تعاقب على

حكم امارة الرها ، جوسلين الاول ، وابنه جوسلين الثاني ، امير تل باشر ، الى ان استولى عليها زنكي سنة ١١٤٤ . ولم تعش امارة الرها الا فترة قصيرة حافلة بالحوادث ، وذلك راجع الى ان وقوعها الى الشرق من نهر الفرات ، جعلها على اتصال وثيق بالارمن من جهة ، وشديدة القرب من الطريق التجاري الكبير ، الذي يمتد على الفرات الى (الرقة) ومنها يتفرع الى طريقين : احدهما يسير الى انطاكية ، والآخر يتجه الى دمشق . ووقعت الامارة الثانية ، امارة طرابلس، تحت سلطان بيت المقدس منذ زمن مبكر . اذ اسسها ريموند امير تولوز ، بين سنة ١١٠٢ ، وسنة ١١٠٥ ، بموافقة ورضى الامبراطور الكسيوس ، وبفضل التحالف مع الجنويين . على انه لم يتم الاستيلاء على عاصمتها طرابلس، الا سنة ١١٠٩ . وما جرى من المنازعات ، حتى قبل الاستيلاء على طرابلس، بين وليم ابن اخ ريموند وخليفته في الحكم، وبين الابن الاكبر لريموند، ادى الى ان يتدخل بلدوين الاول لتسوية هذه المنازعات . ولم يتم الاستيلاء على المدينة الا بمساعدة بلدوين الاول ، وبذلك خضعت كونتية طرابلس ، منذ زمن مبكر ، لتأثير مملكة بيت المقدس ونفوذها . اما امارة انطاكية ، التي تولى حكمها بعد رحيل بوهمند ، تانكرد (١١٠٤ — ١١١٢) ، ثم قريبه روجر (١١١٣ — ١١١٩)، فانها انصرفت ، اثناء حكم بلدوين الاول ، الى المنازعات مع جيرانها من المسيحيين في الرها وطرابلس ، ومع الامراء المسلمين في ماردين والموصل . ولما توفي روجر امير انطاكية سنة ١١١٩، صارت الامارة تحت وصاية بلدوين الثاني ملك بيت المقدس ، واستمرت الوصاية حتى سنة ١١٢٦ ، حين بلغ اميرها بوهمند الثاني سن الرشد ، ثم تزوج بوهمند من ابنة بلدوين . ولما توفي بوهمند الثاني سنة ١١٣٠ ، تولى بلدوين الوصاية عليها من جديد . ومنذ هذا التاريخ ، يصح اعتبار انطاكية تابعة لمملكة بيت المقدس ، وبذلك يصح القول ان نهاية حكم بلدوين الثاني (١١٣١ م) ، يعتبر الحد الزمني الذي اكتمل فيه نمو مملكة

بيت المقدس ، فامتدت حدودها من بيروت شمالا ، الى العريش وايلة جنوبا ، . واعترف بسلطانها امارات الفرنجة الثلاثة الواقعة بالشمال .

واذا استقرت على هذا النحو ، الدولة اللاتينية في سوريا ، وجرى تنظيمها ، كان لزاماً عليها ان تواجه في الشمال عدداً من الامراء المسلمين ، وان تواجه في الجنوب خليفة مصر . وما وقع من الاختلاف بين المسلمين في شمال الشام ، وبين الفاطميين في مصر ، وما حدث من التفكك السياسي في شمال الشام ، كل ذلك اسهم في نجاح الفرنج . ومع ذلك كان لزاماً على الفرنج، ان يحرصوا على المحافظة على ما امتلكوه من الاراضي في الشمال والجنوب ، وان يعملوا على حمايتهـــا من الهجمات المتكررة التي لا تكاد تنقطع . على ان عداوة خلافة القاهرة المتداعية لم تكن شديدة الخطورة . فعلى الرغم من انه تحتم على بلدوين الاول ، اول عهده ، ان يواجه، ما دأبت عليه مصر سنوياً، من توجيه ضرباتها وهجماتها الى ممتلكاته، فانه استطاع في نهاية حكمه ان يمد سلطانه الى البحر الاحمر، وفي نفس السنة التي مات فيها (سنة ١١١٨)، امعن بلدوين في سيره على امتداد ساحل مصر الشمالي، حتى بلغ الفرما (بيلوزيوم) . والواقع ان خطة فتح مصر، خطرت للفرنج منذ البداية ، وظلت هذه الخطة تستهويهم وتجذبهم حتى نهاية الحروب الصليبية . فالمعروف ان جودفري ذاته وعد في سنة ١١٠٠ ، بأن يتنازل عن بيت المقدس الى البطريرك « متى تم له فتح مدينة كبيرة اخرى وعلى الاخص القاهرة » . على ان الخطر الحقيقي الذي يهدد المملكة اللاتينية انما يقع في شمال الشام . اذ شاء القدر ان تنهض في هذه الجهة دولة قهرت ملوك بيت المقدس في السبـــاق الذي جرى من اجل الاستيلاء على القاهرة، ثم استطاعت هذه الدولة، بعد ان اصبحت تسيطر على حدود بيت المقدس الشمالية والجنوبية ، ان تدمر المملكة اللاتينية . ذلك ان المسلمين في شمال الشام ظلوا منشقين على انفسهم حتى سنـــة ١١٢٧ .

وامتازت بداية القرن الثاني عشر الميلادي بانها عصر الاتابكة. اذ ألف الاتابكة عدداً من الاسرات التي انتزعت الملك من ابناء الامراء السلاجقة ، وحلوا مكانهم في اماراتهم العديدة . وهذه الاسرات، انشأها مماليك بعد ان تم عتقهم، وشغلوا وظائف كبيرة في القصر والجيش ، تحت قيادة امراء اقوياء ، حتى اذا مات الامراء ، صاروا اتابكة لابنائهم ، ثم لم يلبثوا ان اغتصبوا العرش من سادتهم . وعلى هذا النحو قامت اسرة اتابكية بدمشق اسسها طغتكين (١١٠٣—١١٢٨)، وظهرت في الشمال الشرقي ، اسرة اخرى ، هي اسرة الاراتقة التي يمثلها سكمان، الذي استقر في كيفا وديار بكر حوالي سنة ١١٠١ ، ويمثلها ايضاً اخوه الغازي الذي حصل من اخيه على ماردين حوالي سنة ١١٠٨ ، ثم اضاف اليها حلب في سنة ١١٢٧. على ان اعظم الاتابكة واشهرهم، كانوا اتابكة الموصل على نهر دجلة، امثال مودود الذي توفي في سنة ١١١٣ ، واقسنقر الذي خلفه على الموصل، واعظم هؤلاء جميعاً ، الاتابك عماد الدين زنكي الذي حكم الموصل منذ سنة ١١٢٧ .

وحدث قبل ان يتولى زنكي الحكم ، ان نشب القتال باستمرار بين الامراء المسلمين وبين الفرنج (الصليبيين) بشمال الشام، غير انه لم يؤد الى نتيجة حاسمة. فما حدث من الضغط المستمر من قبل تانكرد امير انطاكية ، وبلدوين دي برغ امير الرها ، أدى الى سلسلة من الهجمات الانتقامية التي قام بها المسلمون بين سنتي ١١١٠، ١١١٣ فتعرضت الرها للهجوم في سنوات ١١١٠، ١١١١، ١١١٢، ١١١٤.

وفي سنة ١١١٣ اوغل مودود، اتابك الموصل في اغارته حتى بلغ ارباض عكا وبيت المقدس . غير ان ما وقع بين المسلمين من منازعات ، جعل هذه الهجمات عديمة الاهمية . فحدث مثلا سنة ١١١٥ ان تلقت انطاكية المساعدة من الغازي طغتكين، ضد اقسنقر اتابك الموصل ونشب القتال من جديد في شمال مملكة

بلدوين الثاني ، وتعرض روجر امير انطاكية لهزيمة ساحقة على يد الغازي ، في معركة بلات في سنة ١١١٩ ووقع بلدوين ذاته اسيراً في يـــد بلق، الذي خلف الغازي في الحكم سنة ١١٢٣ ومع ذلك فان الفرنج ظلوا محتفظين بقوتهم وسلطانهم. فاستولى بلدوين على جانب من اقليم حلب (في سنة ١١٢١ والسنوات التالية)، وألزم دمشق بدفع الجزية (سنة ١١٢٦) . غير انه ما كاد زنـكي يستقر في حكم الموصل في سنة ١١٢٧ ، حتى اخذ طغيان الفرنج في التداعي . اذ ان زنـكي اقام لنفسه امارة كبيرة متحدة، لم تشتمل فحسب على الموصل، بل ضمت اليها حلب وحران، ونصيبين، ومناطق اخرى. وفي سنة ١١٣٠، سعت أليس ارملة بوهمند الثاني ، الى ان تتحالف مع زنـكي ، كيا تستطيـع الاحتفاظ بامتلاك انطاكية. وفي اول عهد فولك ملك بيت المقدس (١١٣١ — ١١٤٣) ، ظل زنـكي يسير قدماً ، واضطرد نجاحه وظفره . ففي سنة ١١٣٥ استولى زنكي على حصون عديدة في شرق امارة انطاكية ، وفي هذه السنة ، والسنة التالية ، اشتد ضغطه على امير طرابلس ، بينما انزل الهزيمة في سنة ١١٣٧ بالملك فولك في بارين ، وارغم الملك على الاذعان وتسليم المدينة . ولو ان فولك ترك وحيداً في قتال زنكي ، ولو ان زنكي لم يجد في طريقه عقبات عند قتال الفرنج ، لسقطت مملكة بيت المقدس في زمن سابق لما سقطت فيه فعلا. غير ان ثمة قوتان (دولتان) ساعدتا فولك ، واعترضتا سبيل زنكي وحالتا دون تقدمه ونجاحه : وهمـــا امارة دمشق واباطرة القسطنطينية. ذلك ان وضع دمشق في السنوات مـــن ١١٣٠ الى ١١٥٤ ، يعتبر بالغ الاهمية . ونظراً لموقع دمشق بين الموصل وبيت المقدس ولاهميتها من الناحية الحربية ، ولموقعها على الطريق التجاري الممتد من الفرات الى مصر ، اضحت تتحكم في سياسة الشام .

ففي اثناء الجانب الاكبر من هذه الفترة (١١٣٠ — ١١٥٤) ، تولى توجيه

سياسة دمشق الوزير معين الدين أنر ، الذي حكم باسم سلالة الاتابك طغتكين . ادرك انر اهمية الحصول على حليف للوقوف ضد اطماع زنكي ، الذي هاجم دمشق فعلا في سنة ١١٣٠. فلم يسعه الا ان يتحالف مع ملك بيت المقدس. وتم عقد التحالف بين دمشق وبيت المقدس سنة ١١٢٣ . وفي سنة ١١٤٠ تجدد التحالف بين فولك والوزير انر . ومنذئذ صار هذا التحالف عاملا يسيطر على توجيه السياسة . ومن الاخطاء الكبيرة التي ارتكبها الفرنج ، ما حدث من نقض التحالف مع دمشق سنة ١١٤٧، واتسعت الهوة بين الدولتين بما حدث من مهاجمة دمشق في الحملة الصليبية الثانية. ويعتبر استيلاء نور الدين على دمشق سنة ١١٥٤، ضربة قاضية لمملكة بيت المقدس ، اذ ترتب على ذلك ، ان الحليف الوحيد الذي يستطيع الفرنج الاعتماد عليه قد تخلى عنهم ، واضحى الطريق مفتوحاً امام اتابكة الموصل . اما التحالف مع اباطرة القسطنطينية ، فكان موضع ريبة وحذر عند ملوك بيت المقدس. اذ سبق ان رأينا ان نظرية الاباطرة البيزنطيين، وهي نظرية نجمت بطبيعة الحال عن الولاء الذي اعلنه البيزنطيون للامبراطور الكسيوس ، قضت بأن كل ما يفتحه الصليبيون من بلاد يعتبر من املاك الامبراطورية ، يحصل عليها الامراء الصليبيون على انها اقطاعات . وسبق ان شهدنا ان ما قام به بوهمند في انطاكية من اعمال تعتبر انتقاصاً للنظرية ، ولهذا السبب عمد الكسيوس الى مساعدة ريموند في ان يستقر بطرابلس ، ويجعل منها امارة ، فأصبح بذلك شوكة في جانب بوهمند ، وارسل الكسيوس جيشاً واسطولا ، انتزع من النرمان (بانطاكية) مدن قليقية سنة ١١٠٤ . وما وقع من هزيمة بوهمند في دورازو سنة ١١٠٨ ادى الى عقد معاهدة، قضت بالاعتراف بأن انطاكية تعتبر من اقطاعات الكسيوس ، غير ان تانكرد (الذي استطاع في سنه ١١٠٧ ، ان يسترد قليقية من البيزنطيين)، رفض ان ينفذ شروط المعاهدة، واضطر الكسيوس ان يترك انطاكية مستقلة ، (بعد ان فشل فيما حاوله من

تحريض بلدوين الاول ، ملك بيت المقدس ، على ان يتحالف معه ضد تانكرد ، وذلك في سنة ١١١٢) . والخلاصة انه على الرغم من ان الكسيوس استطاع ان يسترد ، في اعقاب الجيوش الصليبية ، نطاقاً شاسعاً من الارض على امتداد جميع ساحل آسيا الصغرى ، بينما ظل داخل آسيا الصغرى خاضعاً لسلطان قوتيه السلجوقي وامراء سيواس ، فان ما يقع من الاراضي شرقي قليقية ، كانت عند وفاة الكسيوس ، ١١١٨ م ، في ايدي اللاتين . ولم تحاول الامبراطورية البيزنطية ان تفوز بقليقية ، او تلزم انطاكية بالولاء لها الا بعد عشرين سنة مضت على وفاة الكسيوس . غير انه حدث في سنة ١١٢٧ ، ان انتهز الامبراطور البيزنطي ، حنا كومنين ، فرصة وقوع منازعات في انطاكية ، وحصل منها على الولاء الذي طال انكارها عليه ، فضلا عن ولاء طرابلس . وفي السنة التالية وقعت العداوة بينه وبين زنكي ، غير ان هذا العداء لم يؤد الى نتيجة من النتائج . وفي سنة ١١٤٢ عاد حنا كومنين مرة اخرى ، وكان حريصاً على ان يقيم لابنه الاصغر ، مانويل ، امارة في قليقية وانطاكية . غير ان سكان انطاكية رفضوا الاذعان له ، كما اخفق حنا ايضاً في تدبير زيارة الى بيت المقدس ، ولم يجتمع ، هو وفولك ، في محالفة قوية ضد المسلمين . وفي ربيع سنة ١١٤٣ مات الامبراطور حنا في قليقية ، دون ان يحقق شيئاً من ذلك . والخلاصة ان ما حدث من تدخل بيت كومنين ، على الرغم من انه اوقف نشاط زنكي فترة من الزمن سنة ١١٣٨ زاد في ضعف الفرنج وتبديد جهودهم ، وادى الى سقوط الرها في يد زنكي سنة ١١٤٤ ، الذي يعتبر نقطة تحول في تاريخ مملكة بيت المقدس .

الفصل الخامس

تنظيم مملكة بيت المقدس

يحسن بنا ان نقف عند سقوط الرها (سنة ١١٤٤) لدراسة نظام جاليات الفرنج في الشام ، قبل ان نلتفت الى وصف الحملة الصليبية الثانية التي اثارها ضياع الرها ، وقبل ان نمضي في الوقوف على سقوط المملكة اللاتينية ، الذي عجلت به الحملة الصليبية الثانية ، بدلا من ان تحول دون حدوث ذلك الانهيار .

واول ما يعرض لنا من الاسئلة ، ذلك السؤال الذي يرتبط بعلاقة مملكة بيت المقدس بالكونتيات (الامارات) الثلاثة : انطاكية ، وطرابلس ، والرها التي اعترفت بتبعيتها لها. اما حقوق ملك بيت المقدس فأكثر ما تتجلى وتتضح ، حين يقع في امارة من الامارات ، شغور في العرش ، او كان متولي الحكم حدثاً صغير السن ، او حين يقع نزاع ، سواء في داخل الامارة او بين اميرين. فاذا مات امير من الامراء ، دون ان يترك وريثاً في سن الرشد ، صار لملوك بيت المقدس الحق في ان يكونوا اوصياء ، ومثال ذلك ان بلدوين الثاني تولى الوصاية مرتين في انطاكية في سنتي ١١١٩ ، ١١٣٠ ، غير ان ملوك بيت المقدس اعتبروا حق الوصاية عبئاً ثقيلا لا امتيازاً كبيراً ، والواقع ان من خصائص العلاقات بين الملك والامراء الثلاث ، انها فرضت على الملك واجبات دون ان يحصل على ما يقابلها من حقوق . فمن واجب الملك ان يعمل وصياً ، ومن

واجبه ايضاً ان يسوي ما يقع من المنازعات في امارة انطاكية ، وان يمنع ما يرتكبه امير انطاكية من اعمال العنف مع البطريرك (كما حدث سنة ١١٥٢). ومن واجبه ايضا ان يوفق بين انطاكية والرها ، كلما وقع القتال بينهما . امـــا الامراء فانهم من ناحيتهم صاروا يتصرفون على انهم مستقلون . فاذا انحازوا بجيوشهم الى الملك ، فانما يقدمون له هذه الخدمة على انهم اسوياء له ، وجرى في بعض الاحوال انهم لم ينحازوا اليه الا بعد ارغامهم على ذلـــك . ودأب الامراء على ان يعقدوا المعاهدات مع المسلمين ، او يقوموا بمهاجمتهم على الرغم من معاهدات الملك . وصار الامراء يؤرخون وثائقهم بسنوات حكمهم ، ولكل منهم قوانينه الخاصة . والخلاصة انه جرى نوع من التوفيق ، لا التبعية . ولم يحاول الملوك مطلقا ان يتخذوا سياسة مركزية .

اما العلاقة بين الملك وباروناته ، في داخل مملكة بيت المقدس ، فلم تكن مختلفة عن علاقة الملك بالامراء الثلاث . والمعروف ان الملك في انجلترا النرمندية حرص على حقوقه ، على حين ان البارونات في بيت المقدس اللاتينية اصروا على ما يلتزم به الملك من واجبات . ويفسر خصائص مملكة بيت المقدس ، ما حدث من ظروف انشائها . فحينما تقدم الصليبيون نحو بيت المقدس ، جرت القاعدة ، حسبما يذكر ريموند الصنجيلي ، بأن لأول قادم منهم ، الحق في ان يملـــك ما استولى عليه من قلعة او مدينة ، بشرط ان يرفع علمه عليها ، وان ينزل بهـــا حامية . وعلى هذا النحو قامت الارستقراطية الاقطاعية ، ولم يقدم الملـــك الا بعد استقرارها . بينما حدث في انجلترا النرمندية عكس ذلك ، اذ ان الملك كان اول من فتح البلاد ، ثم قام بتوزيعها اقطاعات بين نبلائه . فأضحى بذلك تفوق الارستقراطية الاقطاعية ، من خصائص النظام الاقطاعي في مملكة بيت المقدس اللاتينية مثلما صارت سيادة الملك من خصائص النظام الاقطاعي في انجلترا وقتذاك .

وظهرت تلك السيادة في مركز وسلطات المحكمة العليا ، التي تعتبر صاحبة السيادة العليا . فالمعروف ان مملكة بيت المقدس تألفت من مجتمع من النبلاء ، ولم يكن الملك الا زعيم هؤلاء النبلاء ، ومع ذلك خضع الملك للقانون الذي جعل مكانته مساوية لمكانة سائر افراد المجتمع . وفي هذا المجتمع صار من الطبيعي ان يجري انتخاب رئيس لهؤلاء الافراد . حدث هذا في حالة جودفري وبلدوين الاول وبلدوين الثاني ، غير ان فكرة المساواة بين الملك ونبلائه لم تلبث ان ادت بمضي الزمن ، الى ملكية وراثية . فاذا كان الملك قد حاز مملكته على انها اقطاع ، شأنه في ذلك شأن النبلاء ، فان ما يسري على الاقطاع من قوانين التنازل ، يجري ايضاً على المملكة ، وهذه القوانين قضت بوراثة الاقطاع . ومن الطبيعي ان تتدخل المحكمة العليا ، التي تفصل في كل ما يتعلق بالتنازل من مشاكل ، اذا حدثت ، وجرى ذلك فعلا ، مشكلة ترتبط بوراثة الحكم في المملكة . وبذلك صار للبارونات الحق في الفصل بين سائر المتنازعين على الحكم ، كما صار لهم الحق في أن « يوافقوا » رسمياً على كل من يلي الحكم من الورثة . على ان فكرة المملكة على انها اقطاع ، لم تخضع فحسب لسلطان المحكمة العليا ، بل انطوت ايضاً على نتيجة من اخطر النتائج . ذلك ان المملكة يصح ان تنتقل ، شأنها في ذلك شأن سائر الاقطاعات ، من وريثتها الى زوجها . وفي هذه الحقيقة ، وما ترتب عليها من منازعات ، يصح ان نلتمس الاسباب المباشرة التي ادت الى انهيار مملكة بيت المقدس سنة ١١٨٧ .

واذ جرى اعتبار الملك على انه حائز لاقطاع كبير ، لم يكن له من الحقوق سوى حقوق السيد على ما بالمملكة من البارونيات الاربعة الكبيرة ، والاقطاعات الصغيرة التي يبلغ عددها اثني عشر اقطاعاً (١) . فلم يكن لملك بيت المقدس من

---

(١) انظر Runciman : op. cit. vol. II. p. 297

حقوق السلطان مثلما كان لملوك النرمان بانجلترا من الحقوق ، التي ورثوها عن اسلافهم الانجليز السكسون ، او ما كان لملوك كابيه في فرنسا من الحقوق التي ورثوها عن الكلرولنجيين . ولذا لم يكن في استطاعة ملك بيت المقدس، ان يكون له بمقتضى حقوق السيادة ، من الاتصال المباشر برعاياه ، مثلما كان لوليم الاول بمقتضى يمين سالسبوري سنة ١٠٨٦ . والمعروف ان املريك ، حاول بمقتضى قانون التبعية (١) assize sur la ligèce ، ان يتصل بأتباع اتباعه ، فأجاز لاتباع الاتباع ، ان يلجأوا الى المحكمة العليا ، وحثهم على ان يرفعوا قضاياهم الى المحكمة العليا مباشرة . غير ان هذه لم تكن الا المحاولة الوحيدة لتلك السياسة التي تقضي بالاتصال المباشر بأتباع الاتباع ، والتي جرت الى ابعد الحدود وقتذاك في انجلترا ، ومع ذلك لم تلق هذه المحاولة الا الفشل الذريع . ولم يقم تحالف حقيقي بين الملك وبين صغار النبلاء ضد طبقة البارونات ، التي تليه مباشرة في المكانة . فظلت طائفة كبار المقطعين تحد من سلطة الملك ، واضحت موافقتهم لازمة لاجراء التشريع ، ولا تبذل الاقطاعات الا بموافقتهم . ولم تكن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي يتقيد بها الملك . على ان واجبات الملك نحو مقطعيه ، وردت بوضوح في قوانين مملكة بيت المقدس . فالقسم الذي حلفه الملك لرجاله ، يلزمه باحترام حقوقهم والمحافظة عليها ، ولهذه الحقوق من الاهمية ما للواجبات المفروضة عليهم . فاذا احس الرجال (المقطعون) بأن الملك لم يحافظ على القسم الذي حلفه ، فلهم شرعاً وقانوناً ، الحق في ان يرفضوا ما هو مطلوب منهم من خدمة عسكرية ، وان يقوموا ضده بثورة تعتبر مشروعة gager le roi . ونظام الخدمة العسكرية ونظام القضاء ، انما يقابلان

---

(١) انظر La Monte : Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem pp. 20 - 24.

ما تلتزم المملكة ان تؤديه من عمل. فالتابــع ملزم بأن يؤدي الخدمة العسكرية، طوال السنة ، لا لمدة معينة تبلغ اربعين يوماً كما في غرب اوربا . على ان التابــع من جهة اخرى لم يكن ملزما بأن يؤدي الخدمة ما لم يتقاض مقابلهــا اجراً ، وليس ثمة ما يعفي الملك من الالتزام بدفع الاجور لرجاله ، سوى حدوث مجاعة ، او قيام المسلمين بغارات تخريبية . والتزم الملك ايضا بأن يضمن توافر الخيل عند رجاله ، بما اقامه من النظام المعروف بأسم نظام التعويض او البدل restor [١] . فاذا فقد التابع حصانه ، بشرط الا يكون ذلك نتيجة خطأ ارتكبه ، فينبغي ان يحصل على حصان آخر من بيت المال ، الذي اشتهر باسم Secretum [٢] ، وهو نفس الاسم المعروف به في صقلية النرمندية . غير ان الملك كان لديه ، الى جانب الجيش الاقطاعي ، جيش آخر من المأجورين يتناول افراده اجوراً او مرتبات ، وهم المعروفون باسم Soudoyers [٣] ، الذين يحصلون على ما يتحصل من الاقطاع من اموال fief de soudee [٤] . والى جانب هؤلاء الجنـــد الذين يتقاضون اقطاعـــات مستمدة من اموال ، توجد فئة اخرى من الجيش ،

---

(١) انظر تفاصيل هذا النظام في .La Monte : op. cit. pp. 120 - 121

(٢) .Ibid pp. 167 - 168

(٣) Ihid p, 118, 120, 161, 162

والمعروف ان ارباب الاقطاعات ينالون الى جانب اقطاعاتهم من الاراضي رواتب . اما الجند المأجورة فلا يتقاضون الا مرتبات . ومن الدليل على ذلك ان Jahn of Margat وهو من اتبـاع صاحب ارسوف ، تقاضى ٢٠٠ دينارا فضلا عن مقادير من القمح والشعير والعدس والزيت ، مقابل الخروج الى الخدمة بأربع افراس . انظر :

(Rey : Les Colanics Franques en Syrie p. 24.)

(٤) La Monte : op. cit. 144, 148, 151, 122

اشتهرت باسم التركبولي [1] Turcopoli ، وهي فئة من الفرسان المتخففين، جرى تجنيدهم من السريان والمسلمين ، ودرجوا على استخدام الاساليب الحربية المعروفة عند المسلمين . اما المشاة فكانوا من الارمن ، الذين يعتبرون انهم من خيرة جنود الشرق ، ومن المارونيين الذين امدوا المملكة بالرماة . يضاف الى كل هذه القوى المختلفة ، فرسان الطوائف الديلية وجيوشهم المؤلفة من السكان الوطنيين، ومقدمو هذه الطوائف يعتبرون من الامراء ، ولهم من الاستقلال ما لاميري انطاكية وطرابلس [2] ، وبهؤلاء يصح تقدير مجموع جيش المملكة اللاتينية في بيت المقدس بنحو ٢٥ الف رجل . على ان قوة المملكة اكثر مـــا ظهرت في الحصون الشامخة التي اقامها النبلاء وفرسان الطوائف الديلية . ومن اوضح مـــا خلفته الحروب الصليبية من الآثار الباقية الى اليوم ، ما تبقى من الحصون، مثل حصن الكرك، وحصن فرسان القديس يوحنا في امارة طرابلس. وهذه الحصون التي شحنها اصحابها ، لا الملك ، بالجند ، تعتبر مصدراً لقوة المقطعين، واسهمت في تفتيت المملكة الى عدد من الوحدات المحلية .

على ان اهم خصائص المملكة اللاتيلية في بيت المقدس انما تتضح فيما اقامته

---

(١) الواقع ان هذه الفئة تألفت من المولدين الذين جاؤوا من اب تركي وام يونانية . انظر تطور هذا اللفظ في ابن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني ايوب . نشر الدكتور الشيال . الجزء الثاني المطبعة الاميرية ١٩٥٧ ص ١٤٩ حاشية ١ .

(٢) انشأ طائفة الداوية Templars في سنة ١١١٨ ، فارس برجندي اسمه هيو باجانس Hugh de Paganis . اما الاسبتارية Hospitallers فينتمون الى مؤسسة اقامها في بيت المقدس تجار من مدينة امالفي (بايطاليا) ، قبل الحرب الصليبية الاولى ، واعاد تنظيمهم فرسان جيرار Gerard le Puy واستمر مقدماً لهم حتى سنة ١١٢٠ . وترجع طائفة الرهبان التيوتون الى الحملة الصليبية الثالثة انظر :

(Barker : The Crusades p. 40 , N. 3 .)

من نظام القضاء . اذ قامت ببيت المقدس محكمتان مركزيتان عاليتان ، تمارسان القضاء . وهاتان المحكمتان — المحكمة العليا الخاصة بالنبلاء ، والمحكمة الوطنية لسائر الفرنجة .

(١) فالمحكمة العليا تعتبر المنبع الاكبر للقضاء عند الطبقة الحربية . وما ظهر من تحديد سلطة الملك ، فيما يتعلق بالخدمة العسكرية ، انما يتجلى ايضاً في تأليف هذه المحاكم واجراءاتها . فلم تكن المحكمة العليا بمثابة مجلس الملك curia regis ، بل كانت محكمة بارونات curia baronum ، تحققت فيها نظرية محكمة الاسوياء judicum parium . فاذا تولى الملك رئاسة المحكمة ، فان مـــا تهدف اليه المحكمة لم يكن سوى المحافظة على حقوق النبلاء ، لا اتساع حقوق الملك ، كما هو حادث في انجلترا . فلم تكن الا محكمة من اسوياء الملك ، تفصل في القضايا التي تتعلق بالنزاع بين الملك واسويائه — كالخدمة العسكرية ، وتقرر انتقال لقب الملك .

(٢) اما المحكمة الوطنية فانها تعتبر ايضاً صاحبة السيادة في نطاق اعمالها. وبينما تألفت المحكمة العليا من طبقة النبـــلاء ، تألفت المحكمة الوطنية [1] من اثني عشر مشرعاً Burgesses ، (والراجح ان الملك هو الذي يرشحهم) ، برآسة الفيكونت ، وهو من الفرسان ، ويرشحه الملك ايضاً ، واشتهر بدرايته

---

(١) جرت العادة باطلاق عبارتي المحكمة العليا والمحكمة الصغرى على مـــا اشتهر في قوانين مملكة بيت المقدس باسم Cours des Bourgeois Haute cour . ولما كان المبدأ القضائي السائد في مملكة بيت المقدس يقضي بان القضاء انما يباشره اسوياء المتقاضين ، تألفت هاتان المحكمتان لتطبيق هذا المبدأ على الطبقتين الاساسيتين في المجتمع ، وهما طبقة النبلاء وما يتعلق باقطاعاتها ، وطبقة سائر الفرنجة من غير النبلاء ، على ان يكونوا من الاحرار . انظر :

La Monte : op. cit. pp. 105 - 106 .

في الشئون المالية والقضائية . وتتضمن اختصاصات المحكمة النظر في كل ما يجري بين اهل المدن من المعاملات والعهود، وامتد سلطانها الى القضايا الجنائية، المتعلقة بأهل المدن burgesses . وللمحكمة الاهلية ما للمحكمة العليا من مجموعة القوانين [1] ــ وهي عبارة عن مجموعة من العادات والتقاليد المرعية والتي لم

---

(١) لكل امارة من الامارات الصليبية الثلاثة ، ما لمملكة بيت المقدس من القوانين . اذ جرى اكتشاف قوانين انطاكية ، وتم نشرها . ولمملكة بيت المقدس مجموعتان من القوانين ، مجموعة للمحكمة العليا ، ومجموعة للمحكمة الصغرى . فمجموعة المحكمة العليا وردت في مؤلفات المشرعين من امثال John of Ibelin (حنا ابلين)، Philips of Novara و Geoffrey of Tort التي ترجع الى القرن الثالث عشر . والواقع انها لم تكن سوى كتب للقانون ، لا قوانين ، (مثل رسالة براكتون Bracton عن القوانين De Legibus) ، وهذه الكتب تم تصنيفها بعد سقوط المملكة التي ترتبط بها هذه القوانين . على ان ثمة سؤالان يتعلقان بهذه الكتب :

أ ــ الاول يرتبط بأصل وطبيعة ما تحتويه الكتب من القوانين . فوفقاً لقصة المشرعين الذين صنفوا هذه الكتب ، مثل حنا ابلين ، وضع قوانين المملكة جودفري وهذه القوانين (التي تعرضت لكثير من التعديل والتغيير) ، ظلت محفوظة في بيت المقدس حتى سنة ١١٨٧ باسم رسائل القبر المقدس وفي هذه السنة ، ضاعت هذه الرسائل ، فحاول المشرعون اعادة تصنيفها على النحو الذي قامت عليه اولا . على ان هذه القصة لم تلق القبول مطلقاً ، لان جودفري لم يقم بالتشريع اطلاقاً. اذ ان تقاليد المملكة اخذت تنمو بالتدريج، وصارت تتحدد وتتضح بالتدريج، لا سيما زمن بلدوين الثالث ، واملريك الاول . فاذا كان ثمة قانون للعرف غير مكتوب ، فمعنى ذلك ان رسائل القبر المقدس ليست الا اسطورة ، فاذا كان ثمة رسائل من هذا القبيل ، فانها لم تكن على هيئة مجموعة من القوانين المدونة ، انما يجوز انها مجرد سجل للاقطاعات كالذي كان معروفاً في صقلية باسم Defetari (والمقصود بها فيما يبدو دفاتر) . والواقع ان الفرنج ظلوا حتى القرن الثالث عشر يؤثرون استخدام قانون العرف ، لانه يلائم من جهة المحامين (الذين ينتمون عادة الى طبقة النبلاء ، والمعروف ان نبلاء الفرنج اشتهروا بانهم من كبار المحامين في داخل المحكمة وخارجها) ، ولانه من جهة اخرى طالما لم يكن ثمة قانون مدون ، بقيت المحكمة العليا حرة غير مقيدة . وفي القرن الثالث عشر صار لزاماً على المشرعين ، ان يدونوا القوانين، لان ما حدث في القرن الثالث عشر من تغييرات اقتضت تدوين بعض القوانين، لا سيما لانه كان من المحتم =

يجر تدوينها .

= مواجهة فردريك الثاني ومعارضته باظهار قاعدة معينة، وذلك لأن فردريك الثاني باعتباره ملكاً على بيت المقدس ، استغل عدم وجود قانون مدون ، كما يفرض على المحكمة العليا ما يتراءى له من القوانين .

ب - والمشكلة الثانية تتعلق بمتون كتب القانون ذاتها . فعلى الرغم من ان كتاب (متن) ابلين اضحى النص المقرر ، فان الشروح طغت عليه ، لانه اضحى المرجع الذي يعول عليه في مملكة قبرص بعد سقوط مملكة بيت المقدس . فاقتضى ذلك الشرح والتفسير . فجرت مراجعته مرتين في ١٣٦٨ ، ١٥٣١ . ولا نستطيع ان نتبين المتن الاصلي الذي ينسب الى ابلين ، او ما حدث في هذين التاريخين من اضافات او تغييرات . وكل ما نستطيع ان نقوله ان كتاب ابلين الذي جرى استخدامه في جزيرة قبرص في اواخر العصور الوسطى هو المعروف لنا . وعلى الرغم من ان هذا المتن يرجع الى عصر متأخر ، فان محتوياته تضمنت اقدم واخلص وصف لاقطاع الفرنج ، ووصفت نظام مملكة بيت المقدس ، حيث ارتبطت كل الحقوق والواجبات بالإقطاع ، واضحى الملك وحده سيد المقطعين .

(٢) اما قوانين المحكمة الصغرى فانها اضحت اساس رسالة ترجع الى عصر اسبق من عصر قوانين المحكمة العليا . فتاريخ تدوينها (والراجح ان جماعة من المتعلمين هم الذين دونوها) يرجع الى زمن بلدوين الثالث . فالمعروف انه اول ملك من المستوطنين ، واشتهر بمعرفته وتفقهه في القانون . غير ان Beugnot يشير الى ان هذه القوانين ترجع الى السنوات التي سبقت مباشرة سقوط بيت المقدس في يد صلاح الدين . ومن الطبيعي ان هذه القوانين لم ترد في مجموعة ابلين ، لان ابلين لم يهتم الا بما يتعلق بالقانون الإقطاعي للمحكمة العليا . وجرى ايضاً استخدام قوانين المحكمة الصغرى في قبرص ، وتعرضت لمثل ما تعرضت له قوانين المحكمة العليا من الفحص سنة ١٥٣١ للوصول الى متن سليم . وما ورد في هذه المجموعات من قانون ليس الا مزيجاً من قانون الفرنج وما ساد بين السكان الوطنيين في سوريا من القانون الروماني اليوناني .

ولا بد ان نذكر ان ما هو معروف لنا ليس قانوناً بل كتب قانون - اي سجلات وضعها المحامون عما اعتبروه قانوناً ، وجد سنداً في المناقشات القانونية وحيثيات القضايا . (انظر

(Barker op. cit. p. 42 note 1

فالمكانة المستقلة التي اشتهر بها سائر الفرنجة الذين تساوت بـذلك مكانتهم مع الطبقة الاقطاعية ، تعتبر من خصائص مملكة بيت المقدس . ويصح تفسير ذلك ، بالاشارة الى ما وقع بالمملكة من امور معينة . فعلى الرغم من الاختلاف في المكانة بين سائر الفرنج والنبلاء ، فانهم جميعاً ينتمون الى اصل واحد ، وهو انهم من الفرنج ، ولهم المكانة العليا على سائر السكان الاصليين . على ان الحافز التجاري ، يعتبر في هذا الموضع ، من اهم حوافز الحروب الصليبية . والفئة التي دفعها ذلك الحافز التجاري ، (للاشتراك في الحروب الصليبية) سوف تكون كبيرة العدد ، بالغة الرخاء بسبب ما تمارسه من التجارة الشرقية . واصبح من اليسير ان ندرك ، آخر الامر ، ما كان للفرنج من مكانة مستقلة في نظام مملكة بيت المقدس ، اذا تذكرنا كيف ان الرجالة ساروا جنبا الى جنب مع الامراء ، اثناء الحملة الصليبية الاولى ، وكيف ثاروا ، في مستهـل سنة ١١٠٠ ، على الاطماع الذاتية التي اشتهر بها الكونت ريموند . وللسكان من الفرنج ان يشتروا وان يمتلكوا من العقار في المدن ، ما حرم على الفرسان ان يحوزوه . وعلى الرغم من انه لم يكن في استطاعة اهل المدن ان يصهروا الى الطبقة الاقطاعية ، فانـه جاز لاحدهم ان يرتقي الى رتبة فارس . ومن اوجه التشابه بين النبلاء وسائر الفرنج ايضا ، ان للفرنج الحق في التصديق على ما يبذله الملك من المنح والهبات ، وان يشتركوا في وضع القوانين ، والخلاصة ان اهل المدن يؤلفون طبقـة قوية مستقلة من النواحي السياسية والاجتماعية والقضائية . ومع ذلك فان المدن ، مدن الفرنج (باستثناء انطاكية وطرابلس وعكا اثناء القرن الثالث عشر) ، لم تنشأ بها حكومة مدن مستقلة ، وما حدث بها من تطور لم يتعد القانون الخاص والحياة التجارية .

ومن الناحية المحلية . ما جرى في المملكة من النظام القضائي انما انطوى

على ثلاثة امور : تنظيم الاقطاعات ، وضع التجار الايطاليين في احيائهم ، وامتيازات الكنيسة . فكل اقطاع تناوله من التنظيم ما تناول المملكة . ففي كل اقطاع محكمتان : محكمة للنبلاء ، ومحاكم لسائر الفرنج . فاصبح للسكان من الفرنج نحو ٣٧ محكمة (اذ ان عدداً كبيراً من الاقطاعات كان في الواحد منها اكثر من محكمة) . وخضعت كل منهـا لرآسة فيكونت ، بينما استقلت جميعها عن محكمة اهل المدن في بيت المقدس . وبلغ عدد المحاكم الاقطاعية نحو ٢٢ محكمة ، وكل من هذه المحاكم الاقطاعية جرت على ما اشتهرت به المحكمة العليا من قانون واجراءات . غير ان كلا منها تعتبر مستقلة عن المحكمة العليا ، وتألفت محكمة مستقلة ذات سيادة تعتبر المرجع الاخير للقضايا ، ولم يكن ثمة استئناف. على ان ما اوجده أملريك الاول، من ثورة في مكانة اتباع الاتباع، والتي جعلت منهم اعضاء في المحكمة العليا ، هيأت لهم ان يرفعوا قضاياهم الى بيت المقدس مباشرة ، اذا ارادوا ذلك . وفيما سوى هذا ، يعتبر من خصائص القضاء الاقطاعي ، ما اشتهر به من الاستقلال والتحرر من المحكمة المركزية ، على ان هذه الخاصية ليست الا نتيجة منطقية لجميع هذا النظام ، اذا ادركنا ان المحكمة المركزية ليست الا محكمة من المقطعين .

ويقع بين المحكمة الصغرى cours de bourgeoisie ، وبين ما تتمتع به الاحياء الايطالية بالمدن من امتيازات قضائية ، نوعان من المحاكم تغلب عليهما الطابع التجاري : فالنوع الاول وهو المعروف بمحكمة المدن [1] cours de la fonde ، وتختص بالمدن التي نشطت بها التجارة ، والنوع الثاني هو المعروف بمحكمة

---

(١) ولما كانت معظم ما تنظره من القضايا يتعلق بالمستوطنين ، فان دائرة نشاطها اتسعت حتى شملت ما يقع فيها من المحاكم الوطنية (انظر La Monte p. 108) .

الموانى cours de la chaine [(١)] ، وتقع بموانى السفن . ويتولى رآسة النوع الاول وكلاء القناصل ، وهذا النوع اخذ بالتدريج يمتص المحاكم المستقلة ، التى جاز للسوريين اول الامر ، ان يختصو بمباشرتها ، فتولاها من قبلهم « رئيس » [(٢)] ، وترتب على اندماج هذه المحاكم في محاكم المدن ، ان اضحى وكيل القنصل واعوانه assessors (منهم اربعة سوريون ، واثنان من الفرنج) ، يفصل في كل ما يتعلق بالسوريين من القضايا. اما محكمة الموانى التي يرجع الفضل في انشائها، الى امالريك الاول (١١٦٢ — ١١٧٤ م) ، فكان لها الولاية القضائية في القضايا المتعلقة بالبحرية ، وهي لم تختلف عن محاكم المدن ، في انها مؤلفة من نائب القنصل واعوانه . واختلف عن كل هذه المحاكم ، وانما اشبهها في دائرة عملها ، محكمة اختص بها الحي الايطالي في كل مدينة ، يرأس كلا منها القنصل ، وهي محكمة امتازت بأنها لا تنظر الا في القضايا الخطيرة مثل القتل والسرقة والتزوير. ولم تكن هذه المحكمة الا جانباً من الامتياز العام، الذي جعل من هذه الاحيا. ، دولة في داخل الدولة imperia in imperio . فما حدث من اعفائها من الرسوم ، وما تقدمه من المساعدات المالية ، يتفق مع ما لها من الامتيازات القضائية . وعاشت هذه الاحياء الايطالية ، بعد انهيار مملكة بيت المقدس ، وظلت قائمة

---

(١) المعروف ان هذه المحكمة استمدت اسمها من السلسلة ، التي تغلق مداخل الموانىء في العصور الوسطى (انظر La Monte p. 109) .

(٢) خضع السكان الوطنيون من السوريين في السنوات الأولى من قيام مملكة بيت المقدس، لما كان لهم من محاكم وقوانين . وهذه المحاكم تألفت من محلفين وطنيين برآسة قاض وطني معروف بالرئيس الذي يقابل الفيكونت ، وتنظر هذه المحاكم في القضايا الصغرى، التي لا تنطوي من الناحية الجنائية على القتل ، والتي لا تتجاوز قيمة ما ينظر فيه من الناحية المدنية قطعة فضية (مارك) . ولم يكن لهذه المحاكم الا اهمية ضئيلة ، فلم تلبث ان اندمجت في محاكم المدن ولم تبق الا في القرى (انظر La Monte p. 108)

في عهد الامراء المسلمين ، وذلك بفضل ما جرى من خضوعها لقوانين بلادها الاصلية، سواء كان ذلك في التجارة او الحكومة. وللكنيسة محاكمها المستقلة، مثلما كان حادثاً في الغرب ، غير ان دائرة نفوذها ربما كانت هنا اوسع من اية جهة اخرى . والواقع ان محاكم الكنيسة لم يكن من اختصاصها النظر في قضايا الحنث بالايمان ، وشهادة الزور ، غير انها من ناحية اخرى تفصل في كل الامور التي تتعلق بأملاك رجال الدين ، وكذا القضايا التي ينشب فيها النزاع والتخاصم بين الرجل وزوجته .

وفي نواحي اخرى، يعتبر ما حصلت عليه الكنيسة من اعفاءات وامتيازات من المشاكل الخطيرة ، لا سيما فيما يتعلق بالناحية المالية . ولعل اكبر نقيصة او عيب في مملكة بيت المقدس ، يتمثل افتقارها الى الاساس المالي . فالمعروف ان للملك خراجاً يتولى الفيكونت جمعه ، ويقوم بتأديته الى الخزانة (بيت المال) secretum . وهذا الخراج (الدخل) يتألف من الرسوم المقررة على القوافل، وما يتحصل من الموانىء من المكوس ، وما يرد من الاحتكارات ، ورسوم القضايا ، والجزية المفروضة على اليهود والمسلمين، وما تدفعه الامارات الاسلامية من اتاوات. غير ان نفقات الملك كانت باهظة . اذ تحتم عليه ان يدفع لمقطعيه ما هو مطلوب لهم، وان يحول الاقطاعات النقدية والنوعية لمن لم يكن بيدهم قطائع من الارض. على ان ما يرسله ملوك غرب اوربا من تبرعات الى الاراضي المقدسة ، على سبيل البدل عن الاشتراك الشخصي في الحروب الصليبية ، يصح ان يعتبر من المساعدات. وما جرى اتباعه من سياسة خطيرة ، تقوم على شن اغارات ضد الامارات الاسلامية المجاورة ، لم يترتب عليها الا الحصول على موارد ، تعتبر طارئة وغير دائمة .

غير ان ما يعتبر ضرورياً ولازماً ، هو اتخاذ نظام عام للضرائب ، كالذي

جرت محاولته سنة ١١٨٣ للمرة الاولى والوحيدة . على ان هـــذا الاجراء لقي عداوة وكراهية ، من جانب امتيازات الاحياء الايطالية ، واكثر ما صادفه من العداء ، انما جاء من جانب امتيـــازات الكنيسة ، وعلى الرغم من النصوص التي تقابل الى حد ما ، النصوص الواردة في القانون الانجليزي المعروف بالمواريث الحشرية Statute of Mortmain — (يتعلق بالاراضي التي لا وارث لها فتؤول الى الكنيسة) ، فان رجال الدين دأبوا على امتلاك اراضي جديدة ، مـــع انهم في الوقت ذاته رفضوا ان يسهموا في الدفاع عن المملكة ، واشتد اصرارهم على ان يتقاضوا نصيبهم كاملاً من العشر ، عن كل مورد من الموارد ، ولم يسلم من ذلك ما يقع في الحرب من غنائم . فالكنيسة التي تعتبر اغنى مالـــك للاراضي في الارض المقدسة [1] ، وكانت معفاة من كل ما هو مقرر على الاملاك من رسوم ، اسهمت بطريقة غير محسوسة في تدمير المملكة ، التي كان ينبغي ان تؤدي لها من المساعدة اضعاف ما تؤديه الى غيرها . رفضت الكنيسة ان تشترك في كل ما يجري من الامور ، وأبت ان تسهم في ازدياد قوة الملك ضد النبلاء الذين طغى سلطانهم . والمعروف ايضاً ان الكنيسة لم تلنشط بما لديها من دعاوى دينية ، في معارضة سلطة التاج، بعد ان حدث اول اتصال بين البطريرك داجوبرت والملك بلدوين .

وتتحدث وثائق محكمة بيت المقدس عن البطريرك والملك، على انهما قسيمان في حكم بيت المقدس ، والواقع ان الملك يستطيع ان يظفر بالموافقة على ان يتولى ترشيح بطريركه . على ان البطاركة بعد داجوبرت ، وباستثناء البطريرك ستيفن

---

(١) ومن الدليل على ذلك ان دير جبل صهيون لم تقتصر املاكه على ما كان له منها في الأرض المقدسة (في عسقلان ، ويافا ، وعكا ، وصور ، وقيصرية ، وطرسوس) ، بل كانت له ايضـــاً املاك في صقلية، وكالابريا، ولومبارديا، واسبانيا وفرنسا. (انظر: Barker p. 46, Note 1) .

في فترة طارئة ١١٢٨ ، كانوا أوفياء للملوك ومن المؤيدين لهم . والواقع ان اشد ما تعرضت له المملكة من الاخطار ، انما مصدرها الهيئتان الدينيتان الكبيرتان بيت الداوية وبيت الاسبتارية . وبرغم ما تغلغل في المملكة من امتيازات ، كالتي حصل عليها المقطعون ، والاحياء الايطالية ، ورجال الدين ، فان اشد ما تعرضت له المملكة من الفساد ، انما جاء من قبل هؤلاء المتغطرسين ذوي الاعفاءات الكبيرة ، الذين افادوا من مركزهم الغامض ، لما اجتمع فيهم من الصفتين الدينية والزمنية ، في التهرب من تأدية ما هو مقرر من الواجبات ، على كل من رجال الدين والعلمانيين . اذ اتخذوا لهم ضياعاً شاسعة ، لا سيما في امارة طرابلس . على ان ما حدث من الشجار والتخاصم بينهما ، بلغ من اشتداده ما ادى الى منع القيام بأي عمل فعال . نازعوا رجال الدين فيما ادعوه لانفسهم، من العشور وحقوق القضاء ، وجرت بينهم وبين المسلمين مفاوضات ، باعتبارهم هيئات مستقلة ، اما سلوكهم نحو الملك ، فانه جرى على انهم امراء مستقلون . ومع ذلك فان مساعدتهم بلغت من شدة الاهمية والحيوية ، مثلما كان لنفوذهم من شدة الخطورة والاهمية .

وبفضل استمرار قدومهم من الغرب ، احتفظوا لانفسهم من القوة والنشاط ما افتقده بالتدريج الفرنج بفلسطين ، وكان لقوتهم الجماعية من الاهمية في قوة الفرنج الحربية ، ما جعل الاعتماد عليهم امراً لا مفر منه .

وما اوردناه من وصف لنظام مملكة بيت المقدس ، انطوى ايضاً على وصف اسباب سقوطها . اذ سقطت المملكة ، لانه لم يكن لديها من القوة المالية ، او القوة السياسية ، ما يجعلها تبقى، « فان مساوىء الحكومة كانت اقوى من فضائل سائر الحكومات » .

Les vices du gouvernement avaient été plus puissantes que les vertues des gouvernements

غير ان هذه المساوىء لم تكن فحسب مساوىء الحكومة ، بل تعتبر ايضاً مساوىء اخلاقية ، ومساوىء لا مفر منها في الهيئة الحاكمة ذاتها . ولا شك ان المناخ ، كان مسئولا عن جانب كبير منها ، اذ ان فرنجة شمال اوربا حاولوا ان يسلكوا في حياتهم تحت شمس الجنوب مثلما درجوا عليه من الحياة تحت مناخ الشمال . اذ دأبوا على ان يركبوا خيولهم ، فوق الرمال المحرقة ، في كامل عدتهم الحربية — المؤلفة من الزرد الحديدي ، والترس الطويل ، والخوذة الثقيلة — كما لو كانوا ببلادهم في فرنسا ، على ان هذه الفئة الجديدة من السكان الذين بيدهم مقاليد الامور ، لم يبلغ عددهم من الكثرة ، ما يجعلهم يؤدون من العمل ما ينبغي تأديته . وترتب على ما اضناهم من الجهد ، ان اخـــذ هؤلاء السكان في الانقراض والزوال . ولم يكن ليبقي على قوتهم سوى الهجرة المستمرة من الغرب ، بما تجلبه لهم من دماء جديدة ، وما تمدهم به من قوة جديدة من الجند ، غير ان هذه الهجرة لم تحدث مطلقاً . والواقع انه لم ينضم الى اعداد الفرنجة في الشرق سوى اعداد بالغة القلة . اما جموع الصليبيين فهي اما هلكت في آسيا الصغرى ، كما حدث في سنة ١١٠١ او سنة ١١٤٧ ، واما لم تلق من الفرنجة المستوطنين بالشرق الا المناوءة وسوء الظن . والواقع ان ما حل من الكوارث بمملكة بيت المقدس ، جعل سكانها لم يرحبوا بالامدادات التي جاءت لمساعدتهم [١] . اذ ان البارونات ساورهم الشك في الصليبيين ، بأنهم انما جاءوا لتحقيق اطماع خفية ، وانهم رتبوا خطتهم على ان يقيموا لانفسهم امارات جديدة . وكيفما كان الامر ،

---

(١) الواقع ان هذه الإمدادات لم يتالف معظمها الا من مجرمين جاءوا من الغرب من اجل التوبة ، وسوف تزيد ما هو سائد من فساد بين الصليبيين المتقدمين الذين انحلت اخلاقهم وفسدت طباعهم . انظر (Barker p. 48 note 1) .

فان المستوطنين من الفرنج ، الذين درجوا على ان تجري بينهم وبين المسلمين علاقات تجارية، ومفاوضات سياسية، لم يكن في وسعهم ان يسهموا في الشهوة الجامحة التي اندفع بها الصليبيون لمهاجمة المسلمين، وما حدث للبارونات، حدث للمشتغلين بالتجارة . اذ انهم جنوا من الارباح الوفيرة ، الناتجة عن اتصالهم بالمسلمين ، ما يمنعهم من التخلي عن سبيل المتاجرة الهادئة . وانهم لاشد استعداداً لمنع كل مغامرة حربية لا مساندتها . اما السكان المستوطنون من الفرنج ، فلم يلبثوا ، بعد ان اضحوا منعزلين ، ان فقدوا كل ما لديهم من قوة بدنية وقوة اخلاقية . وجمعت حياة البارونات بين ما اشتهرت به الفروسية الغربية من الاسراف والبذخ ، وبين اسباب الترف في الشرق ، فكانوا يرجعون من المعركة الى دورهم التي اشتهرت ايواناتها بالجدران المحلاة بالزخارف الجصية، والسقوف المزينة بالفسيفساء ، هذه الدور التي جرى فرشها بالسجاجيد الفارسية ، والتي ازدانت بالستائر المصنوعة من الحرير المزركش . وكان لدورهم ، لا سيما التي في المدن ، من الخصائص والمزايا ما لدور المسلمين في المغرب .

وعاشوا في دورهم مثلما عاش المسلمون، فموائدهم جرى تنضيدها بما اخرجه الصناع الشرقيون من الاواني النحاسية والفضية ، وزخرت بألوان الحلوى الدمشقية . واتخذوا من الملابس الاثواب الحريرية السابلة ، وارتدى نساؤهم الاثواب الشرقية الرقيقة المحلاة برقائق الذهب ؛ فتطرق الى ايواناتهم حيث صار هذا النوع من الناس يرقصون على نغمات الموسيقى الشرقية ، ما لا مفر منه من فساد الخلق والانحلال. ويرجع السر في موت الرجال في سن مبكرة، الى ما قاسوه من شدائد الحرب ، وما انغمسوا فيه من مباذل السلم . اذ تولى عرش مملكة بيت المقدس خلال قرن من الزمان، احد عشر ملكاً . وبينما مات الرجال مبكرين ، طال عمر النساء لما لجأن اليه من حياة الدعة والخمول . فأصبحت لهن

الوصاية على اطفالهم الصغار ، وما هو معروف من تجربة حداثة السن في العصور الوسطى اعادت الدرس الذي يشير الى انه ويل للدولة التي يتولى حكمها طفل تحت وصاية امرأة. وأسوأ من ذلك، ما جرى في معظم الاحوال من اقدام هؤلاء النسوة الارامل ووريثات الحكم، على الزواج من جديد . وبمقتضى قوانين المحكمة العليا صار للارملة ، بعد وفاة زوجهـا ، ان تنال نصف الضيعة ، وان تحظى بالنصف الآخر باعتبارها قيمة على اطفالها . وترتب على ذلك ، ان نقل هؤلاء الارامل ضياعهن او ألقابهن الى ثلاثة او اربعة من الازواج، فأضحى أثر الوريثة، مثلما حدث في انجلترا في القرن الخامس عشر الميلادي، قاصماً لسلام البلاد وأمنها. ففي انطاكية ، مثلا ، حدث بعد وفاة بوهمند الثاني في سنة ١١٣٠ ، ان تزعمت ارملته حزباً يؤيد زواج وريثته في الحكم ، كونستانس ، من مانويل امبراطور القسطنطينية ، ولم تتردد في ان تدخل ايضـاً في مفاوضات مع زنـكي صاحب الموصل في هذا الشأن . غير ان سياستها اصابها الفشل وتزوجت كونستانس من ريموند امير انطاكية ، ثم من ريجنالد شاتيون ، وترتب على ذلك، ان تجددت العداوة مع الامبراطورية البيزنطية ، بينما تسبب المغامران الفرنسيان (ريموند، وريجنالد) اللذان فازا بالجائزة (الزواج من كونستانس) ، بسلوكهما في تدمير آمال الفرنجة ، وما حدث في المملكة من الامور ازداد سوءاً ، اذ انه لم يكن بها نظام ثابت لوراثة الحكم ، فعانت بيت المقدس في وقت واحد ، على حد مـا يذكره المؤرخ الشهير Stubbs ، « ما نجم عن الحق الوراثي من الضعف ، ومـا ترتب على نظام الانتخاب من الاحقاد » ، وازدادت صلات القرابة اضطرابـاً، واشتدت المنازعات الاسرية، بما شاع من تعدد زواج وريثات مملكة بيت المقدس فلما نقلت سبيلا Sibylla التاج الى جاي لوسجنان ، وهو من القـادمين الجدد ، وتعرض لكراهية اقارب الملك ، قررت بذلك مصير المملكة .

على ان موضع الشك هنـا ، وعلى الرغم من ان ذلك يعتبر حكماً جائراً على

مملكة قامت اصلا على الحماس الديني في ارض مقدسة ، ان المملكة حازت الاساس الاخلاقي ، الذي يستطيع وحده ان يهب اي نظام القدرة على حق البقاء . فالامارات الصليبية اقامها مغامرون حريصون على الربح والكسب ، ولم تفقد الغريزة الفطرية حدتها كلما مضى الزمن . على انه ليس في استطاعتنا ان نتأكد ، الى اي مدى انزل امراء الفرنج الظلم والاستبداد بالمقطعين السوريين ، وما ورد عن هذا الضرب من الظلم لم يلق شيئاً من التأييد . واذا صح ما اورده الرحالة المسلم ، ابن جبير ، من دليل فان اولئك المسلمين ، الذين عاشوا بضياع الفرنج ، لأحسن حظاً من الذين عاشوا في كنف الامراء الوطنيين [1] . على ان طباع الفرنج لم تكن الا طباعاً قامت على الجشع المفرط الذي لا يقره القانون ، اذ هبطوا من قلاعهم مثلما فعل ريجنالد شاتيون حين هبط من الكرك بالصحراء ، لينقضوا على المسلمين ، وليقبضوا عليهم ، ولا يفرجون عنهم الا بعد دفع فدية ، او ليهاجموا قافلة من قوافل المسلمين . فالحرص على الحصول على الكسب غير المشروع افسد دماء الفرنج مثلما افسد انجلترا في اثناء حرب المائة عام . وفي كلتا الحالتين حل عامل الانتقام الالهي الذي لا يخطىء . فاذا جاز للمسلمين ان يصبروا على قيام دولة من « الكفار » ، فانهم لا يطيقون قيام دولة من اللصوص .

---

(١) ما قام بمملكة بيت المقدس من نطام الضياع Manoral System ، ليس الا استمراراً للنظام القروي المعروف عند العرب . اذ ان كل قرية (Casale) تألفت من اسرات . ويدفع المستأجرون ما يتراوح ١/٤ و ١/٣ المحصول ، فضلاً عن الجزية واجور الاكرة . ومعظم سكان القرى من السوريين ، وقلما اقام الفرنج في قرية من القرى ، واشتغلوا بالفلاحة . وما اصاب الفلاحين من الظلم والاستبداد على ايدي ارباب الإقطاعات او نوابهم ، ادى الى انهيار الزراعة وتدمير اقتصاد مملكة بيت المقدس . (انظر Barker p. 50 . note 1.) . انظر : رحلة ابن جبير (طبعة ليدن) ص ٣٠١ — ٣٠٢ .

الفصل السادس

مملكة بيت المقدس والحروب الصليبية

منذ سقوط الرها سنة ١١٤٤ حتى سقوط بيت المقدس سنة ١١٨٧

تعتبر سنتا ١١٤٣ – ١١٤٤، من نواحي عديدة ، نقطة التحول في تاريخ الشرق اللاتيني . ففي سنة ١١٤٣ بدأ حكم اول ملك من الفرنجة المستوطنين[١]. وحوالي هذا التاريخ تم التنظيم النهائي لمملكة بيت المقدس باكتمال مجموعة قانون العرف بها. على انه حدث في هذا التاريخ ايضاً، ان اخذت المملكة في التداعي. ويعتبر سقوط الرها بداية النهاية . ففي سنة ١١٤٣ مات حنا كومنين، امبراطور الدولة البيزنطية ، ومات فولك ملك بيت المقدس . ولما رأى زنكي ان الطريق اضحى مفتوحاً امامه ، هاجم المعقل المسيحي الكبير (الرها) ، الذي لم ينل منه ما ارتطم به من موجات الهجوم الاسلامي المتتالية ، فدخل زنكي الرها، آخر الامر ، يوم عيد الميلاد سنة ١١٤٤ . ولم تمض على سقوط الرها الا سنتان ، حتى مات زنكي. غير انه خلفه في الحكم ابن له، اشتهر بالكفاية والقدرة ، وهو نور الدين وما حدث من محاولة من قبل الفرنج لاسترداد الرها، نجح نور الدين

---

(١) يبدأ عصر المستوطنين من الفرنج (Epigoni) منذ سنة ١١٤٣ ، وهؤلاء هم الذين نشأوا في الشام ، وتطبعوا بجيرانهم في الملابس والعادات . (انظر Barker p. 51 note 1) .

في ردها ، في نوفمبر سنة ١١٤٦ . ولم يجر هذا فحسب، بل حدث في ربيع سنة ١١٤٧ ، ان بلغت الحماقة بالفرنج ، ان دفعهم الامل في الاستيلاء على مدينتين صغيرتين ، الى ان ينقضوا ما يربطهم بدمشق من تحالف جوهري . والواقع ان وضع الامور في الارض المقدسة سنة ١١٤٧ ، كان ينذر بالخطر . اذ ان المملكة اللاتينية اعتمدت في سلامتها على ما تتلقاه من الغرب من مساعدة . وفي اوائل سنة ١١٤٥، جاء الى البابا يوجين الثاني من انطاكية من الانباء ما يشير الى سقوط الرها. وفي نهاية السنة (١١٤٥)، ارسل البابا منشوراً بابوياً الى فرنسا، باعتبارها الموطن الطبيعي ، كما سبق ان رأينا ، نظراً للحماس الصليبي . ولم يلبث ان ظهر رد الفعل سريعاً . ذلك ان ملك فرنسا ذاته ، الذي اثقل ضميره ما ارتكبه جنده دون مبرر من مذبحة مريعة في فيتري [1] Vitry سنة ١١٤٢ ، اقسم اليمين بأن يشترك في الحرب الصليبية ، في يوم عيد الميلاد ، سنة ١١٤٥ . على ان النجاح الاكبر لم يتحقق ، الا بعد ان اجتذب البابا اليه القديس برنارد — وهو من اعظم المؤمنين في الحج ، ومن الطبيعي ان يساوره الشك في سياسة الحرب الصليبية الثانية — كيما يصبح مبشراً للحركة الجديدة . واستطاع القديس برنارد ان يضم الى ملك فرنسا (لويس السابع) ، ملك المانيا (كنراد الثالث) ، بأن حث كنراد ، بفضل الموعظة التي ألقاها في كاتدرائية شبيرز Spires في اسبوع عيد الميلاد سنة ١١٤٦ ، على ان يقسم بأن يشترك في الحرب الصليبية. وعلى هذا النحو بدأت الحملة الصليبية الثانية [2] ، وحظيت من مظاهر الرعاية ما يزيد على

---

(١) يعتبر Lavisse ان ما دفع لويس السابع الى الإشتراك في الحملة الصليبية الثانية الا الحماس الديني . انظر (Lavisse : Histoire de France vol III . p.12.) .

(٢) درجنا على ان نجعل للحروب الصليبية ارقاماً ، فنقول الحرب الاولى ، والحرب الثانية الخ ...

والواقع ان الحروب الصليبية ليست الا عملية مستمرة. وقلما مضى عام دون ان يقدم اثناءه =

ما صاحب الحملة الصليبية الاولى ، اذا ادركنا ان الملوك حلوا في هذه الحملة مكان الفرسان ، وان الصليبيين الجدد ، لن يخترقوا ، مثلما فعل الصليبيون في الحملة الاولى ، بلاداً لم تكن معروفة لهم ، بل انهم سوف يجدون في سوريا التي احتلها الفرنج ، قاعدة حربية قريبة منهم ، وفي متناول ايديهم ، غير انه كلما ازدادت حظوة هذه الحملة بهذه الرعاية ، كلما ازداد توقع فشلها . اذ ان المتاعب لم تلبث ان ظهرت عند الاجتماع الاخير ، الذي انعقد في سنة ١١٤٧ في ايتامب Etampes . اذ طلب مانويل كومنين ، الامبراطور البيزنطي ، ان كل ما يستولي عليه الصليبيون من بلاد ، ينبغي ان تكون اقطاعات من قبله .

وجرت المناقشة حول ما اذا كان ينبغي على الصليبيين ان يتخذوا الطريق البري ، عبر بلاد المجر ، على امتداد الطريق القديم المعروف بطريق شرلمان ، او ان يركبوا البحر الى الارض المقدسة . ووقع الاختلاف حول هذا الموضوع ، بين رسل مانويل ورسل روجر صاحب صقلية ، بسبب ما نشب بينهما من عداوة . واذا ارتبط كنراد بصلة المصاهرة مع مانويل ، انحاز كنراد الى الرأي ، الذي

= الى الارض المقدسة جماعات جديدة. وسبق ان لحظنا ما اصاب الحرب الصليبية في سنة ١١٠١ — ١١٠٢ وحملة البندقية سنة ١١٢٣ — ١١٢٤ ، من كارثة خطيرة . ويجوز ان نشير ايضاً الى حروب لم يرد لها ذكر في ارقام الحملات ، مثل حملة هنري الاسد في سنة ١١٧٢ ، وحملة ادوارد الاول في سنة ١١٧١ ، برغم ما لهاتين الحملتين من اهمية . وما جعل الحروب الصليبية تتخذ ارقاماً معينة ، انما يرجع فيما يبدو ، الى انها اما حدثت بعد وقوع كارثة مريعة — مثل سقوط الرها سنة ١١٤٤ ، وسقوط بيت المقدس سنة ١١٨٧ ، او قادها ملوك واباطرة ، او لما احرزته من نجاح او فشل مثلما جرى للحملتين الرابعة والخامسة. غير انه ينبغي ان نذكر دائما ان الحرب الصليبية عملية مستمرة ، اذ صار يتدفق على الشرق باستمرار قوات قادمة من الغرب . وهذا هو السبب في ان الحروب الصليبية تعتبر من اعظم عصور المدنية بما احدثته من اتصال الغرب بالشرق — (انظر .Barker, 52. note 1)

يقضي باتخاذ الطريق البري ، الذي اراده مانويل ، وذلك لانه سوف يؤدي الى ان يزيد في اشرافه على الحملة الصليبية ، ولانه اذا جرى اتخاذ طريق البحر، فان في استطاعة روجر ملك صقلية ، ان يحول السفن الصليبية لمهاجمة القسطنطينية. ونشب ، كما جرى عادة ، من النضال بين روجر ومانويل ، طوال مسير الحملة الصليبية ، ما ادى الى حد كبير الى فشلها ، فمنع بذلك كل مساعدة للصليبيين من قبل الامبراطورية البيزنطية . كما انه لم يكن بين الصليبيين انفسهم وحدة حقيقية . فالصليبيون القادمون من شمال المانيا، لم يذهبوا من قبل الى الاراضي المقدسة ، وما حصلوا عليه من امتيازات الصليبيين ، انما يرجع الفضل في ذلك الى مهاجمتهم الونديين النازلين في شرق نهر الالب. وهذه الحقيقة اكدت الانفصال بين شمال المانيا وجنوبها (وازداد هذا الانفصال فيما بعد ، بما حدث من حرب التقليد العلماني) ، وسبقت ما حدث فيما بعد من عهد الفرسان التيوتون وحروبهم الصليبية الطويلة الامد على البحر البلطي . اما الصليبيون القادمون من الاراضي المنخفضة وانجلترا ، فاتخذوا طريق البحر ، وهاجموا ، اثنـــاء سيرهم ، مدينة لشبونه ، واستولوا عليها ، فأسهموا بذلك في انشاء مملكة البرتغـال ، وحققوا بذلك ايضاً للحملة الصليبية الثانية ، ما احرزته من نصر يعتبر النصر الوحيد[1].
ولم تكن ثمة وحدة حقيقية بين الجيش الصليبي الكبير الذي سار الى بيت المقدس. ذلك ان كلا من كنراد ولويس ، سار الواحد منهم مستقلا عن الآخر، وفي ازمنة مختلفة ، كيما يتجنب الملكان ما يقع بين جيوشهما من منازعات ، واخذ كل منهما

---

(١) وصل هؤلاء الصليبيون الى الاراضي المقدسة ، حيث انحازوا الى كنراد (الذي فقد معظم قواته) ، واشتركوا في حصار مدينة دمشق ، غير ان هذا الحصار باء بالفشل . وما أداه هؤلاء الصليبيون للبرتغاليين من خدمات ، قام بأمثالها فيما بعد الصليبيون القادمون من الأراضي المنخفضة وانجلترا واسكندنياوه مقابل حصولهم عل المؤن والماء . ومن هذه المساعدات ما حدث في الحملتين الثالثة والخامسة . (نظر Barker p. 53 not 1) .

يتصرف مستقلا عن الآخر ، الى ان وصلا بجيوشها الى آسيا الصغرى (بعد ان صادفا بعض المتاعب والعقبات في الاراضي البيزنطية) .

ولحرص الصليبيين من الجرمان ، على ان يصيبوا اولى ثمار الغنيمة ، وقد تقدموا الفرنسيين في مسيرهم ، اغاروا على سلطنة قونية ، غير انهم ، بعد قتال عنيف في دوريليوم ، اضطروا الا الارتداد (اكتوبر سنة ١١٤٧) فهلك معظمهم اثناء الطريق . هذا الفشل الذريع ، دعا لويس السابع ، الذي لم يظهر الا بعد المعركة ، الى ان يتخذ الطريق الدائري الطويل على امتداد الساحل الغربي لآسيا الصغرى . ومع ذلك فانه لم يصل الى بيت المقدس سنة ١١٤٨ ، الا بعد ان فقد معظم جنده . وفي بيت المقدس اجتمع بكنراد (الذي قدم بطريق البحر من القسطنطينية) وبلدوين الثالث ، ملك بيت المقدس ، وبعد مشاورات ، استقر رأي الملوك الثلاثة على مهاجمة دمشق . على ان الهجوم على دمشق يعتبر مخالفاً لقواعد الادب واللياقة . اذ ان دمشق كانت الحليف الوحيد الذي يستطيع مساعدة الفرنج ، في وقف تقدم نور الدين . وما صاحب هذه الحملة من الحماقة لا يقل عما اقترنت به من مخالفة الذوق . فاستطاع وزير دمشق ، معين الدين أنر ، ان يبذر الشقاق بين الفرنج المستوطنين وبين الصليبيين الجدد ونجح ، بفضل ما بذله من الرشاوى والوعود بدفع الجزية ، في تحريض الفرنج المستوطنين على ان يتسببوا في فشل الحصار ، الذي لم يمض عليه الا اربعة ايام ، وذلك في ٢٨ يوليه سنة ١١٤٨ . وبذلك فشلت الحملة الصليبية الثانية . فعاد كنراد الى القسطنطينية في خريف سنة ١١٤٨ ، ورجع لويس بحراً الى فرنسا في ربيع سنة ١١٤٩ . والآثار الوحيدة التي نجمت عن هذه الحركة الكبيرة ، انما افسدت سلامة الاغراض التي من اجلها تم توجيهها ، لم يتحسن موقف الفرنج في الاراضي المقدسة بما حدث من مهاجمة دمشق . فالفشل الذريع الذي لحق حملة تولى قيادتها ملكان ، جعل

غرب اوربا يسيء الظن بكل الحركة الصليبية ، وترتب على ذلـــك ان ضاعت سدى جهود سيجر والقديس برنارد في اعداد حملة صليبية جديدة سنة ١١٥٠ .

ونجم عن فشل الحملة الصليبية الثانية ، ان تجددت هجمات نور الدين ، اذ تم سنة ١١٥٠ فتح ما تبقى في يد الصليبيين من امارة الرها، بما في ذلك تل باشر التي تقع الى الغرب منها . وحلت الهزيمة بريموند ، امير انطاكية ، ولقي مصرعه (سنة ١١٤٩) ، واستولى نور الدين على مدن عديدة تقع في شرق امارة ريموند (انطاكية) . وحاول بلدوين الثالث ، ملك بيت المقدس ، ان يوقف هـــذه القلاقل والاضطرابات ، بتجديد التحالف القديم مع دمشق من جهة ، وبازدياد التقرب الى مانويل امبراطور الدولة البيزنطية من جهة اخرى . وظل الاتصال مستمراً بين مملكة بيت المقدس والامبراطورية البيزنطية ، طوال العشرين سنة التالية ، اثناء حكم بلدوين الثالث واخيه املريك الاول ، اذ تزوج كل من بلدوين واملريك من بيت كومنين . كما تزوج مانويل من ماريا اميرة انطاكية ، وابنة ريموند ، فأحرز مانويل في الشمال ما سبق ان احرزه ابوه سنة ١١٣٧ ، من ولاء انطاكية وطاعتها ، كما حاز اسمياً امتلاك تل باشر ، الذي سبق ان تنـــازل له عنها بلدوين الثالث . وفي الجنوب، اشترك مع املريك الاول، في محاولة الاستيلاء على مصر (١١٦٨ – ١١٧١ م) . وبهذه الوسيلة صار له نوع من السيـــادة والسيطرة على الملوك اللاتين . ومن الدليل على هذه السيادة ان بلدوين الثالث ركب خلفه عند الدخول الى انطاكية سنة ١١٥٩ ، دون ان يتخذ شيئـــاً من شارات الملكية ورموزها ، وفي النقش القائم في بيت لحم ، والذي يرجع تاريخه الى سنة ١١٧٢، جرت كتابة اسم الامبراطور مانويل فوق اسم املريك الاول[1].

---

(١) اشتهر مانويل بالطموح والرغبة في بسط سيطرته على العالم ، ويشبهه في ذلـــك هنري السادس ملك المانيا، اذ ان مانويل كان يطمع في ان يبسط سلطانه على ايطاليا والامبراطورية =

وما حدث من اذعان بيت المقدس لحماية القسطنطينية ، اسهم الى حد مـــا في المحافظة على المملكة من الخطر الذي تعرضت له من قبل نور الدين . على انه وقعت المنازعات في داخل المملكة ، بين بلدوين وامه مليسندا Melisnda ، التي سعت الى ان تمد اجل الوصاية ، دون مبرر ، وبين الاحزاب المتناحرة في انطاكية ، حيث اضحت كونستانس ارملة ريموند مطمع الامراء [١] . اما في الخارج فان طرفي الهلال اخذا يحدقان في بطء بالمملكة . واتبع نور الدين في سياسته ما درج المسلمون على استخدامه من الخطط في قتال الفرنج . اذ حرص على ان يضيق الخناق على ممتلكاتهم من جميع الجهات . ففي سنـــة ١١٥٤ سقطت في يد نور الدين دمشق . فازداد بذلك احداق طرف الهلال في الشمال ، وفقدت المملكة اللاتينية اهم واثمن حليف لديها ، واضحى الطريق فيما يبدو ممهداً من حلب ، الى مصر . على ان بلدوين استولى في سنة ١١٥٣ على عسقلان ، التي ظلت خمسين سنة ، تتحدى في سخرية جهود الملوك الذين تعاقبوا على حكم المملكة اللاتينية ، ولعل بلدوين اراد بهذا العمل ان يسد امام نور الدين الطريق المؤدي الى مصر ، وان يمهد للفرنجة السبيل الى فتحها . اما عن المستقبل ، فان الحوادث ارتهنت بوضع الامور في مصر . وفي مصر تقرر آخر الامر مصير مملكة بيت المقدس ، اذ جرى السباق على امتلاك مصر بين شيركوه ، قائد نور الدين وبين امالريك شقيق بلدوين الثالث وخليفته في الحكم . على ان شيركوه احرز قصب السبق .

فمنذ ايام جودفري دي بويون وبلدوين الاول ، كانت مصر هدفـــاً لاطماع اللاتين ، ولا بد ان الاستيلاء على عسقلان يعتبر المرحلة الاخيرة لما اعد لفتحها

= الغربية ، ولذا دخل في مفاوضات مع البابا اسكندر الثالث ، كما ان هنري السادس اراد ان يسيطر على القسطنطينية والامبراطورية البيزنطية . (انظر Barker p. 55 note1.) .

(١) فاز بالزواج منها ريجنالد شاتيون .

من الخطط . اذ تم رسم خطط الهجوم، وجرى التعرف الى الطرق المؤدية الى مصر ، وتم تقدير المسافات ، وحدث آخر الامر ، في سنة ١١٦٣ ، ان جاء من داخل مصر ، من الحوافز ، ما حول هذه الخطط الى اعمال . اذ لم يكن الخلفاء الفاطميون في مصر وقتذاك الا ألعوبة في ايدي الوزراء المتنافسين على الحكم ، مثلما كان الخلفاء السنيون من قبل في ايدي السلاطين والامراء من الترك .

وفي سنة ١١٦٤ وقع القتال بين املريك الاول ونور الدين ، في داخل مصر، من اجل مساعدة وزيرين متنافسين ، ضرغام وشاور . ولم يكن المقصود من القتال عند نور الدين ، سوى الاستيلاء على اقليم اشتهر بالهرطقة ، (المذهب الشيعي) وإعادته الى المذهب الصحيح ، وهو المذهب السني ، واتمام تطويق مملكة بيت المقدس [1] ، اما املريك ، فانه رأى في الحرب وسيلة للافلات من مصيدة نور الدين ، وازدياد الاتصال المباشر المثمر بالتجارة الشرقية . ولا داعي للدخول في تفاصيل القتال . على ان نور الدين ، هو الذي احرز النصر ، آخر الامر ، على الرغم من المساعدة التي بذلها الامبراطور البيزنطي مانويل ، لاملريك ملك بيت المقدس . واستطاع شيركوه ، القائد الكردي لقوات نور الدين ، ان يقيم في الحكم ، الوزير الذي يرغبه ويميل اليه ، ولم يلبث ان اصبح شيركوه ذاته وزيراً (يناير سنة ١١٦٩) . ولما مات شيركوه، خلفه في الوزارة ، ابن اخيه، صلاح الدين (مارس سنة ١١٦٩) ، الذي صار ، بعد وفاة الخليفة الفاطمي (العاضد) سنة ١١٧١ ، الحاكم الوحيد بمصر . وبذلك انتهت الخلافة الشيعية ، وصار يذكر في خطبة الجمعة ، بمساجد القاهرة ، اسم خليفة بغداد ، واتحد المسلمون ، بعد ان طال الشقاق بينهم ، لمواجهة المسيحيين ، وصاروا كتلة سليمة

---

(١) وجه نور الدين كل اهتمامه لمهاجمة الإمارات اللاتينية ، وتوحيد القوى الإسلامية ، كيما يضيق الخناق على الصليبيين ويقضي عليهم .

صلبة . ومع ذلك فان مملكة بيت المقدس ظلت في الست عشرة سنة التالية ، بنجوة من الخطر ، لم تنتقص ممتلكاتها . فعلى الرغم من انه تم ، من الناحية الدينية ، توحيد مصر والشام ، فما زال الاختلاف السياسي قائماً. وطالما بقي هذا الاختلاف ، اطمأن الفرنج الى سلامتهم . وجرى صلاح الدين في تصرفاته ، على انه من اسوياء نور الدين ، لا تابع من اتباعه ، وما وقع بينهما من الحقد والحسد اوقف نشاطهما الى ان مات نور الدين في سنة ١١٧٤ . لم يخلف نور الدين على الحكم سوى صبي صغير . اما املريك، الذي مات في نفس السنة، فانه خلف من بعده ابناً (بلدوين الرابع) ، لم يكن فحسب صغير السن ، بل كان ايضاً ابرص ، فأصبح المجال هيناً سهلاً امام صلاح الدين ، انما واجهه ريموند امير طرابلس ، الذي يعتبر اكفأ رجل عند الصليبيين ، الذين اخذوا في التداعي والانهيار ، وهو الذي تولى الوصاية على مملكة بيت المقدس . التفت صلاح الدين الى السعي الى الاستيلاء على املاك نور الدين بالساحل. واستغرق هذا العمل من اهتمامه، نحو تسع سنوات . فاستولى صلاح الدين على دمشق، اوائل سنة ١١٧٤، غير ان ريموند ايد وساعد (الصالح) وريث نور الدين ، في عاصمته حلب ، فلم يدخل صلاح الدين حلب الا سنة ١١٨٣، وبذلك جعل مصر وسوريا آخر الامر، خاضعة لحكم امير واحد .

وحلت بمملكة بيت المقدس آخر الامر ساعة الخطر. ولم تكن اعدت نفسها تمام الاعداد ، لتلك الساعة . اذ تكرر الاستنجاد بالغرب منذ بداية التدخل في شئون مصر سنة ١١٦٣ . وفي سنة ١١٨٤ — ١١٨٥ ، قدم الى فرنسا وانجلترا ، سفارة اشترك فيها بطريرك بيت المقدس ، ومقدم الداوية ، ومقدم الاسبتارية ، وعرضوا تاج مملكة بيت المقدس ، على فيليب اغسطس (ملك فرنسا) وهنري

الثاني (ملك انجلترا) ، كيما يضمنوا قدومهم الى الاراضي المقدسة [١] .

على ان كل هذه الاستغاثات والالتماسات ، لم يترتب عليها ، الا ظهور نظام ثابت للضرائب ، في كل من فرنسا وانجلترا ، وهو المعروف باسم ضريبة لانقاذ الارض المقدسة ad sustentionem terrae Hierosolimitanae ، الذي بدأ سنة ١١٥٨ (على الرغم من انه كان منه ، امثلة متفرقة في سنة ١١٤٨ ، ١١٦٦) ، ويصح اعتباره بداية نظام الضرائب المعروف في العصر الحديث . على انه لم يحدث في الشرق ذاته ، من الاجراءات ، باستثنــــاء ما حدث سنة ١١٨٣ [٢] من فرض ضريبة ، ما يعتبر اجراءات سليمة . اذ حدث امران يعتبران شديدي الضرر ، فقد تزوجت سبيلا سنة ١١٨٠ للمرة الثانية من جاي لوزجنــــان ، وهو زواج افضى الى وقوع منازعات عديدة، لان سبيلا، وهي كبرى بنات امليك الاول، نقلت الى زوجها (جاي لوزجنان) ، وهو مغامر فرنسي، ما ادعاه من الحصول على التاج ولقب ملك بيت المقدس ، وهو امر لم يتم التسليم به في سهولة ويسر . اذ ان جاي ، وفقاً لهذا الزواج ، صار في سنة ١١٨٦ ملكاً ، بعد وفاة بلدوين الخامس (ابن سبيلا من زوجها الاول) ، غير ان هذا التتويج ، يعتبر انتهاكاً للوعد الذي قطعه جاي على نفسه لريموند صاحب طرابلس (بأنه في حالة وفاة بلدوين الخامس، دون ان يترك وريثاً لا يقرر ولاية الحكم الا البابا والامبراطور

---

(١) يعتبر هنري الثاني ، الانجوي ، الوارث الطبيعي لمملكة بيت المقدس ، عند انقراض سلالة فولك . وهذا يفسر ما قام به رتشرد الاول اثناء الحرب الصليبية الثـــالثة ، من دور في تقرير ولاية الحكم في بيت المقدس . انظر : (Barker p. 58 note 1) .

(٢) وما حدث في الغرب من تقرير الضريبة ، جرى ايضاً في الشرق ، ففي سنة ١١٨٣ ، تقررت جباية ضريبة في مملكة بيت المقدس ، على اساس ١ ٪ عن المنقولات، ٢ ٪ عن الإيجارات والدخل . انظر (Barker p. 58 note 2)

وملكا انجلترا وفرنسا) . على ان جاي لم يستطع ان يباشر سلطانه الحقيقي في المملكة بسبب ضعف دعواه في الملك . وفي هذه المرحلة وجه الضربة القاضية للمملكة ، مغامر فرنسي آخر ، ذاع اسمه في انطاكية ، اذ ان ريجنالد شاتيون، الزوج الثاني لاميرة انطاكية ، كونستانس ، حصل على امارة الكرك التي تقع الى الجنوب الشرقي من البحر الميت وذلك بعد ان انهكه الحبس الطويل (في اسر المسلمين) ، الذي استمر من سنة ١١٥٩ الى سنة ١١٧٦ . ومن هذا الحصن ذي الموقع الممتاز، شرع ريجنالد في شن الغارات المخربة، في البحر الاحمر (١١٨٢م)، فأنشأ اسطولا ، وحرص على ان يهاجم المدينة ومكة . هذه السياسة التي يصح تفسيرها ، إما على انها نوع من المغامرة والنهب ، وإما على انها محاولة رسمها، ليطعن الاسلام في صميم موطنه الاصلي . واذ لقي ريجنالد الهزيمة في البحر الاحمر على يد صلاح الدين ، تحول من النهب والغارة ، الى قطع الطريق واللصوصية ، فتعرض للقوافل التي تجتاز الطريق من دمشق الى مصر ، وتمر قريباً من امارته . وفي سنة ١١٨٦ م ، هاجم ريجنالد قافلة ، كان بها اخت صلاح الدين ، فانتهك بذلك الهدنة ، التي تقرر اجلها بأربع سنوات ، والتي عقدها في السنة السابقة ١١٨٥ ، كل من ريموند امير طرابلس وصلاح الدين ، بعد ان حدثت بينهما مناوشات استمرت سنتين ، وذلك نظراً لحدوث مجاعة مريعة . وما حدث من تتويج مغامر فرنسي ، (جاي) وما جرى من سلوك مغامر فرنسي آخر (ريجنالد) ، لم يستطع المغامر الاول ضبطه و كبح جماحه ، لم يكن ليؤدي الا الى خراب المملكة . وترتب على ذلك ، ان صلاح الدين اطلق كل ما في حوزته من قوة احتجزها عن القتال زمناً طويلا، للقيام بهجوم شامل. فما نشب من الحروب الصليبية ، رد عليه المسلمون ، آخر الامر ، بالجهاد الديني . فعلى الرغم من ان صلاح الدين امضى سنوات عديدة في محاولته الاستحواذ على املاك نور الدين ، لتوحيد العالم الاسلامي ولم يعرض لتهديد فلسطين ، او

اقتطاع جانب منها، فلا ريب ان غرضه الاخير انما كان الجهاد الديني، واسترداد بيت المقدس . فالاستيلاء على حلب « مقر حكم ابن نور الدين » ، يزيد في اقتراب تحقيق هذا الهدف الاسمى ، ولذا فانه لم يحرص على امتلاك حلب الا لكي يستطيع بذلك ان يحقق اغراضه ، ويحرر المسجد الاقصى الذي اسرى الله اليه بعبده ليلا . وبذلك فان حرباً دينية جديدة اخذت تجتاح مملكة الصليبيين ، الذين فقدوا الروح الصليبية ، بينما صار لجيش صلاح الدين سنة ١١٨٧ من الروح والحماس الديني مثلما كان للصليبيين في ١٠٩٩ . تغيرت الاوضاع ، وكسب المسلمون المعركة ، لانهم صاروا يقاتلون على ارضهم ، في سبل استرجاع ما يعتبر عندهم موضعاً مقدساً . ففي مايو سنة ١١٨٧ ، وعند طبرية ، سارت قوتان من الفرسان الداوية والاسبتارية قبالة فرسان صلاح الدين. وفي حطين حلت الهزيمة الساحقة بجيش المملكة اللاتينية بأسره ، البالغ عدده نحو ٢٠ الف، دفعتهم حماقتهم الى المسير على سهل رملي تلفحهم حرارة شهر يوليه الشديدة ، ولم تلبث ان اذعنت بيت المقدس بعد حصار لم يستمر اكثر من اسبوعين « ٢ اكتوبر سنة ١١٨٧ » . ولم تنته سنة ١١٨٩، حتى لم يبق للاتين في مملكة بيت المقدس سوى مدينة صور . ولم يكن للصليبيين في شمال المملكة ، سوى انطاكية وطرابلس وحصن المرقب « التابع للاسبتارية » . وبذلك ارتدت عقارب الساعة الى الوراء ، وعادت الامور من جديد الى ما كانت عليه قبل الحملة الصليبية الاولى ، ولا بد للغرب ان يتجهز من جديد لحرب صليبية مرة اخرى ، ولاستعادة بيت المقدس . غير انه لا بد ان يواجه الآن العالم الاسلامي متحداً، بينما لم يواجهه في سنة ١٠٩٦ ، الا بعد ان حلت به المنازعات السياسية والدينية ، ولا بد للغرب ان يعاني، بعد ان فقد الحافز الديني القوي ، شدتها البالغة، فسار الى خوضها وقد حل به من الارهاق والتعب ما اتصف به فيما بعد في حرب المائة العام .

الفصل السابع

محاولات الصليبيين لاستعادة بيت المقدس

١١٨٩ – ١٢٢٩ م

تعتبر الاربعون سنة الواقعة بين ١١٨٩، ١٢٢٩ ، فترة حافلة بحروب صليبية مستمرة ، شغلتها حملات صليبية من كل نوع. ففيها جرت الحروب الصليبية الثالثة والخامسة والسادسة ضد المسلمين الذين استردوا الاراضي المقدسة. وفي هذه الفترة ايضاً حدثت الحرب الصليبية البيجنسية [1] ضد الكاثاريين المتهرطقين ، وفيها

---

(١) البيجنسية ، نحلة دينية استمدت اسمها من مدينة Alki (في اللاتينية Albiga) الواقعة على الضفة الجنوبية لفرع من فروع نهر الجارون بفرنسا . وارتبط تاريخها بتاريخ سبتمانيا (الاقليم الواقع بين الرون وجبال البرانس) . وقدم النولصيون الى هذه الجهات في القرن الثامن الميلادي ، والمعروف ان عدداً كبيراً منهم اعتنق المانوية ، التي تدعو الى وجود الهين اله الخير واله الشر ، ولم تكن نحلة الكاثارية او البيجنسية الا مزيجاً من مذهب البولصيين ونحلة المصلين Massalians ، الذين يعتقدون ان الروح القدس حلت في جسم المسيح ، يجري عليه ما يجري على سائر الناس من الحياة والموت، ولا يقولون بتقديس مريم التي لم تكن سوى ام المسيح الانسان. واعتبروا الصليب شيئاً بغيضاً لا ينبغي عبادته . ورأوا ان الشيطان هو الإبن الأكبر لله ، وان المسيح هو الإبن الاصغر له ، وان الشيطان تعالى على ابيه فزل وهوى ، وان العالم المادي من صنع الشيطان ، ولذا يعتبر موطن الشر . وارتبط كل انسان بهذا العالم المادي ، لأنه في دخيلة نفسه شيطان . وما يقوم به المصلون من الصلاة لم يكن القصد منها سوى طرد الشياطين .

وعلى الرغم من اعتراف البيجنسية بالعهد الجديد ، وما يتعلق بالأنبياء في العهد القديم ، =

وقعت الحرب الصليبية الرابعة التي جرى توجيهها اساساً ضد اليونانيين المنشقين ، ثم تلا ذلك الحروب الصليبية التي شنتها البابوية على المسيحيين الخارجين عليها ، امثال حنا ملك انجلترا وفردريك الثاني . على ان ما يعنينا هنـــا هو ما يتعلق بالنوع الاول من الحرب الصليبية ، ولا يهمنا من الانواع الثلاثة الاخرى الا مـــا يتصل منها بهذا النوع ، وما يفسره مدلول « الحرب الصليبية » بمعناها الواسع ، وما صحب هذا الاتساع من تداعي الحافز الديني .

= فانهم فسروا ما ورد بها على انه رموز ، تدعو الى ان المسيح ليس الا ملاكا اتخذ هيئة غـــير ظاهرة ، ولذا فهو لا يقاسي العذاب ، ولا ينهض من جديد ؛ ولا يتم الخلاص الا باتبـــاع الفرد للمذهب الصحيح . انكر البيجنسيون القداسات ، والجحيم ، والمطهر ، وبعث الاجساد . وازدادت كراهيتهم للكنيسة . ونظراً لاعتقادهم بأن المادة تعتبر شراً ورجساً ، غلب على مذهبهم الاخلاقي التقشف والزهد الشديد . انكروا الزواج ، وتناول اللحم والبيض واللبن ، وسائر ما ينتج من الحيوان ، وأوصوا بالتفاني في مراعاة المبادىء ، هذا التفاني الذي بلغ حد الهلاك جوعاً . ولما بلغته هذه المبادىء من الشدة والصرامة والتقشف مما لا يتحمله معظم الرجال والنساء ، جعـــلوا الناس فئتين ، فئة الكمل الذين يؤدون هذه المبادىء ويراعونها تماماً ، وفئة المؤمنين العاديين الذين يمارسون الحياة العادية ، حتى اذا تعرضوا لخطر الموت ، جرى تعميدهم ، والتزموا بأن ينهجوا منهج الكمل . صار البيجنسيون مصدر خطر على الكنيسة بسبب عقائدهم التي تدعوا الى الانعزال والتقشف وسائر الآراء التي سبق ذكرها ، واصبحوا ايضا خطراً يهدد المجتمع . وادركت البابوية خطورة هذه النحلة ، فأعلنت المجامع الدينية بطلانها . غير انها ازدادت انتشاراً بسبب ما اشتهر به رجال الدين من الكاثوليك من الدعة والترف . وحرص البابا انوسنت الثالث على ان يحولهم عن عقيدتهم ، فأرسل اليهم البعثات التبشيرية ، غير انها لم تنجح في مهمتهـــا . وترتب على مصرع المندوب البابوي Peter of Castelnau سنة ١٢٠٨ ، ان قرر انوسنت تجريد حملة صليبية ضدهم واشتهرت هذه الحملة التي كان يقودها سيمون دي مونتفورت بالشدة والصرامة ، ومن اهم وقائعها مذبحة Beziers سنة ١٢٠٩ ، ومعركة موريه Muret سنة ١٢١٣ حيث انزل سيمون هزيمة ساحقة بزعيم الكاثاريين بطرس صاحب ارجون ، وتطورت الحرب الى العمل على ضم لانجدوك الى فرنسا — ولم يحل القرن الرابع عشر حتى لم يتبق للبيجنسية او الكاثارية اثر مطلقاً — انظر :
Bass Mullinger : Albigenses. Encyclopedia of Religion & Ethics. Runciman. The Medieval Manichee p. 21 , pp. 130 - 147 . وانظر ايضاً : Cross : Oxford Dictionary of the Christian Church.

الحرب الصليبية الثالثة

١١٨٩ – ١١٩٢

يعتبر كونراد مونتفرات مسئولا اكثر من غيره عن الحرب الصليبية الثالثة. فما حدث من ارغامه على مغادرة بلاط القسطنطينية ، حيث قام بخدمة الامبراطور البيزنطي ادى الى ان يرتحل الى الارض المقدسة، فوصل الى صور بعد ان مضى على وقعة حطين ثلاثة اسابيع. استطاع كونراد ان ينقذ صور، ومنها ارسل مراراً الى الغرب يلتمس النجدة . ومن اقوى الوسائل التي استخدمها في طلب النجدة ، ما بعث به الى الغرب من لوحة كبيرة جرى الطواف بها في اوربا ، وهي تمثل القبر المقدس، وقد لوثته خيول المسلمين . وفي تلك الاثناء ، ما كادت تصل الانباء الى روما ، حتى بادرت البابوية بارسال المنشورات الى سائر انحاء اوربا ، ولم يلبث ان تم الاستعداد لحملة صليبية جديدة . على ان الحملة الصليبية الثالثة تختلف عن الحملة الاولى ، في انها لم تنبع من البابوية ، التي كانت وقتذاك تجتاز مرحلة من مراحل الانهيار، انما نبعت من السلطة الزمنية، التي تمثلها الملكيات القوية الثلاث في المانيا وانجلترا وفرنسا ، والتي صار لها وقتذاك السيادة والسلطان في اوربا . ففي المانيا اعلن دياتماينز (في عيد القيامة ١١٨٧) الاشتراك في توجيه حملة الى الارض المقدسة. وقرر ملكا فرنسا وانجلترا الاشتراك سويا في حملة صليبية. وما اتخذه كل من فيليب اغسطس (ملك فرنسا) وهنري الثاني (ملك انجلترا) من الوسائل للقيام بالحملة الصليبية انما يدل على ما كان لهذه الحملة من مظهر علماني. اذ ان مشروع فرض ضريبة – وهي المعروفة بعشر صلاح الدين[١] – على كل من

---

(١) انظر تفاصيل هذه الضريبة في كتاب وثائق تاريخ العصور الوسطى .

لم ينهض الى اتخاذ الصليب — دفعت من جهة عدداً كبيراً الى ان يتخذوا الصليب ويشتركوا في الحملة الصليبية حتى لا يقوموا بدفعها ، وصارت من جهة اخرى تعتبر اساساً مالياً للعمليات الحربية (١). والاساس العلماني للحملة الصليبية الثالثة هو الذي جعلها من جهة اكبر الحملات الصليبية، اذ اشترك فيها الملوك الثلاثة الكبار الذين يحكمون غرب اوربا ، وجعلها من جهة اخرى من عوامل فشلها ، لان ملكي فرنسا وانجلترا ، بعد ان تغيرت نواياهما، نقلا ما بينهما من منازعات سياسية ، الى الحركة الصليبية ، بعد ان تم الاتفاق بينهما على ضرورة اغفالها ونبذها . ولذا تعتبر الحملة الصليبية الثالثة ، من الناحية الروحية ، اقل شأناً من الحملة الصليبية الاولى ، على الرغم من انها تفوقها في المظاهر المادية . على ان ينبغي التسليم بأن الحركة الصليبية صحبها سنة ١١٨٨ فكرة إحياء الروح الدينية. ذلك ان اوربا اجرمت في حق الله ، فلو لم تجرم اوربا لما سقطت بيت المقدس ، اما فكرة صدور الاصلاح الروحي من الداخل ، والذي باعتباره نتيجة طبيعية لحملة تقوم بها المسيحية في الخارج ، فانها ظهرت في بعض الرسائل البابوية .

ونستطيع ان نتصور الحملة الثالثة على هيئة شكل مؤلف من خطوط منكسرة تؤدي كلها الى مركز واحد ، ذلك المركز هو عكا. اما حصار عكا الذي تخلل قصته من اعمال البطولة والحماس مثلما حدث في حصار طراودة، فانه بدأه في صيف سنة ١١٨٩ جاي لوزجنان ، الذي لم يلبث ان خان عهده ونقض

---

(١) ازدادت قوة الدافع « الإقتصادي » للاشتراك في الحملة الثالثة ، بما اصدره البابا من لوائح لصالح المدنيين الذين انحازوا الى الحملة الصليبية، فاشترك في الحملة الثالثة الالوف كيما يتجنبوا دفع ما هو مقرر عليهم من الضرائب او الفوائد المتعلقة بما عليهم من ديون . ولا شك ان ما غلب على الجيوش الصليبية الثالثة من صفة السعي وراء الربح والمادة اخذ يزداد منذ الحملة الصليبية الثالثة على سائر الحملات السابقة .

وعده الذي بذله لصلاح الدين ، بعـــد ان اطلق سراحه ، وقد وقع في اسره في معركة حطين ، فعاد الى مهاجمة صلاح الدين . ولم يلبث ان انضم الى الجيش المحاصر لعكا جيوش عديدة . وتعتبر عكا النقطة الجوهرية ، فاذا تم الاستيلاء عليها ، صار الطريق الى بيت المقدس مفتوحاً امام الغزاة . وما يهمنـــا من هذه الجيوش ، الجيش الالماني ، والجيش الانجليزي الفرنسي . فالمعروف ان فردريك الاول ، بما استخدمه من اساليب الدبلوماسية التي تتفق مع ما اتصفت به الحملـــة الصليبية الثالثة من طابـع علماني ، قد سعى الى تمهيد الطريق بما ارسله من سفارات الى ملك المجر والامبراطور البيزنطي وسلطان قونية [1] ، خرج الجيش الالماني من ريجنسبرج في مايو سنة ١١٨٩ ، فاجتاز في يسر بلاد المجر ، غير ان المشاكل لم تلبث ان ظهرت ، مثلما ظهرت في سنة ١١٤٧ ، حينما وصلت القوات الجرمانية الى حدود الامبراطورية الشرقية (البيزنطية) . اذ ان الامبراطور البيزنطي ، اسحاق انجيـــلوس ، لم يكن يحمل فحسب ، ما اشتهر بـــه سائر الاباطرة الشرقيين من ضغينة قديمة للامبراطور « الحدث » في الغرب ، بل انه تحالف ايضاً مع صلاح الدين ، كيما يحرز لامبراطوريته رعاية الاماكن المقدسة والسيادة الدينية في الشرق الادنى . وما وقع من مشاكل بين فردريك واسحاق انجيلوس ، لم تلبث ان صارت حادة . ففي نوفمبر سنة ١١٨٩ ، كتب فردريك الى ابنه هنري ، يطلب اليه ان يحرض البابا على ان يدعو الى تجريد حملة صليبية ضد اليونانيين المنشقين على كنيسة روما . غير انه جرى آخر الامر تسوية الامور ، وفي نهاية مارس سنة ١١٩٠ عبر كل الجرمان الى شواطىء آسيا الصغرى . واتخذ فردريك الطريق الذي يقع بين الطريق الشرقي الذي سار فيه الصليبيون سنة ١٠٩٧ ، والطريق الغربي الذي اتبعه لويس السابـع سنة ١١٤٨ ، اجتاز فردريك فيلادلفيا وقونيه ،

---

(١) انظر التفاصيل في كتاب وثائق تاريخ العصور الوسطى .

حتى وصل ، بعد ان تعرض للرمال والحرارة الشديدة ، الى نهر السالف في بلاد ارمينيا . وفي هذا النهر الذي بلغه بعد ان عانى اعباء اليوم السابق ، هلك ذلك المحارب الصليبي القديم ، الذي اشترك ، منذ اربعين سنة ، في الحملة الصليبية الثانية ، ولم يبق من كل جيشه الضخم سوى ألف رجل استطاعوا ان يواصلوا سيرهم بقيادة ابنه فردريك السوابي ، لينحازوا الى الجيوش التي تحاصر عكا (اكتوبر سنة ١١٩٠).

اما القوات الانجليزية الفرنسية ، فانها احرزت نصراً مباشراً . والواقع ان الحرب افسدت ما تم الاتفاق عليه اصلاً في جيزورس Gisors بين فيليب اغسطس وهنري الثاني ، غير ان رتشرد الاول الذي خلف هنري الثاني على حكم انجلترا ، عقد اتفاقاً جديداً في نوناكورت Nonacourt (في ديسمبر سنة ١١٨٩) ، وبمقتضى هذا الاتفاق التزم الملكان بأن يجتمعا في السنة التالية في فزيلاي Vezelay ، وان يتوجها بحراً الى الاراضي المقدسة . واجتمع الملكان ، واتخذا طريقين مختلفين ، ووصلا إلى صقلية ، حيث امضيا فصل الشتاء (١١٩٠ – ١١٩١) . على ان ما حدث طوال الشتاء من الركود ، ادى الى ما وقع بين الملكين من المنازعات وتغير النوايا . فما كاد فيليب يبحر الى الارض المقدسة في نهاية مارس سنة ١١٩١ حتى صار فشل الحرب الصليبية امراً مقرراً . ولم يلبث رتشرد ان سار في اعقاب فيليب اغسطس ، غير انه بينما اتجه فيليب مباشرة الى عكا ، انصرف رتشرد ، اثناء سيره ، الى الاستيلاء على جزيرة قبرص ، وذلك لارضاء غريزة الفارس المغامر من جهة ، وللانتقام من جهة اخرى للاهانة التي ألحقها بخطيبته برنجاريا ، طاغية الجزيرة ، فضلا عن الدواعي السياسية التي تقتضي باتخاذ الجزيرة قاعدة للامدادات والعمليات التي تقوم بها الجيوش لاستعادة فلسطين . وكيفما كان الامر ، يعتبر رتشرد مؤسس المملكة اللاتينية بقبرص ، (لانه باع ، فيما بعد ، املاكه الجديدة الى جاي لوزجنان ، الذي اقام بالجزيرة اسرة حاكمة) ، وبذلك ابقى على نظم

وقوانين مملكة بيت المقدس ، فظلت سارية في جزيرة قبرص الى ان فتحها الاتراك العثمانيون . وارتحل رتشرد من قبرص الى عكا ، فبلغها في ٨ يونيه ، واستطاع ، بعد ان لم يمض على قدومه سوى شهر وبعض شهر ، وبفضل ما جلبه من امدادات ضخمة ، وبرغم ما وقع في معسكر المسيحيين من منازعات اسهم في اثارتها ، ان ينهي الحصار الذي استمر مضروباً على عكا سنتين ، بما احرزه من النصر في ١٢ يوليه سنة ١١٩١ . والواقع ان الوقت كان له اهمية بالغة . فما اصاب المحاصرين اثناء الشتاء السابق من الحاجة والحرمان ، وكان امراً خطيراً ، وازداد الموقف سوءاً ، بما وقع من منازعات بين جاي لوزجنان وكونراد مونتفرات الذي اخذ يزعم بأنه له الحق في ان يتخذ تاج مملكة بيت المقدس ، مقابل ما اداه من الخدمات. فلما ماتت سبيلا ، زوجة جاي ، ازداد الحاحاً في دعواه ، بعد ان تزوج من اختها الصغرى ايزابيلا . وفي هذه المنازعات ، صار من المحتم ان يتخذ فيليب اغسطس ورتشرد الاول ، بعد ان وقع بينهما من المنازعات ما وقع ، جانبين متعارضين ، فبينما كان من الطبيعي ان يتخذ رتشرد جانب جاي لوزجنان الذي جاء اصلا من موطنه بواتو ، كان من الطبيعي ايضاً ان ينحاز فيليب اغسطس الى كونراد. وفي آخر يوليه تقرر ان يبقى جاي ملكاً طوال حياته ، على ان يخلفه في الحكم كونراد . غير انه ما كادت تمضي ثلاثة ايام ، حتى شرع فيليب في العودة الى فرنسا ، (متعللا بسوء صحته ، والواقع انه حرص على ان يستولي على بلاد الفلاندر) . على ان هذه التسوية لم تكن عظيمة النفع للحركة الصليبية . مكث رتشرد في الارض المقدسة سنة اخرى ، استطاع اثناءها ان يحرز انتصاراً في معركة ارسوف ، وان يجدد استحكامات يافا. على ان ما هو اهم من كل العداوات ، ما وقع من المفاوضات التي اجراها رتشرد ، طوال سنة ، مع صلاح الدين. وهذه المفاوضات انما تدل على ما اشتهرت به الحملة الصليبية الثالثة من طابع علماني ، اذ انها سبقت في الزمن ما حدث في حملة فردريك الثاني ، وذلك لان رتشرد

حاول ان يحوز من الامتيازات ما حازه فيما بعد فردريك الثاني ، واستخدم في سبيل الوصول الى ذلك من الوسائل ما استخدمه فردريك .

وتدل هذه المفاوضات ايضاً ، على ما امتازت به هذه الحملة الصليبية من حدوث التقارب الشديد والتفاهم القوي مع المسلمين. ومن الدليل على ذلك، انه ليس ثمة ما هو اوضح من اقتراح رتشرد بأن يتزوج العادل شقيق صلاح الدين من جوانا اخت رتشرد ، وان يحوز صلاح الدين بيت المقدس والمدن الواقعة على الساحل . وترتب على ذلك ان تم عقد الصلح لمدة ثلاث سنوات (٢٠ سبتمبر سنة ١١٩٢) ، وبمقتضى هذا الصلح تقرر اقتسام مدينتي اللد والرملة ، وتخريب مدينة عسقلان والسماح لجماعات قليلة العدد من الصليبيين بزيارة القبر المقدس. وفي تلك الاثناء ، جرى اغتيال كونراد مونتفرات (ابريل سنة ١١٩٢)، في اللحظة التي استطاع فيها كونراد ، بفضل ما اشتهر به من قدرة فائقة ، ان يرغم رتشرد على الاعتراف به ملكاً. اما جاي لوزجنان، فانه اشترى من رتشرد جزيرة قبرص، وابحر اليها ليستقر بها ، ويتخذها مقاماً[1] . وتقررت دعوة

---

(١) اقامت الحروب الصليبية اثناء سيرها عدداً من الامارات والممالك الجديدة . فالحرب الصليبية الاولى انشأت بيت المقدس (١١٠٠ م) ، وترتب على الحرب الثالثة قيام مملكة قبرص (١١٩٥) ، ونجم عن الحرب الرابعة قيام الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية (١٢٠٤) . وما شنه الفرسان التيوتون من حرب صليبية طويلة الامد على ساحل بحر البلطي ، ادت الى ظهور امارة جديدة شرق نهر الفستولا . اما مملكة ارمينيا الصغرى ، التي نشأت سنة ١١٩٥ ، فيصح اعتبارها من نتائج الحروب الصليبية . ويعتبر تاريخ مملكة بيت المقدس شطراً من تاريخ الحروب الصليبية . اما تاريخ سائر الممالك والامارات فلم يكن له اتصال جوهري بتاريخ الحروب الصليبية. غير ان لتاريخ قبرص اهمية خاصة ـ وذلك لسببين : السبب الاول ، ان قبرص كانت قاعدة طبيعية بل ومن خيرة القواعد للعمليات الحربية ، اذ ارسلت المؤن للصليبيين في سنة ١١٩١ ، وقامت بذلك ايضاً عند حصار الصليبيين لدمياط سنة ١٢١٩ . وتجلت اهميتها كقاعدة حربية فيما قام به ملكها بطرس من الاعمال في القرن الرابع عشر ، والسبب الثاني، انه حينما سقطت =

هنري امير شمبانيا بن اخت رتشرد ، ليتولى عرش مملكة بيت المقدس ، فاتخذ لقب ملك بيت المقدس ، بفضل زواجه من ايزابيلا ارملة كونراد . وفي هذه الاحوال غادر رتشرد الاراضي المقدسة في اكتوبر سنة ١١٩١ ، بعد ان شرع في التمهيد لهذه العودة الحافلة بالاحداث .

فشلت الحملة الصليبية الثالثة ، لانه ليس في استطاعة جيش ، تجرد من القيادة ، ومزقته المنازعات السياسية ، وباشر القتال على ارض اجنبية ، ان يحرز النصر على جيوش جمع بينها ووحدها الحماس الديني ، وانضوت تحت لواء قائد مثل صلاح الدين . ومع ذلك فانها استطاعت ان تحفظ للمسيحيين امارة انطاكية ، وكونتية طرابلس ، وعدداً من المدن الساحلية التي كانت من املاك مملكة

= مملكة بيت المقدس اللاتينية ، انتقلت نظمها وقوانينها الى قبرص حيث ظلت قائمة الى ان استولى الاتراك العثمانيون على الجزيرة غير ان الملكية في قبرص كانت اقوى منها في بيت المقدس . اذ تولى الملك توزيع الاقطاعات ، وتضاءلت مساحة هذه الاقطاعات عما كان جارياً في بيت المقدس ، ولم يكن للمقطعين بقبرص ما للمحكمة العليا في بيت المقدس من سلطات جماعية او حقوق فردية (كحق الولاية على اهل المدن) ، كالتي كانت للمقطعين في مملكة بيت المقدس . وظلت مملكة قبرص حتى سنة ١٤٨٩ مملكة مستقلة ، وظلت عاصمتها ، فاماجستا ، مركزاً هاماً للتجارة ، بعد ان سقطت في يد المسلمين المدن الساحلية لمملكة بيت المقدس ، وفي سنة ١٤٨٩ ، استولت عليها البندقية بعد ان ادعت ماكية الجزيرة عند وفاة آخر ملوكها ، باعتبار ان ارملته سيدة من البندقية اسمها كاتارينا كورنارو Catarina Cornaro من بنات الجمهورية انظر . (Stubbs : Lectures on Medieval and Modern History, pp. 156 - 208) .

اما تاريخ مملكة ارمينيا الصغرى فهو شديد الارتباط بتاريخ قبرص . ونقل الارمن المقيمون بجنوب شرقي آسيا الصغرى عن الفرنج النظم الاقطاعية ، والمصطلحات الإقطاعية . واشتبكت مملكة ارمينيا الصغرى في نضال شديد مع انطاكية في الشطر الاول من القرن الثالث عشر . ثم تحالفت مع المغول في القتال ضد المماليك ، الذين استولوا عليها آخر الامر في سنة ١٣٨٤ . انظر (Barker , p. 95 . note 1 ,)

بيت المقدس [1] .

وعلى الرغم من ان هذه الحملة فشلت في تحقيق هدفها، فانه ترتب عليها نتائج عديدة هامة . فما نشب من مشاكل بين الامبراطور البيزنطي اسحاق انجيلوس وبين فردريك بربروسه ، انطوت على جرائم الحملة الصليبية الرابعة ، وما حدث بين رتشرد وصلاح الدين من مفاوضات ، حوت ايضاً بذور الحملة الصليبيــــة السادسة . وترتب على اجتماع الامم في حملة عامة ، ان ازدادت المنافسات القومية ، وبرزت الاختلافات الوطنية ، على انه من جهة اخرى ، حدث في هذه الحملة من التآخي بين المسلمين والمسيحيين ، ما لم يحدث اثناء حملة من الحملات الصليبية كلها. غير ان اقوى ما تمخضت عنه الحملة الصليبية الثالثة ، هو مــــا حدث من ان البابوية افلت من يدها ، الحركة الصليبية ، التي اضحت داخلة في نطاق اختصاص الدولة المدنية ، اذ تتولى الحكومة تنظيمها ، على اساس ما وضعته من نظـــام للضرائب ، وصارت الدولة تقوم بتوجيهها وفقاً لما اتخذته من طريق للمفاوضات . ويعتبر ذلك من اهم التغييرات التي حدثت ، بل ان عبقرية البابا انوسنت الثالث لم تستطع « ان تنقض ما تم ابرامه [2] » بل حدث عكس ذلك فما وقع ظـــل جارياً ، وسوف تتخذ الدولة اسم الحرب الصليبية لتخفي ما لهــــا من اغراض ومطامع دنيوية ، وتعمل تحت هذا الغطاء على تحقيقها .

---

(١) لم تكن مملكة بيت المقدس منذ سنة ١١٩٢ حتى سقوطها النهائي ، سوى رقعة من الأرض على امتداد الساحل ، وحرص الملوك والصليبيون على ان يضيفوا الى هذه الرقعة بيت المقدس وطريقاً يصلها بالساحل . هذا هو الهدف الذي رمى اليه رتشرد من مفاوضاته مع صلاح الدين ، وكان ايضاً هدف فردريك الثاني اثناء الفترة التي ملك فيها بيت المقدس . (انظر : Barker p. 65 note 2) .

(٢) انظر الكتاب المقدس .

الفصل الثامن

الحملة الصليبية الرابعة

١٢٠٢ — ١٢٠٤ م

يعتبر تاريخ الحملة الصليبية الرابعة ، تاريخاً لتسلط النزعة العلمانية ، ومحاولة البابوية التخلص من ذلك التسلق وتلك السيطرة ، ومواصلة ما اشتهرت به من قبل من توجيه الحروب الصليبية ، وما حاق بهذه المحاولة من الفشل الذريع .

ظل الحافز العلماني (الدنيوي) متسلطاً الى ان ولى البابوية سنة ١١٩٨ انوسنت الثالث ، وكان يمثل هذا الحافز الدنيوي هنري السادس ، اكبر واعظم رجال السياسة في زمنه ، بل انه يعتبر في نواحي عديدة اعظم امبراطور منذ شارلمان .

ففي سنة ١١٩٥ ، سعى امليك ، شقيق جاي لوزجنان ، وخليفته على الحكم في قبرص ، للحصول على تاج بيت المقدس من هنري ، فبذل له الولاء ، واتخذ هذا الطريق ايضاً ، في ذلك الحين ، ليو ملك ارمينيا الصغرى كيما يتخلص من تبعيته للامبراطورية الشرقية (البيزنطية) . وبذلك حصل هنري على قاعدة في الشرق الادنى .

واضعف مركز المسلمين ما حدث من وفاة صلاح الدين سنة ١١٩٣ ، وما

اعقب ذلك من نشوب حرب اهلية ، بين اخيه الملك العادل ، وبين ابناء صلاح الدين ، من اجل الاستئثار بممتلكاته .

حرص هنري ، باعتباره امبراطوراً ، على ان يواصل الحملة الصليبية الامبراطورية (الموجهة من قبل المانيا) ، والتي توقفت بسبب موت والده ، وباعتباره ايضاً خليفة فردريك بربروسه ووريث الملوك النرمنديين في صقلية ، الذين دأبوا ، المرة بعد المرة ، على اشعال الحرب ضد الامبراطورية الشرقية (البيزنطية) ، كان لزاماً عليه ان يسوي حسابه مع اباطرة القسطنطينية . فمشروع القيام بحملة صليبية ، ومهاجمة القسطنطينية ، جرى اقترانهما وربطهما سويا ، في الصورة التي تمت بها فعلا في ١٢٠٢ — ١٢٠٤ ، الحملة الصليبية الرابعة .

ففي سنة ١١٩٥ اتخذ هنري السادس الصليب ، واعلن اشتراكه في الحرب الصليبية . والمعروف انه ارسل ، منذ فترة وجيزة قبل هذا التاريخ الى اسحاق انجيلوس ، امبراطور الدولة البيزنطية ، يطلب منه التعويض عما اصاب فردريك الاول (بربروسه) من الخسائر ، والتنازل عن كل ما استولى عليه الملوك النرمنديون بصقلية من الممتلكات ، وإعداد اسطول للمعاونة في حرب صليبية جديدة . على انه حدث في تلك السنة ، ان تم خلع اسحاق عن العرش على يد اخيه الكسيوس الثالث ، غير ان هنري زوج ايرين ابنة اسحاق لاخيه فيليب السوابي ، محاولا بذلك ان يضيف لاسرة هوهنشتاوفن لقباً جديداً ، ودعوى سليمة ، ضد الكسيوس الذي اغتصب الحكم . واذ تسلح هنري بكل ذلك ، انصرف الى التجهز للحملة الصليبية ، في المانيا ، وهي حملة ، كان الهدف الاول منها مهاجمة الكسيوس الثالث . غير انه في وسط هذه التجهيزات ، مات هنري في صقلية في خريف سنة ١١٩٧ ، فانهارت بذلك حملته الصليبية . على ان طائفة من المحاربين

الصليبيين من الجرمان ، الذين سبقوا هنري في المسير ، حققوا بعض النتائج ، فبفضل نفوذهم ، خلف امالريك ملك قبرص ، هنري امير شامبانيا الذي مات سنة ١١٩٧ ، على مملكة بيت المقدس . وبذلك اصبح احد اتباع الامبراطور حاكما في الاراضي المقدسة . اما طائفة الرهبان التيوتون التي استهلت اعمالها ، اثناء حصار عكا (١١٩٠ — ١١٩١) ، بادارة مستشفى ، فانه تم تكوينها . يضاف الى ذلك ان المحاربين الصليبيين من الجرمان اشتروا بعض المدن الساحلية ، ومنها بيروت . وفي سنة ١١٩٨ استطاع الملك الجديد ان يعقد هدنة مع الملك العادل لمدة خمس سنوات .

قال المؤرخ رانكه « لم يكن الوارث الحقيقي لهنري السادس سوى انوسنت الثالث » . وهذا القول لم يصدق في امر من الامور مثلما صدق فيما يتعلق بالحركة الصليبية . ذلك ان انوسنت الثالث ، طوال بابويته الحافلة بالاحداث ، جعل الحرب الصليبية هدفه الاساسي ، وحاول ان يعيد لها ما اشتهرت به من قبل من اساس ديني ، وان يخضعها لاشراف البابا وتوجيهه .

ولم يكد يحل ربيع سنة ١٢٠٠ ، حتى تم ، بفضل جهود البابا انوسنت الثالث ، إعداد حملة صليبية جديدة ، لا سيما في فرنسا ، حيث قام فولك نيي Neuilly ، بنفس الدور الذي قام به من قبل بطرس الناسك . وتعتبر الحملة الصليبية الرابعة ، كالحملة الصليبية الاولى ، حملة فرنسية ، في تأليفها ، لا في توجيهها ، فأعضاؤها البارزون من الامراء المقطعين ، امثال تيوبالد امير شامبانيا (الذي وقع عليه الاختيار ليكون قائداً للحملة الصليبية) ، وبلدوين امير الفلاندر (وهو الامبراطور المقبل للقسطنطينية) ، وكونت بلوا .

وتعتبر مصر [١] الهدف الذي تطلع اليه هؤلاء الزعماء الكبار الثلاثة في هذه الحملة الضخمة . فمنذ سنة ١١٦٣ ادرك الصليبيون ، كما سبق ان رأينا ، اهمية امتلاك مصر . وفي صيف سنة ١١٩٢ تلقى رتشرد الاول من مستشاريه ، النصيحة بأن القاهرة ، لا بيت المقدس ، هي الجهة التي ينبغي مهاجمتها . وفي سنة ١٢٠٠ جرى من الاسباب الاضافية ما يدعو الى تفضيل مهاجمة مصر ، فالهدنة المعقودة بين املريك الثاني والملك العادل بشأن الاراضي المقدسة ، سوف لا ينتهي اجلها الا بعد ثلاث سنوات . ولذا تعتبر مصر ، التي انتقل اليها مركز القوة الاسلامية ، والتي ساقت الاغراض التجارية اليها ، المدن الايطالية ، فصار من اليسير على هذه المدن ان تتصل من مصر بالبحر الاحمر وتجارة المحيط الهندي ، الهدف الثابت للحملات الصليبية المتتالية .

هذه واحدة من الحقائق العديدة التي تبين الفرق بين ما حدث في القرن الثالث عشر ، وما وقع في القرن السابق من الحروب الصليبية . على ان مهاجمة مصر لا بد من توجيهها عن طريق البحر ، وذلك لان سوريا كانت بأيدي المسلمين ، ومن ثم تعتبر الحملة الصليبية الرابعة حملة بحرية ، شأنها في ذلك شأن الحملة الصليبية الثالثة ، التي جرى اعتبارها نقطة التحول في تاريخ الحروب الصليبية . ولذا حدث في اوائل سنة ١٢٠١ ، ان قدم الى البندقية الرسل من قبل كل من الزعماء الكبار الثلاثة في الحملة الرابعة (ومنهم فيلهاردوين مؤرخ الحملة الصليبية الرابعة) ، للمفاوضة في امر الحصول من وسيلة للرحيل الى مصر .

---

(١) بين المؤرخ لوشير Luchaire ، في المؤلف الذي افرده لترجمة حياة البابا انوسنت الثالث ، وعنوانه La Question d'Orient كيف ان الحملة الصليبية الرابعة تعتبر منذ بدايتها حملة علمانية على الرغم من البابا انوسنت . اذ ان البارونات الصليبيين بفرنسا اختاروا قائدهم ، وعينوا الطريق الذي سوف يسلكونه ، دون ان يستشيروا البابا انوسنت الثالث .

وتم الاتفاق بين الدوج والرسل ، وبمقتضى الاتفاق تعهدت البندقية بنقل الصليبيين وتقديم كل المساعدات، مقابل الحصول على ٨٥ الف مارك، والاستيلاء على نصف ما يفتحه الصليبيون من الاراضي [1] . غير ان الحملة الرابعة لم تكن مجرد رحلة (نزهة) الى مصر، اذ ما لبثت ان اصبحت معتركاً لاغراض سياسية متنازعة ، ترتب عليها توجيه الحملة الى القسطنطينية . ولا بد لنا في هذا الوضع ان نفرق بين السبب والظروف . اذ التمس الغرب ثلاثة اسباب رئيسية لمهاجمة القسطنطينية . واول هذه الاسباب ما يكنه الصليبيون من الحقد والضغينة للامبراطورية الشرقية (البيزنطية) ، وما اتخذته من سياسة خطيرة تقضي باعتبار كل الشرق الادنى من الاقاليم التي فقدتها ، ولا بد من استردادها اذ تم فتحها من جديد ، او يتولاها الصليبيون القادمون من الغرب مقابل ما يؤدونه من اجور . وهذه السياسة هي التي جعلت اباطرة الدولة البيزنطية لا يؤدون للصليبيين الا مساعدة ضئيلة ، او يتخذون من الخطط ما يعرقل مسيرهم ، وجعلتهم ايضاً موضع اللوم والتأنيب ، لما اصاب الحملات الصليبية من الفشل في سنوات ١١٠١ ، ١١٤٦ ، ١١٩٠ . ووجه الاهمية هنا، ان النتيجة النهائية لكل هذه الامور ، ما حدث فعلا في سنة ١١٤٧ ، من ان روجر ملك صقلية ، الذي اشتبك وقتذاك في حرب مع مانويل امبراطور الدولة البيزنطية ، عرض ان تتخذ الحملة الصليبية الثانية طريق البحر، ولعله كان يقصد من وراء ذلك، توجيهها الى مهاجمة القسطنطينية . وفي شتاء سنة ١١٨٩ ــ ١١٩٠ ، فكر بربروسه ، كما رأينا ، وأشار في حديثه ، الى مهاجمة القسطنطينية .

---

(١) تعهدت البندقية بأن تقوم بنقل وتقديم المؤن لمدة عام لنحو ٤٥٠٠ فارس بخيولهم ، و ٩٠٠٠ من اتباعهم ، و ٢٠ الف من الرجالة . يضاف الى ذلك انها تعهدت بأن يصحب الحملة الصليبية خمسون سفينة . وما كاد يتم الاتفاق ، حتى جرت دعوة الصليبيين للاجتماع بالبندقية ، استعداداً للرحيل الى مصر . انظر : (Runciman : op. cit. Vol. III. p. 113).

اما السبب الثاني فيتعلق بما تحمله البندقية من ضغينة تجارية، اذ ان ما حصلت عليه البندقية من امتيازات تجارية ضخمة في الامبراطورية الشرقية (البيزنطية) جعلها تمعن في المطالبة بزيادة هذه الامتيازات. يضاف الى ذلك ما تعرضت له البندقية من مناوءة ومعاكسة، لا فحسب بما حاوله الامبراطور المغتصب، الكسيوس الثالث، من اجراء تعديلات وتغييرات في هذه الامتيازات او سحبها، بل بما حدث ايضاً من تخريب حي البندقية في القسطنطينية سنة ١١٧١.

والسبب الثالث والاخير، ولعله اهم الاسباب، ما يبيته النرمنديون للقسطنطينية من ثأر قديم يرجع الى الوقت الذي سعى فيه النورثمن (الشماليون) للوصول الى القسطنطينية micklegarth، وازداد شدة وحدة، منذ ان استولى النرمنديون على الثغور اليونانية (البيزنطية) في جنوب ايطاليا (منذ سنة ١٠٤١). واذ تعتبر اسرة هوهنشتاوفن وريثة للملوك النرمنديين، رأينا ما اعده هنري السادس من حملة صليبية، كان يرمي اساساً الى توجيهها لمهاجمة القسطنطينية. هذه السياسة الهوهنشتاوفنية، هي التي اضحت الفرصة الوحيدة، لما وقع من تحول الحملة الصليبية الرابعة وانحرافها. ذلك ان فيليب السوابي، الذي اشتبك في نضال مع البابوية، وجد ان البابا انوسنت الثالث، يعد حملة جويلفيه [1]،

---

(١) جويلف Guelf، اسم دوق من دوقات سكسونيا بشمال المانيا، اواسط القرن الثاني عشر الميلادي، ثم اضحى علماً على دوقات هذا الاقليم كائنة ما كانت اسماؤهم الشخصية، كما صار اسم الجبلين علماً على دوقات سوابيا بالجنوب الغربي من المانيا، منذ اوائل القرن الثاني عشر الميلادي، ثم اضحى كذلك علماً على دوقات هذه الإسرة، فضلاً عن اسمهم العائلي، اي الهوهنشتاوفن. واقتصر استعمال الجولفيين والجبليين في تاريخ المانيا وحوادث التنافس على التاج الالماني بين البيوت الالمانية الكبرى حتى اذا كان عهد الإمبراطور فردريك بربروسا الجبليني واصطدمت سياسته في ايطاليا بمصالح البابوية وسياستها، صار اسم الجويلفيين مرادفاً للبابويين اعداء الإمبراطورية.
انظر (فيشر: تاريخ اوربا العصور الوسطى ترجمة زيادة والعريني ج ١ ص ١٩٤ حاشية ١).

تخضع لتوجيه الكنيسة ، وبهذا المشروع الجويلفي، اصاب من النجاح في معارضة هنري السادس ، من خطة جبيلية ، كما جعل فيليب يحول الحملة الصليبية الرابعة، الى حملة سياسية ضد القسطنطينية . ودفعه الى اتخاذ سياسة تحويل الحملة الى القسطنطينية امران : الامر الاول ، ما حدث من وفاة كونت شامبانيا (مايو سنة ١٢٠١) ، وما ترتب على ذلك من حث الصليبيين على ان يختاروا لقيادتهم بونيفاس مونتفرات ، شقيق كونراد، وبونيفاس ابن عم لفيليب السوابي. ويرجع سر اهتمامه بالقسطنطينية الى انه لم يخدم بها فحسب اخوه كنراد ، بل خدم بها ايضاً اخ آخر له، وتعرض الاخوان لكثير من الاذى على ايدي سادة القسطنطينية ، اما الامر الثاني فيرجع الى ما ارتبط به الكسيوس ، ابن الامبراطور المخلوع عن العرش ، اسحاق انجيلوس، من صلة القرابة مع فيليب السوابي عن طريق زواجه من ايرين . هرب الكسيوس الى البلاط الالماني ، وصار يلح في اعادة ابيه الى العرش .

وفي يوم عيد الميلاد سنة ١٢٠١ ، اجتمع في هاجيناو Hagenau ، كل من فيليب والكسيوس وبونيفاس ، ووضعوا الخطة لتحويل الحملة الصليبية الى مهاجمة القسطنطينية ، وساعدتهم الاحوال الجارية وقتذاك ، اذ تبين للصليبيين الذين اجتمعوا في البندقية ، في خريف سنة ١٢٠٢ ، انه من المستحيل عليهم ان يجمعوا مبلغ ٨٥ الف مارك ، الذي وعدوا بتقديمه للبندقية ؛ فعمد البنادقة ، ولعلهم اخذوا فعلا بنظرية الهوهنشتاوفنيين وخطتهم، الى ان يوضحوا للقادة ما يجوز ان يتخذوه من سبيل لمواجهة المشكلة ، فأشاروا عليهم، انه في سبيل تسوية ما عليهم من الدين ، بأن يؤدوا لجمهورية البندقية من الخدمات ما يحقق لها ما ارادت تحقيقه من الاغراض الخاصة . والهدف الوحيد الذي جرى ذكره صراحة هو امر الاستيلاء على زارا ، وهي ميناء على بحر الادرياتي ادعى البنادقة

ان الجريين انتزعوها منهم، غير ان فكرة توجيه الحملة الى القسطنطينية ازدادت ذيوعاً، وادرك الصليبيون آخر الامر ما توقعوه. غير ان حملهم على قبول التحول الى القسطنطينية لم يتم الا بعد جهد كبير وزمن طويل[1] . فالبابا ، وهو وحده قوة كافية ، اعلن امتعاضه وسخطه على المشروع الصليبي ، وزاد من غضبه ، ان المغتصب الكسيوس الثالث ، دخل معه في مفاوضات بشأن ما يبذله له من مساعدة ضد الهوهنشتاوفنيين، وكان انوسنت يأمل انه بتحالفه مع الامبراطورية اليونانية (البيزنطية) يستطيع ان يحصل على مساعدة وإمداد للحرب الصليبية. غير ان الصليبيين انتهوا الى قرار ، برغم ما بعث به اليهم انوسنت من تحذيرات متكررة. وفي نوفمبر سنة ١٢٠٢ استولى الصليبيون على زارا ، وبعد الاستيلاء عليها جرى اتخاذ قرار خطير. اذ ان الكسيوس الصغير ابن حنا انجيلوس انضم الى الجيش في زارا ، وعلى الرغم من المعارضة التي ابداها الصليبيون المتشددون امثال سيمون دي مونتفورت، الذي ابحر حديثاً الى فلسطين ، فان الكسيوس نجح ، بما بذله من وعود ضخمة[2] في حث الجيش الصليبي على ان يقتفي اثره الى القسطنطينية . وفي منتصف يوليه سنة ١٢٠٣ ، وصل الصليبيون الى القسطنطينيـــة ، فهرب الكسيوس مغتصب

---

(١) الواقع ان الصليبيين لم يدركوا هـــذا الموقف الا حين تبين لهم عجزهم عن سداد الدين للبندقية ، واعلن بونيفاس استعداده للتعاون مع البنادقة ، وعلى الرغم من ان البابا ، حينما عــلم بمساومة البنادقة مع الصليبيين على الاستيلاء على زارا ، وحاول منعهم من قبول هذا العرض ، فلم يسع الصليبيون الا ان يقبلوا طلب البنادقة — انظر Runciman : op. cit. III. p. 114 . والمعروف ان داندولو دوج البندقية، انكر على الامبراطور البيزنطي المغتصب للحكم، موقفه من عدم تجديد ما حصل عليه من امتيازات من سلفه اسحاق ، غير انه لا زال يتظاهر بحرصه على ان تتخــذ الحملة الصليبية الطريق المرسوم لها ، وهو مهاجمة مصر . انظر Runciman : op. cit. III. p. 115

(٢) حدث في اوائل سنة ١٢٠٣ ان قدم رسول من المانيا من قبــل فيليب السوابي ، الى بونيفاس في زارا ، يحمل عرضاً محدداً من صهره (فيليب السوابي) ، الى بونيفاس . هذا العرض تضمن انه اذا تقدم الصليبيون نحو القسطنطينية وجعلوا الكسيوس امبراطوراً على الدولة البيزنطية (القسطنطينية)، يتعهد الكسيوس بأن يدفع للبنادقة ما يدين به الصليبيون من الاموال للبنادقة.=

الملك ، وعاد الى العرش اسحاق انجيلوس [1] . غير انه لما حان الوقت الذي تحتم فيه على الكسيوس ان يفي بوعوده ، تكررت المشكلة التي ظهرت من قبل ، في البندقية ، في خريف سنة ١٢٠٢ ، ذلك ان موارد الكسيوس لم تكن بالغة الوفرة ، فكان لزاماً عليه ان يتوسل الى الصليبيين بأن يمكثوا بالقسطنطينية مدة سنة ، كيما يتوافر له الوقت للوفاء بوعوده [2] . فانتظر الصليبيون . غير ان ما نجم عن طول زمن بقائهم في القسطنطينية ، وازدياد الاتصال بأهلها ، لم يؤد الا الى انكشاف ما بين اليونانيين واللاتين من كراهية شديدة ، وادى الاحتكاك المستمر ، آخر الامر ، الى نشوب الحرب بينهم .

وفي مارس سنة ١٢٠٤ ، قرر الصليبيون ان يقتحموا القسطنطينية ، وان يقتسموا فيما بينهم الامبراطورية الشرقية (البيزنطية) [3] وفي ابريل سنة ١٢٠٤

=ويقدم لهم من المؤن والاموال ما يساعدهم على فتح مصر ، فضلا عن قوة مؤلفة من عشرة آلاف مقاتل من الجيش البيزنطي ، وتعهد بأن ينفق على خمسمائة فارس اثناء مقامهم في الارض المقدسة ، وتكفل بخضوع كنيسة القسطنطينية لروما . والخلاصة ان البندقية سوف تحصل على الاموال ، وتذل في الوقت ذاته اليونانيين ، وتحصل على امتيازات وفيرة في انحاء الامبراطورية البيزنطية . اما مهاجمة مصر فمن اليسير عرقلتها فيما بعد . انظر :

Villehardouin : Chronicle of Crusade and Capture of Constantinople pp. 90-100

(١) لم يقبل الصليبيون الاعتراف بعودة اسحاق الى العرش الا بعد الاتفاق على ان يشترك معه في الحكم ابنه الكسيوس الذي صار يعرف بالكسيوس الرابع . انظر :

(Runciman : op. cit. Vol. III. p. 119)

(٢) عن تفاصيل سوء احوال الدول البيزنطية وقتذاك ؛ انظر :

(Runciman : op. cit. Vol III p. 118-121)

(٣) تقرر ، بعد حدوث نزاع طويل بين الصليبيين على اقتسام الامبراطورية ، ان يتولى الفرنج والبنادقة انتخاب الامبراطور ، عقب الاستيلاء على القسطنطينية . وتقرر ان يكون الامبراطور من الفرنج ، وان يكون البطريرك من البنادقة ، وان يختص الامبراطور بالقصر الامبراطوري ، وقصر بلاشيرن الامبراطوري ايضا ، وان يكون له ربع المدينة والامبراطورية . وما تبقى يجري تقسيمه مناصفة بين البنادقة والفرسان الصليبيين على ان تكون اقطاعات بأيديهم ، ويدينون جميعاً ، ما عدا الدوج بالولاء للامبراطور . انظر :

Robert of Clary : Canquest of Constantinople p. 68.

تم الاستيلاء على القسطنطينية ، وفي مايو اضحى بلدوين امير الفلاندر ، اول اباطرة اللاتين بالقسطنطينية ، وفازت البندقية بنصيبها ، اد اصبح احد البنادقة وهو توماس ماروسيني ، بطريركا . واضاف دوج البندقية الى ملكه ، « من الامبراطورية الشرقية الربع والنصف [١] » فاذا لم يكن جشع البندقية هو السبب الاصلي لتحويل الحملة الصليبية الرابعة ، (اذ ان من رأي المؤرخين المعاصرين ، ان البندقية ارتكبت اول خيانة لها ضد المسيحية ، بأن صرفت الحملة الصليبية عن مصر ، كيما تحصل من الملك [٢] العادل ايوب على امتيازات تجارية) ، فانها حصلت على ارباح وفيرة من ذلك التحول، اما الهوهنشتاوفنيون وتابعهم الكسيوس ، فلم ينالوا الا الهباء والتراب . فعلى الرغم من ان الغرض الاصلي للحملة كان جبليا ، فان النتيجة لم تتفق تماما مع دقة المشروع . اذ ان سلطة البابا زادها حادث الحرب الصليبية قوة ولم تضعفها ، فالتمس الصليبيون من انوسنت ان يوافق على خضوع القوم المنشقين، ويقر اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية . اما انوسنت الذي استهواه سحر الامر الواقع ، فلم يكن عازفاً عن القبول والرضى، اذ قد يهدىء ثائرته ان ما يأمل ان يجده عند الكسيوس الثالث اساساً للحملة الصليبية ، ما زال يعرضه بلدوين ، فلم يسعه الا ان يشعر في كبرياء بأن اصبح « كأنه بابا ورسول لعالم آخر » ، ومع ذلك لم تكن الحملة الصليبية الرابعة في مجموعها الا كارثة على البابوية والحركة الصليبية . اذ أرغم البابا على ان يشهد ان دفة الحروب الصليبية ، جرى انتزاعها من قبضة يده ، وان الحرب

---

(١) المقصود نصف الربع ، اي صار نصيب البندقية ٣/٨ الإمبراطورية للبيزنطية والقسطنطينية .

(٢) الواقع ان البندقية حصلت سنة ١٢٠٨ على امتيازات تجارية من مصر . على ان ذلك ليس كافياً لإثبات التهمة . فالبندقية لم تكن المسئول الأول عن تحويل الحملة الصليبية الرابعة عن وجهتها – انظر (Barker, p. 72, note 1) .

الصليبية البجنسية الموجهة ضد الهراطقة بجنوب فرنسا لم تلبث ان دلت على انه يصح فيما بعد احتذاء ذلك المثل ، وان طبقة النبلاء ، في شمال فرنسا ، الحريصة على امتلاك الاراضي تستطيع ان تحرز من النجاح ، في استغلال الحرب الصليبية ، ما احرزته السياسة الهوهنشتاوفنية الضالعة مع جشع البنادقة . ففقدت الحرب الصليبية ما لها من قوة ونشاط ، حينما اصبحت مجرد حركة في لعبة سياسية ، فاذا كانت الحملة الصليبية الثالثة ، وجهتها السلطة الدنيوية ، لتحقيق ما اشتهرت به الحروب الصليبية من غرض روحي خالص ، فان الحملة الصليبية الرابعة انما وجهتها السلطة الدنيوية لتحقيق اغراضها الدنيوية الخالصة . فتجلى الآن ما جرى التسليم به من الاغراض التجارية والسياسية و الحروب الصليبية الاولى . والنتيجة المباشرة التي نستطيع ان ندركها ، هي ان سقوط القسطنطينية في يد اللاتين اضر بالحركة التي نبتت منها (الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية) . فهذه الامبراطورية القلقة المضطربة التي تأسست سنة ١٢٠٤ استنزفت نشاط كل المغامرين الاقوياء الذين قدموا من الغرب في السنوات المقبلة لمساعدتها ، وبينما هلكت الارض المقدسة جوعاً ، كما توفر الغذاء لأرض اقل قداسة ، بل تعتبر اكثر شراهة للرجال [1] . فلن يجد البابا في الامبراطورية اللاتينية في الشرق اي اساس للحرب الصليبية . ولما استحوذ اليأس على البابا انوسنت الثالث ، من ان تخرج من القسطنطينية حملة صليبية جديدة ، وجد نفسه في سنة ١٢٠٨ مضطراً الى ان يعود الى فكرة إعداد حملة صليبية تسير مباشرة من الغرب الى الشرق .

---

(١) حدث زمن بابوية انوسنت الثالث ، ان ما ترتب على الحملة الصليبية من فوائد ، انما حظى بها اولئك الذين توجهوا لمساعدة الإمبراطورية اللاتينية في الشرق .

الفصل التاسع

الحملة الصليبية الخامسة

١٢١٧ – ١٢٢١ م

ما كاد يتوفى دوج البندقية، داندولو، ويفرغ فيلهاردوين من كتابة تاريخه، حتى اختفى كل ما اشتهرت به الحروب الصليبية، باستثناء امجاد القديس لويس المثيرة الغاربة ــ من حماس وصيت ــ غير انه حدث قبل ان يبحر القديس لويس الى دمياط، ان تعرضت حملة صليبية لفشل ذريع، واحرزت حملة صليبية اخرى نجاحاً دبلوماسياً دنيوياً باهراً. فالحملة الصليبية الخامسة، هي آخر حملة صليبية، جرى توجيهها في بابوية انوسنت الثالث. ويرجع السبب الاساسي لهذه الحملة الى ما اشتهر به انوسنت الثالث، من الحماس الشديد، لاستعادة بيت المقدس، دون ان يكون ثمة حاجة ماسة الى ذلك في الارض المقدسة. ففي هذه الجهات ساد سلام دائم يكاد يكون غير مقطوع، اثناء الاربعين سنة التي تلت ضياع بيت المقدس. فالملك العادل، شقيق صلاح الدين، خلف اخاه على ممتلكاته، لا في مصر فحسب، بل في الشام ايضاً، ومنح المسيحيين طائفة من معاهدات الهدنة (١١٩٨ ــ ١٢٠٣، ١٢٠٤ ــ ١٢١٠، ١٢١١ ــ ١٢١٧). وبينما ساد السلام على هذا النحو، في الاراضي المقدسة، صرف الصليبيين الى جهات اخرى، حاجات الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية، ومثيرات الحرب

الصليبية البيجنسية (١) . غير ان انوسنت لم يقبل مطلقاً ان ينسى بيت المقدس، طالما بقي عنده قدر من الدهاء. فما حدث سنة ١٢١٢ من حملة الاطفال الصليبية المحزنة ، زادت في إثارته لمضاعفة جهوده . ذلك انه ظهر في فرنسا ، صبي راع معروف باسم ستيفن ، حرض ألوف الاطفال ليهتدوا بارشاده ، فركب هذا العدد الكبير من الاطفال، عربات تجرها الثيران، اتخذت طريقها صوب الجنوب الى مارسيليا ، ووعد ستيفن بأن يقود اتباعه عبر البحار ، التي توهم انها سوف تجف ، فيجتازونها سيراً على الاقدام . وفي المانيا قام طفل من كلونيا، اسمه نقولا ، فحشد ما يقرب من عشرين الف من هؤلاء الاطفال الصليبيين ، وذلك بما بذله من الوعود كالتي بذلها ستيفن، ثم قادهم الى ايطاليا . على ان تجار الرقيق تخطفوا جيش ستيفن ، وباعوا الاطفال في اسواق القاهرة . اما حملة نقولا فلم تترك وراءها من الآثار، سوى ما تردد صداه في اسطورة Pied Piper of Hamilin (٢)

---

(١) في سنة ١٢٠٨ ، قطع البابا انوسنت الثالث من الكنيسة ، امير تولوز ، ريموند الرابع بسبب ما حدث من مصرع المندوب البابوي الذي حاول قمع الحركة المانوية ، في بلاده وجعل الوسلت للكاثوليك الحق في ان يحتلوا املاكه وحراستها وبذلك بدأت اول حركة صليبية ضد الهراطقة . واعلن ريموند خضوعه فوراً للبابا ، غير ان الحركة الصليبية ظلت مستمرة، وذلك لان طبقة البارونات على اختلاف طبقاتهم بشمال فرنسا ووسطها ، اتموا استعدادهم الحربي ، وعزموا على ان يستولوا على الاراضي الخصيبة في جنوب فرنسا . وعلى هذا النحو استغل البارونات ، الحريصون على امتلاك الاراضي، الحرب الصليبية البيجنسية مثلما ادت الاغراض السياسية والتجارية الى استغلال الحملة الصليبية الرابعة . وفي كلتا الحملتين رضي انوسنت كارهاً بما ترتب على الاغراض الدنيوية من نتائج اسامت الى حملة روحية . على ان الحرب الصليبية البيجنسية تدخل في نطاق تاريخ فرنسا . غير انه من الملحوظ هنا ان النتيجة النهائية التي ترتبت عليها، ما حدث من استيلاء الملكية في شمال فرنسا على ما في جنوب فرنسا من الاراضي الخصيبة، وزوال ما امتازت به من المدنية . انظر ما سبق .

(٢) انظر (Runciman op. cit. III. pp. 138 - 144).
Munro : the Children's Crusade (American Histlrical Reivrenr Vol. XIX)

غير ان هذه الفورات ، التي انطوت على عامل اصلاحي ، والتي صحبت دائماً الحروب الصليبية ، لم تكن مجردة من مغزى ، اذ كتب انوسنت: « اخجلنا هؤلاء الاطفال الصغار ، فبينما نغط في نومنا ، ساروا مبتهجين لفتح الاراضي المقدسة » . وفي مجمع اللاتران الذي انعقد سنة ١٢١٥ ، سنحت الفرصة لانوسنت ليزيد من اضطرام النيران بعد ان اخذت في الذبول اذ اعلن [١] في هذا المجمع المحتشد من جميع المسيحيين باوربا ، تجهيز حملة صليبية [٢] ، تمضي في طريقها في سنة ١٢١٧ ، وتقرر فيما جرى من المناقشات العامة ، ان تستمر هدنة الله في السنوات الاربع القادمة ، وان تتوقف اثناء هذه الفترة كل ما يجري من تجارة مع الشرق الادنى . وهنا جرت محاولة للقيام بأمرين – والواقع انها لم تكن المحاولة الاولى لكل منهما[٣]، اعتبرهما مؤرخو الحروب الصليبية في القرن الرابع عشر ، من الشروط اللازمة لنجاح الصليبيين : ذلك انه لا بد من حدوث سلام في اوربا ، ولا بد من اشعال الحرب التجارية مع مصر .

هذه البداية الدبلوماسية لحملة صليبية ، جرى التبشير بها ، على صورة لم يسبق لها مثيل ، في مجمع عام لكل اوربا ، تعتبر بداية حسنة توقعوا معها ما سوف تحرزه من نجاح. ففي المانيا، (حيث اتخذ الصليب في نفس السنة فردريك الثاني) اجتمع حشد كبير من الصليبيين ، اذ سار من جنوب شرق اوربا دول استريا وملك المجر الى الارض المقدسة .

---

(١) انظر ما جاء عن هذا المجمع في كتاب وثائق العصور الوسطى .

(٢) انظر Runciman : op. cit. III , pp. 144 - 142

(٣) تقرر في مجمع اللاتران الذي انعقد سنة ١١٧٩ منع المتاجرة في المواد الحربية مع المسلمين وتجدد هذا القرار في اوائل بابوية انوسنت الثالث .

وفي سنة ١٢١٨ ، انضم الى الجيوش التي قدمت الى عكا في السنة السابقة ، جيش جاء من شمال غربي اوربا . وسبق ان اشار انوسنت الثالث في سنة ١٢١٥ الى مصر ، على انها الهدف ، الذي يتجه اليه الهجوم وتقرر تبعاً لذلك ، ان تقوم الحملة الصليبية بحصار دمياط الواقعة في شرق دلتا النيل (على الضفة الشرقية لفرع دمياط) . اما القائد الاصلي للحملة الصليبية فكان جان دي بريين ، ملك بيت المقدس ، (الذي خلف اماريك الثاني على الحكم ، بعد ان تزوج من ماريا ابنة ايزابيلا ، زوجة اماريك ، من زوجها السابق كونراد مونتفرات) ، غير ان الكاردينال بلاجيوس ، المندوب البابوي ، زعم لنفسه القيادة ، قبيل نهاية سنة ١٢١٨ بناء على ما حمله معه من رسائل بابوية . وعلى الرغم من المنازعات بين الكردينال والملك جان دي بريين ، وعلى الرغم من العروض التي تقدم بها الملك الكامل ، الذي خلف اباه العادل ، على الحكم في نهاية سنة ١٢١٨) ، فان الصليبيين استطاعوا في آخر سنة ١٢١٩ ، ان يحصلوا على نتيجة باهرة ، بما ألقوه من حصار على دمياط. ويعتبر استيلاؤهم على دمياط، من المفاخر التي احرزوها بالسلاح ، غير انه لم يتبع ذلك ، ما يدعو الى الاحتفاظ بما احرزوه من ميزة ، اذ قضى الصليبيون بدمياط ، طوال سنة ١٢٢١ ، لتوطيد مركزهم من جهة ، وفي انتظار قدوم فردريك الثاني من جهة اخرى ، لانه وعد بالقدوم في سنة ١٢٢١ . وفي سنة ١٢٢١ ، ظهر في المعسكر الصليبي امام دمياط كل من هرمان سالتزا Saltza ، مقدم الرهبان التيوتون ، ودوق بافاريا . ولما تبين للكاردينال بيلاجيوس ان لا فائدة من انتظار فردريك[1] الثاني اكثر مما حدث، امر بالمسير

---

(١) وعد فردريك الثاني البابا عند تتويجه سنة ١٢٢٠ ، بانه سوف يشرع في حملته الصليبية في اغسطس سنة ١٢٢١ . غير انه اعلن ان نفقات تتويجه استنفدت ما عنده من الاموال، ووافق البابا هونوريوس الثالث على ان يرجىء فردريك الحملة حتى مارس سنة ١٢٢٢ ، وما ارسله البابا =

نحو القاهرة ، على الرغم من معارضة الملك جان دي برين . وصـــل الجيش الصليبي الى حصن شيده السلطان الـكامل سنة ١٢١٩ (وهو الذي صار بعد سنة ١٢٢١ مدينة المنصورة)، فعسكر بهذه البقعة، في نهاية شهر يوليه : وهنا عرض السلطان الـكامل ، من جديد ، ما سبق ان عرضه مرات عديدة ، من شروط : التنازل عن معظم مملكة بيت المقدس ، وتسليم الصليب المقدس (الذي استولى عليه صلاح الدين سنة ١١٨٧) ، وإعادة جميـع الاسرى . وحض الملك جان دي برين ، على قبول هذه الشروط . غير ان المندوب البـــابوي ، اصر على الحصول ، الى جانب كل ذلك ، على تعويض كبير، وعندئذ فشلت المفاوضات، واستعد السلطان للقتال . وجرت مطاردة الصليبيين الى دمياط [1] . وفي آخر اغسطس سنة ١٢٢١، تحتم على بيلاجيوس ان يعقد معاهدة مع الملك الـكامل، وبمقتضاها يجري انسحاب الصليبيين ، ويتسلمون الصليب المقدس مقابل اعادة دمياط الى الملك الـكامل . وتقرر ان يكون أمد المعاهدة ثماني سنوات ، ولا يجوز نقضها ، الا عند قدوم ملك او امبراطور الى الشرق . ووفقـــاً لشروط المعاهدة، جلا الصليبيون عن مصر ، وانتهت بذلك الحملة الصليبية الخـــامسة .

= من كتاب الى الكاردينال بيلاجيوس بشأن هذا التأجيل، يجعل التاريخ ٢٠ يونيه، او من الراجح ان يتسلم هذا الكتاب بعد الرحيل من دمياط ، وكان الكاردينـــال اصدر الامر بالمسير ، حينما اصبح قدوم الإمبراطور ، حسب تفكيره ، امراً معروفاً – انظر :

Runciman : op. cit. III . pp. 166 - 167 .

(١) تقدم الصليبيون بعد الاستيلاء على دمياط نحو فارسكور في طريقهم الى القاهرة ، ثم استولوا على شرمساح في ٢٠ يوليه ، واخذ النيل في الارتفاع، بينما كانت الإمدادات من الشام في طريقها الى ارض المعركة ، واستطاع اخوة الـكامل ان يتخذوا لهم معسكراً ، يقع بين الصليبيين ودمياط ، ولما تبين لبلاجيوس ان الموقف خطير ، نظراً لوقوع الصليبيين بين القوات الاسلامية من الشمال والجنوب ، ولقلة الاقوات ، امر بالإرتداد ، فأمر السلطـــان الـكامل بفتح الجسور ، فغمرت المياه الاراضي التي تحتم على الصليبيين ان يجتازوها ، فخاضوا في الطين، يطاردهم الفرسان من الترك والمشاة من النوبيين . فحل اليأس بالصليبيين وارسلوا الى السلطان يطلبون الصلح .
(انظر التفاصيل في Runciman : op. cit. III, pp. 167-170

ومن العسير ان نقرر ايهما يقع عليه اللوم اكثر من الآخر ، المندوب البابوي، او الامبراطور، لما اصاب الحملة من الفشل . فلو ان فردريك قدم بنفسه ، لصار لحضوره كل الاهمية ، ولو ان بيلاجيوس لم يستمع الا للملك جان دي بريين، لوجد السلطان مستعداً لان يتنازل فعلا عن كل ما وقع عليه الاختلاف والنزاع . على ان فردريك آثر ، لسوء الحظ ، ان يلتفت الى تنظيم مملكته بصقلية ، وآثر المندوب البابوي ، ان يستمع للبنادقة ، الذين كان لديهم من الاسباب التجارية ، ما يدعوهم الى اقامة مركز متين لهم في مصر ، وان يستمع ايضاً الى الداوية والاسبتارية ، الذين لم يقنعوا ، فيما يبدو ، بما عرضه السلطان من شروط ، لان السلطان اراد ان يبقي بيده حصني الكرك والشوبك .

الفصل العاشر

الحملة الصليبية السادسة

١٢٢٨ — ١٢٢٩ م

احرزت الحملة الصليبية السادسة من النجاح قدر ما احرزته الحملة الخامسة من الفشل . غير ان الاحوال التي حدثت فيها ، والوسائل التي سارت بمقتضاهـا ، جعلت ما احرزته من النجاح يفوق في نكبته ، ما احرزته الحملة الخامسة سنة ١٢٢١ من الفشل . فالحملة الاخيرة (الخامسة) كانت قبل كل شيء خاضعة للاشراف البابوي . فاذا كان رتشرد الاول قاد الحملة الثالثة ، وحولت سياسة الهوهنشتاوفنيين والبنادقة الحملة الرابعة ، فان المندوب البابوي ، هو الذي قاد الحملة الخامسة الى مصيرها المحتوم . اما حملة فردريك الثاني في سنة ١٢٢٨ - ١٢٢٩ ، فانما يماثلها مشروع حملة هنري السادس ، ذلك لانها علمانية خالصة . غير ان هذه الحملة (حملة فردريك الثاني) ، تعتبر فريدة في ذاتها ، في حوليات الحروب الصليبية ، فهي ، من دون الحملات الصليبية ، (على الرغم من ان الحملة الصليبية الرابعة تشبهها من بعض الوجوه) ، التي لم تباركها البابوية ، بل صبت عليها لعنتها ، وهي الوحيدة بين الحملات الصليبية ، التي جرى توجيهها دون ان تقوم بأي عمل عدائي ضد المسلمين . قال القديس لويس ذات مرة ، وهو يعتبر النموذج الخالص للصليبي المتدين ، « ما كان للعلماني ان يجادل الزنديق في الشريعة

المسيحية الا بأن يجري سيفه [1] فيه » . تحدث فردريك الثاني الى غير المؤمنين بالمسيحية في شيء من المودة والصفاء ، وحقق ، على حد ما تروي التواريخ العربية بما اجراه من المفاوضات ، استعادة بيت المقدس، التي فشل الناس في تحقيقها بحد السيف ، مدة اربعين سنة ، منذ سنة ١١٨٧ .

ففي سنة ١٢١٥ ، اقسم فردريك ، قائد هذه الحملة الصليبية الغريبة ، على ان يقوم بها ، غير انه لم يحاول ان يبر بيمينه الا متأخراً ، بعد مضي اثنتي عشرة سنة . ذلك انه صار يعتذر للبابا ، مرة بعد مرة ، وصار البابا يقبل عذره ، بأن ما اغل يده سوى الحاجة الماسة التي اقتضتها سياسته في المانيا او صقلية . وبعد ان اصاب الحملة الصليبية الخامسة من الفشل ، الذي تعتبر تسويفات فردريك الثاني مسئولة عنه الى حد ما، حاول البابا هونوريوس الثالث، ان يزيد في توطيد صلة فردريك بالارض المقدسة ، فرتب زواج فردريك من ايزابيلا ابنة جان دي برين ، ووريثة مملكة بيت المقدس . وفي سنة ١٢٢٥ ، تزوج فردريك من ايزابيلا ، وأعقب الزواج بأن اتخذ لقب ملك بيت المقدس، باعتباره من حقوق زوجته ، واخذ يمين الولاء من امراء الاقطاع بالمملكة [2] .

وترتب على ذلك ، ان بدأ فردريك حملته باعتباره ملك بيت المقـــدس في

---

(١) انظر Joinirlle : Ch. X

(٢) لم يتول جان دي برين الحكم في مملكة بيت المقدس، الا على انه من حقوق زوجته ماري. فلما ماتت سنة ١٢١٢ ، لم يكن جان دي برين يحكم الا بفضل «دماثة الملكة» ، فاذا تم زواج ابنته ايزابيلا، صار من حق الزوج ان يتولى العرش ولم يعد لجان دي برين حق في ولاية الحكم، فلما ادرك حرج مركزه ، وان جند فردريك جردوه حتى من الاموال التي وهبها الملك فيليب لبيت المقدس ، لجأ الى ساحة البابا ، غير انه لم يستطع ان يرده الى حكم بيت المقدس . انظر : Runciman : op. cit. III, pp. 176-177 .

خريف سنة ١٢٢٧ ، غير انه ما كاد يبحر من برنديزي ، حتى خر مريضاً ، نتيجة حمى تفشت فترة من الزمن في صفوف الجيش، اثناء انتظارهم لعبور البحر، فعاد فردريك الى اوترانتو، كيما يسترد صحته. غير ان البابا الجديد، جريجوري التاسع ، اصدر ضده ، في سورة غضب ، قرار الحرمان ، معتقداً بأن فردريك انما يعمد مرة اخرى الى الكذب والبهتان . ومع ذلك ، فان ابحر الامبراطور بحملته الصليبية في صيف سنة ١٢٢٨ ، فعرض بذلك على اوربا ، التي استبدت بها الدهشة، صورة محارب قطعته الكنيسة، خلف وراءه املاكه، التي تعرضت لغزو جند البابا، الذين اعلن البابا جريجوري التاسع ، اعتبارهم محاربين صليبيين، يقاتلون ملكاً غير مسيحي ، ومن اجل ذلـــك ، جبى ضريبة العشر من سائر كنائس اوربا . والواقع ان ما اشتهرت به حملة فردريك من التناقض ، كان موضع الدهشة : اذ اننا ازاء محارب صليبي ، تقرر اعلان الحرب الصليبية على املاكه. فلما وصل فردريك الى الارض المقدسة، لم يجد من غير اتباعه المباشرين الا حظاً ضئيلا من الطاعة ، وقدراً كبيراً من الاهانة . ومع ذلك استطـــاع فردريك ، بفضل مهارته وحذقه في استخدام مواهبه في الدبلوماسية ، والافادة من المنازعات التي وقعت بين الملك الكامل ايوب وبين منافسيه في الشام ، ان يعقد دون ان تجري ضربة واحدة، معاهدة مع سلطان مصر، الـكامل ايوب، اعطته كل ما حاول رتشرد الاول عبثاً ، ان يحصل عليه بما انشبه من قتال مرير ومفاوضات طويلة . وبمقتضى المعاهدة المعقودة في ١٨ فبراير سنة ١٢٢٩ ، بين الـكامل ايوب وفردريك الثاني ، والتي تقرر ان يكون امدها عشر سنوات ، منح السلطان الـكامل، الامبراطور فردريك، الى جانب ما في حوزة المسيحيين فعلاً من المدن الساحلية ، الناصرة ، وبيت لحم ، وبيت المقدس ، وطريقاً يصل بين بيت المقدس وميناء عكا [١] . ولما اصبح في استطاعة فردريك ، باعتبـاره

(١) لم تلق معاهدة من المعاهدات مثلما لقيت معاهدة الـكامل مع فردريك من الاجماع على =

ملكاً على بيت المقدس ، ان يدخل عاصمته ، تحتم عليه ، باعتباره مقطوعاً من الكنيسة ، ان يشهد ما نزل بالمدينة من الحرمان ، فكان لزاماً عليه ان يتناول بيديه ، لانه ليس في استطاعة احد من رجال الكنيسة ان يقوم بهـــذه المهمة ، التاج من مذبح كنيسة القيامة ، وان يتوج نفسه ملكاً على المملكة الجديـــدة . ومكث فردريك الثاني بالارض المقدسة ، بعد تتويجه ، مدة لا تزيد كثيراً على شهر . ولم يكد يغادر الارض المقدسة في مايو ، ويصل الى ايطاليـــا حتى قهر جيوش البابوية ، واستطاع ان يحصل من البابا جريجوري التاسع ، في اغسطس سنة ١٢٢٩ ، على الابراء والتحلل . وبفضل المعاهدة التي عقدهـــا فردريك مع السلطان ، كفل للمسيحية الفترة الاخيرة ، التي امتلكت فيهـــا بيت المقدس ، ومدتها خمس عشرة سنة (١٢٢٩ ــ ١٢٤٤) . فلم يحدث ، منذ فردريك الثاني ، ان اعاد احد للمسيحية الاماكن المقدسة ، التي تعتبر اعظم مقدساتها [١] . ومع

= استنكارها من الجانبين. اذ ارتاع العالم الاسلامي لما جرى من عقدها ، فأعلن الناصر داود صاحب دمشق الحداد لما حصل من خيانة للمسلمين ، وتعرض الكامل للوم والتأنيب ، حتى من أئمـــة مساجده. ومن الاعذار التي ذكرها الكامل انه لم يتنازل للمسيحيين الا عن بيوت وكنائس مخربة ، بينما ابقى للمسلمين مشاهد اوليائهم سليمة ، وان المسلمين لا زالوا سادة الاقليم ، غير ان هذه الاعذار لم تجد نفعاً ازاء السخط العام . اما المسيحيون فانهم ادركوا اهمية الموقف من الناحية الحربية . وما نعاه المتشددون منهم ، انه لم يجر استرداد بيت المقدس بحد السيف ، وانكروا ما تقرر من احتفاظ المسلمين بزاراتهم . وذكر المسيحيون ما حدث من المفاوضات في الحملة الخامسة ، وما اشار اليه رجال الحرب برفض استرداد بيت المقدس الا مصحوباً بالاستيلاء على شرق الاردن . فكيف يقبلون استرجاع بيت المقدس ، التي لم يصلها بعكا الا طريق ضيق . ولم يقترح احد رفع قرار الحرمان عن ذلك الملك (فردريك الثاني) الذي ادى هذه الخدمات الجليلة للعالم المسيحي ، (انظر Runciman : op. cit. vol. III . pp. 187-188) .

(١) اعتبر المؤلف استيلاء اللنبي على بيت المقدس سنة ١٩١٧ وانتزاعها من يد الترك ، من قبيل اعمال فردريك الثاني .

ذلك يصح ان نتساءل ، حقاً وعدلا ، عما اذا كانت الوسائل التي استخدمها فردريك الثاني ، يبررها ما حققه من اغراض .

وكيفما كان الامر . لم تتخذ الحملة السادسة صفة الحرب المقدسة ، انما الذي حدث فعلا ، هو نوع من المساومة الحقيرة ، مثلما يجري عادة في اي سوق من اسواق الشرق، بين ملك صقلية المشهور بحريته الفكرية وميله نحو الشرق، وبين سلطان مصر. والواقع ان فردريك انما تصرف بروح ملك صقلية، لا بروح ملك بيت المقدس ، وهو ما كان لا بد ان يقوم به . فمن اسلافه الصقليين ، الذين عقدوا معاهدات تجارية مع مصر، تعلم فردريك ان يجعل من الحرب، وان كانت صليبية، مسألة معاهدة . فعلى الرغم من ان الفرع النرماني الذي انحدر منه ملوك صقلية كاد يختفي ، فان سياسته بقيت من بعدهم ، عند من خلفهم من ملوك اسرة هوهنشتاوفن، تلك السياسة التي اسهمت في تحول الحملة الرابعة الى القسطنطينية، هدف النرمان من قديم الزمن، والتي امعنت في ان تجعل للحملة السادسة مظهرها الدنيوي والدبلوماسي ، المجرد من الدين .

وما وقع من نضال استمر اربعين سنة ، لم يؤد آخر الامر ، الا الى ما حدث من امتلاك بيت المقدس لمدة خمس عشرة سنة . وفي اثناء هذه السنوات الخمس عشرة ، تعرضت مملكة بيت المقدس للقلق والاضطراب ، بسبب ما حدث من نضال بين البارونات المحليين الذين يؤيدون مبدأ ان السيادة انما تستقر في طبقة البارونات، ويستندون في موقفهم الى قوانين المملكة، وبين فردريك الثاني الذي يزعم لنفسه السيادة ، ويعارض قوانين مملكة بيت المقدس ، بالقانون الاقطاعي السائد في صقلية . وهذا النضال لم يكن الا نضالا بين الملك والمحكمة العليا ، او نضالا بين ما عند الفرنجة من اقطاع ارستقراطي ، وما عند النرمان من اقطاع ملكي ، وحدث في قبرص ، في صيف سنة ١٢٢٨ ، ان حرص فردريك الثاني

فعلا على ان يكون له حق القوامة باعتباره سيداً للجزيرة[(١)] اذ عين لجنة مؤلفة من خمسة بارونات لمباشرة حقوقه ، غير ان هذه اللجنة قوضهـــا في سنة ١٢٢٩ حنا ابلين امير بيروت، وهو الذي اتخذت اللجنة ضده بعض الاجراءات، اذ ان امير بيروت يعتبر من بارونات مملكة بيت المقدس، شأنه في ذلك شأن عـــدد كبير من من بارونات قبرص . فما يحدث من مقاومة في احدى المملكتين سوف يثير المتاعب في المملكة الاخرى . ولم تلبث ان ثارت المشاكل ، حـــين ارسل فردريك في سنة ١٢٣١ الىالشام المارشال ريتشارد فيلانجييري (Filangieri)[(٢)] ليكون مندوباً له بها . ويعتبر هذا العمل في حد ذاته امراً خطيراً ، اذ انه وفقاً لقوانين مملكة بيت المقدس ، رأى البارونات انه يتحتم على الملـــك ان يقيم في عاصمة ملكه ، فاذا تغيب جعل مكانه نائباً عنه . وتعقد الموقف ، حين اتخـــذ نائب فردريك التدابير ضد حنا ابلين ، دون ان يحصل من المحكمة العليا على ما يجيز له ذلك . فتألفت في عكا ، طائفة اشتهرت باسم طائفة القديس ادريان ، لم تلبث ، برغم انها ترجع الى اصل ديني ، ان اضحت تمثل المعارضة السيـــاسية لفريدريك ، كما يدل على ذلك ، قبولها عضوية الثـــائر حنا ابلين امير بيروت

---

(١) اعلن امالريك الاول ولاءه وتبعيته لهنري السادس، وتلقى منه اللقب الملكي سنة ١١٩٥ (انظر Barker , p. 81 note 1) .

(٢) المارشال من كبار القادة العسكريين بمملكة بيت المقدس، ويلي في الرتبة الكندسطبل ويدين له بالطاعة ، بعد ان يحلف يمين الولاء للملك والسادة الذين يحصل منهم على اقطاعات. وينظر المارشال في امور الجند المأجورة ، ويتلقى منهم يمين الولاء ، ويفصل فيما يقع بينهم من خصومات ومنازعات ، وهو مسئول عن جميع ما يقع في ايدي الجند من خيول الاعداء اثناء القتال ، اذ يفيد منها في تعويض ما هلك او اصيب من خيل الجند في المعركة ، ويطلق هذا اللفظ بأوربا على ناظر اسطبلات الملك . انظر :

La Monte : Fendal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem p. 138.

سنة ١٢٣٢ .

واحرزت المعارضة نجاحاً باهراً ، ففي سنة ١٢٣٢ ، فقد فردريك كل ما له من سيطرة على قبرص ، ولم يحتفظ من مدن مملكته في بيت المقدس ، الا بمدينة صور. ففي سنة ١٢٣٦ ، لم يجد بدأ من ان يعد بالاعتراف التام بقوانين المملكة ، وما كاد يجري سنة ١٢٣٩ ، قطعه من الكنيسة مرة اخرى على يد البابا جريجوري التاسع ، وينشب من جديد النزاع بين البابوية والامبراطورية ، حتى فقد البقية الباقية من سلطته . على ان حزب فردريك ، نجح في الاحتفاظ بمدينة صور ، حتى سنة ١٢٤٣ . وما طلبه البارونات ، من فرض الوصاية ، لم يتم تحقيقه ، غير انه حدث في تلك السنة ، ان نجحت المعارضة ، التي تزعمتها اسرة ابلين الكبيرة ، وتحت ستار اقرار حقوق أليس ملكة قبرص في الوصاية ، في امتلاك صور ، وبذلك امست مملكة بيت المقدس في قبضة البارونات [1] . غير

---

(١) على الرغم مما اشتهر به فردريك من الذكاء، والقدرة على ادراك العقلية الإسلامية والوقوف على مهارتهم السياسية ، فانه لم يستطع ان يدرك طبيعة الفرنج النازلين بالشرق الادنى . فما ورثه عن اسلافه النرمان من الصفات والتجارب ، وما اشتهر به من مزاج خاص ، فضلا عن فكرته عن الامبراطورية ، كل ذلك جعله يحرص على اقامة اوتوقراطية مركزية . لم يستطع ان يحقق ذلك في اوربا الا في املاكه الايطالية ، وربما استطاع تحقيق ذلك ، لو انه اختار وسيلة طيبة. غير انه فشل في تحقيق ذلك في مملكة بيت المقدس، التي لم تكن سوى مجموعة من المدن والقلاع، لم يربطها سوي خط دفاع قوي ، فمن العسير ان تقوم بها حكومة مركزية. ولا بد للحكومة اذن ان تثق عن طريق ممثلها او زعيمها ، بالسلطات المحلية ، التي تتمثل في البارونات وطوائف الرهبان. فلجأ فردريك الى إبعاد البارونات بأن تجاهل امتيازاتهم وحقوقهم. ولم يخلف فردريك وراءه الا الحرب الاهلية في قبرص ومملكة بيت المقدس . انظر : Runciman: op. cit. vol. III pp. 192-195

ولما قرر مندوب الامبراطور مصادرة املاك اسرة ابلين ، اعلن البارونات احتجاجهم واعلنوا مخالفة ذلك القرار للقوانين، فلم يحفل بهم وتشرد مندوب الامبراطور، فانحاز البارونات الى جانب =

انه حدث في السنة التالية (١٢٤٤ م) ، ان ضاعت بيت المقدس نهائياً والى الابد ، من يد المسيحيين . ويعتبر ضياعها نتيجة طبيعية لهذه المنازعـــات . فالمعاهدة التي عقدها فردريك مع السلطـــان الكامل (المتوفي سنة ١٢٣٨) ، انتهى اجلها . وترتب على ذلك ان اصبحت الارض المقدسة في حاجة ماسة الى مساعدة جديدة وتدابير جديدة . والمعروف ان ثيوبالد امير شامبانيــا اعلن اشتراكه في الحرب الصليبية ، واتخذ الصليب منذ زمن مبكر ، يرجع الى سنة ١٢٣٠ ، وفي سنة ١٢٣٩ ابحر ثيوبالد الى عكا ، عـــلى الرغم من قرار الحظر الذي اصدره البابا ، بعد ان وقع في شجار مع فردريك الثاني ، والذي يقضي بمنع كل مساعدة عن بيت المقدس ذاتها ، طالما بقيت في يد عدوه . وفي سنـــة ١٢٤٠ – ١٢٤١ ، سار في إثر ثيوبالد ، امير كرنوال رتشرد ، شقيـــق هنري الثالث ، الذي تحتم عليه ، مثل سلفه ، ان يبحر في الوقت الذي صدر فيه الحظر البابوي ، غير انه لم يترتب على ذلك من النتائج الدائمة ، سوى اعادة بنـــاء استحكامات عسقلان . ومع ذلك فان ما ارتكباه من الحماقة ادى الى ان يفقد الفرنج بيت المقدس سنة ١٢٤٤ . ذلك انهما ، ثيوبالد ورتشرد ، قبلا ان يتحالفا مع امير دمشق ضد سلطان مصر ، فلما وقعت الحرب بين امير دمشق وسلطان مصر ، عند غزة سنة ١٢٤٤ تخلى عنهما حلفاؤهما ، فأنزل بهما هزيمة ساحقـــة ،

= حنا ابلين . وانحاز الجنويون الى بيت ابلين في مهاجمة رتشرد، مقابل الحصول على امتيازات في قبرص. امتد القتال الى قبرص، وهرب مندوب فردريك الى ايطاليا ليروي له ما وقع من الحروب. عين فردريك نائباً آخر بدلا من رتشرد . توسط البابا في النزاع بين فردريك والبارونات، غير ان هذه الوساطة لم تنجح اذ اصر الامبراطور على محاكمة حنا ابلين ، رحل قومون عكا ، بينما اشتدت مقاومة البارونات لاستبداد فردريك . انظر : Ibid. pp. 196-204

بيبرس ، قائد القوات المصرية والسلطان المملوكي الذي تولى فيما بعد حكم مصر . اما بيت المقدس التي تعرضت في اوائل هذه السنة لنهب الخوارزمية وتخريبهم ، فأصبحت ثمرة هذا الانتصار ، كما سقطت عسقلان في سنة ١٢٤٧ [1] .

---

(١) انظر (Runciman : op. cit. Vol. III pp. 226-232)

الفصل الحادي عشر

حملات القديس لويس

واذ ترتب على ضياع بيت المقدس سنة ١١٨٧ ، نشوب الحرب الصليبية الثالثة ، ادى ضياعها ايضاً في سنة ١٢٤٤ الى قيام الحملة الصليبية السابعة . وما حدث من الدعوة للحملة الصليبية الخامسة في مجمع اللاتران الذي انعقد سنة ١٢١٥ ، جرى ايضاً ما يماثله من التبشير للحملة الصليبية السابعة في مجمع انعقد في ليون سنة ١٢٤٥. غير ان ما قام به البابا (انوسنت الرابع) في ليون من الدعوة لحرب صليبية كان امراً غريباً ، اذ انه من جهة ردد ما اتخذه مجمع اللاتران الرابع ، من قرارات بشأن ارسال حملة صليبية الى الارض المقدسة ، ودعا من جهة اخرى الى حرب صليبية ضد فردريك الثاني ، ووعد جميع الذين ينضمون اليها كل مزايا التحلل وغفرات الذنوب .

وبينما عمدت البابوية الى توجيه جهودها ، على النحو الذي سبق الاشارة اليه ، لتدمير الحروب الصليبية بمعناها الاصلي (الديني) ، وآثرت ان تستخدم لتحقيق اغراضها السياسية كل ما هو مقصود لاستعادة بيت المقدس ، فان رجلا من العلمانيين اهتم بما لم يهتم به غيره من العلمانيين ، واظهر في ذلك من الحماس الديني مثلما يظهره بابا من البابوات . ومن المتناقضات الكبيرة ، انه في الوقت الذي حان فيه دور البابوية لاستغلال اسم الحرب الصليبية لتحقيق اغراضها السياسية ، مثلما فعل من

قبل العلمانيون ، تحتم على العلمانيين ان ينهضوا لنصرة المعنى الروحي للحروب الصليبية ، ولو كان ذلك ضد البابوية [1].

حدث في نهاية السنة التي سقطت فيها بيت المقدس (١٢٤٤ م) ان وعد القديس لويس بالقيام بحملة صليبية ، وحاول بكل ما في وسعه من وسائل ان يكفل النصر لما اقترحه من توجيه حملة صليبية ، اذ سعى للتوسط بين البابا والامبراطور ، غير انه لم يحرز شيئاً من النجاح . ومن الدليل على ما هبط عليه من التقوى ، ان فاجأ رجال بلاطه ، بأن وزع عليهم يوم عيد الميلاد (١٢٤٧)، ثياباً خاط بها خفية الصليب ، وشرع القديس لويس في الرحيل في سنة ١٢٤٨ ، وبرفقته جماعة من اقرب الناس اليه ، منهم اخوته الثلاثة ، والسيد جوانفيل مؤرخ حياته ، وبعد ان امضى الشتاء في جزيرة قبرص وجه جيشه في ربيع سنة ١٢٤٩ لمهاجمة مصر ، لم يكن هذا الهدف متوقعاً عند [2] الصليبيين ، ولعل القديس لويس اختار مصر، لما وقف عليه من تعرض قوة السلطان الايوبي للتدمير على يد المماليك ، الذين قاموا في السنة التالية مباشرة، بعزل الاسرة الايوبية عن الحكم ، وهي الاسرة التي اضطلعت بحكم البلاد منذ سنة ١١٧١ ، ونصبوا واحداً

---

(١) قد يجري النقاش في ان شن الحرب الصليبية على ثائر مسيحي ، مثل فردريك الثاني ، لا يعتبر في غير موضعه ، وان لدى البابا من الاعتبارات الدينية ما جعله يقدم على ذلك . على ان الاجابة على ذلك هي ان من الرجال ، امثال القديس لويس، من رأى ان الحرب الصليبية كانت في غير موضعها ، وان ما حدث من مهاجمة فردريك لم يكن يرجع الى انه مسيحي متمرد او ثائر ، بل لانه اراد ان يوحد ايطاليا ، وانه عدو لاملاك الكنيسة (انظر Barker p. 38 note 1)

(٢) الواقع ان هذا الموضوع جرت اثارته في قبرص ، وتقرر بعد النقاش الطويل ان تكون مصر هدف الحملة ، لما اشتهرت به من الثروة والمناعة ، ولما يذكره الصليبيون من ان السلطان عرض ، اثناء الحملة الصليبية الخامسة ، التنازل عن بيت المقدس ذاتها ، مقابل جلاء الصليبيين عن دمياط . (انظر Runciman : op. cit. III p. 258)

منهم في الحكم ، سقطت دمياط دون قتال ، وشرع الصليبيون في السير نحو القاهرة ، مثلما فعل بيلاجيوس في سنة ١٢٢١ ، ثم توقف الجيش المغير ايضاً (الصليبيون) مثلما حدث في سنة ١٢٢١ ، عند المنصورة (ديسمبر سنة ١٢٤٩) وحدث ايضاً مثلما حدث سنة ١٢٢١ من اضطراره الى الارتداد ، ولم يلبث ان تحول الارتداد الى هزيمة منكرة ، ووقع القديس لويس اسيراً ، وجرى عقد معاهدة [١] ، تقرر فيها ان يقبل الجلاء عن دمياط ، وان يدفع ٨٠٠ الف قطعة ذهبية (دينار) ، وترتب على ذلك ان تم اطلاق سراح القديس لويس عند تسليم دمياط ، ودفع نصف ما هو مقرر من الفدية [٢] ، وفي منتصف مايو (١٢٥٠م) وصل الى عكا ، بعد ان انصرف عن مهاجمة مصر ، فمكث في الاراضي المقدسة السنوات الاربع التالية ، يسعى بكل ما يستطيع من جهد ، لتوطيد مملكة بيت المقدس ، غير انه لم يستطع ان يحقق شيئاً ، فما وقع من النضال بين الامبراطورية والبابوية اصاب اوربا بالشلل ، ولم يكن بفرنسا ذاتها الا عدد قليل من الفرسان كان مستعداً لتلبية ما ارسله القديس لويس ، من مقره بعكا الى وطنه ، من الاستغاثات طلباً للنجدة ، ولم يترتب على هذه الاستغاثات الا ما هو معروف بحملة الرعاة Pastoreane ، وهي التي اطلق عليها الاسقف ميلمان Milman اسم Religions Jacquerie . ولهذه الحملة بعض ما اتصفت به حملة الاطفال

---

(١) انظر ايضاً ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة - طبعة القاهرة جـ ٦ ص ٣٢٨ - ٣٣٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ - ٣٧٠

(٢) تم الاتفاق على ان يسلم الفرنسيس (القديس لويس) دمياط . وان يعطى هو والكندود ثمانمائة الف دينار ، عوضا عما كان بدمياط من الحواصل ، وان يطلقوا اسرى المسلمين ، فحلفوا على هذا . ثم جرى تقويم ما بقى في دمياط ، من الحواصل بأربعمائة الف دينار ، فدفع الملك اربعمائة الف دينار ، وتم اطلاق سراحه هو وجماعته (انظر ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ، ص ٣٦٩) . وانظر ايضاً Runciman op. cit. Vol. III. p. 271

من الخصائص ، اذ انها تماثلها في ان الذي شرع في تأليفها صبي من الرعاة ، وانه وعد ، مثلما فعل قائد الاطفال ، بأنه سوف يقود اتباعه ، فيجتاز بهم البحار التي سوف تجف مياهها عند اجتيازهم لها، بل اشارت الروايات الى ان هذا القائد الذي اتخذ لقب « سيد المجر » لم يكن سوى ستيفن قائد حملة الاطفال، غير ان ما اتسمت به هذه الحملة من شعور معاد للدين ، وما اتصف به الرعاة من سلوك مشين ، كان امراً جديداً ومنذراً بالشر [1] على ان الحكومة اثارها ما ارتكبته الحركة الجديدة من جرائم ، فعمدت الى قمعها دون هوادة او رحمة ، ولم ينهض احد لنصرة القديس لويس، وفي سنة ١٢٥٤ ، كان لزاماً عليه ان يعود الى فرنسا بعد ان جاءه نبأ وفاة امه بلانش .

اما الانهيار النهائي لمملكة بيت المقدس ، فانه تحدد فعلا في معركة غزة سنة ١٢٤٤ ، وما قام به المماليك من اقصاء الاسرة الايوبية عن الحكم . والمعروف ان الايوبيين اشتهروا دائماً بالفروسية والتسامح ، اذ ان صلاح الدين وخلفاءه امثال الملك العادل والملك الكامل، لم يظهروا تجاه المسيحيين شيئاً من العداوة المريرة. اما المماليك ، الذين يشبهون الينى شريه عند الاتراك العثمانيين ، فانهم اشتهروا بشدة صلابتهم وتعصبهم ، فبيبرس ، وهو اعظم هؤلاء المماليك، والذي تولى القيادة في معركة غزة سنة ١٢٤٤، وكان من قادة المماليك اثناء القتال ضد القديس لويس سنة ١٢٥٠ ، ثم اصبح فيما بعد ، سنة ١٢٦٠ ، سلطاناً ، يعتبر اصلب المماليك جميعاً واشدهم تعصباً . على ان المسيحيين استطاعوا ان يحتفظوا لانفسهم

---

(١) اعلن هؤلاء الرعاة سخطهم على البابا ورجال الدين ، ونذروا انفسهم لتخليص الملك المسيحي ووافقت الملكة الوصية على تصرفاتهم اول الامر ، غير ان ما لجأوا اليه من إثارة الفوضى والإضطراب ، ادى الى ضرورة اخذهم بالشدة ، والعمل على قمعهم . (انظر : (Runciman : op. cit. III p. 279

في سوريا بقاعدة استمرت اربعين سنة ، بعد رحيـــل القديس لويس، لا بسبب قوتهم، بل بفضل قوتين اوقفتا تقدم المماليك، وأولى هاتين القوتين كانت دمشق. اذ ان مملكة بيت المقدس افادت ، كما سبق ان رأينا ، منذ زمن مبكر ، يرجع الى سنة ١١٣٠ ، من التحالف مع دمشق ، حين ادى الخوف من اتابك الموصل ، الى حدوث التقارب بين الامارتين . فلمـــا استولى امير [1] الموصل على دمشق، وحدث العداء بين بيت نور الدين في دمشق ، وبيت صلاح الدين في مصر ، ادى كل ذلك الى الابقاء على مملكة بيت المقدس فترة من الزمن (وذلك منذ سنة ١١٧١). ثم قام صلاح الدين بتوحيد مصر ودمشق، غير ان المنازعات والحروب الداخلية، لم تلبث ان نشبت بعد وفاة صلاح الدين، بين دمشق والقاهرة. وسبق ان لاحظنا ان ما حدث من الحروب بين الملك الكامل ومنافسيه ، ساعد الى حد ما ، فيما احرزته الحملة الصليبية السادسة من نجاح ، وسبق ان تبينا ان معركة غزة سنة ١٢٤٤ ، لم تكن الا فصلا من فصول القصة الطويلة لما وقع من النضال بين مصر وشمال سوريا . فما حدث في مصر ، سنة ١٢٥٠ من ثورة انما ادت الى ان تنفصل دمشق عن مصر انفصالا لم يحدث مثله منذ سنة ١١٧١، فبينما تولى احد المماليك حكم مصر ، اختار امراء دمشق الملك الناصر (الايوبي) امير حلب سلطاناً .

غير ان من العوامل الجديدة واكثرها اهمية فيما وقع بالشرق الادنى من الامور، ما جرى من توسع امبراطورية المغول اثناء القرن الثالث عشر الميلادي ، وهي الامبراطورية التي اسسها جنكيزخان، في الربـــع الاول من ذلك القرن (الثالث عشر الميلادي) ، وامتدت من بكين شرقاً الى نهر الفرات ونهر الدنيبر غرباً . وثمة امران جعلا للمغول اهمية في تاريخ الاراضي المقدسة ومصير الحروب الصليبية . الامر الاول ، ما حدث من انفصال الجزء الجنـــوبي الغربي من الامبراطورية ،

---

(١) المقصود هنا نور الدين صاحب حلب .

ويشمل فارس وارمينيا ، وحكمه حوالي سنة ١٢٥٠ الخاقان هولاكو ، وصار حتما ان يرتبط هذا الجزء ، بطبيعة الحال بعلاقات عدائية مع الدول الاسلامية في الشام ومصر . اما الامر الثاني فهو ان المغول لم يكن منهم في القرن الثالث عشر، مثلما جرى الآن، عدد كبير من المسلمين. فالديانة الرسمية عندهم الشامانية، غير ان العنصر المغولي يضم عدداً كبيراً من المسيحيين ، الذين يعتبرون من ثمار البعثات التبشيرية النسطورية ، التي توجهت منذ زمن مبكر ، الى الشرق، وهذه الحقيقة الاخيرة بصفة خاصة ، هي التي جعلت غرب اوربا يحلم باقامة محالفة مع الخاقان الكبير « برسترجون » ، الذي ينبغي ان يسهم في استرداد بيت المقدس، وفي ان يتحول الى المسيحية جميع قادة اسيا وزعمائها .

وبذلك اتسعت دائرة الحروب الصليبية اواخر ايامها ، حتى غدت خطة شاملة لتغيير العالم وقتذاك (١) . فحوالي سنة ١٢٢٠ ، كان جيمس فيتري (٢)

---

(١) على الرغم من ان اوربا انغمرت في احلامها بمساعدة المغول لها، فان ما ترتب على اتساع الامبراطورية المغولية من نتائج ، لم يكن الا تحديا للشرق اللاتيني واثارت مهاجمات المغول النشاط من جديد عند سلاطين مصر. ولما كانت الشام ارض المعارك بين الفريقين (سلاطين مصر والمغول)، فان سقوط الامارات اللاتينية في الشام اصبح مقرراً، وصار من المحتم ان تقع في يد احد الفريقين المتنازعين . (انظر Barker p. 86 note 1)

(٢) وهو الذي جرى تعيينه اسقفاً لعكا سنة ١٢١٦ ، وتلقى من البابا هونوريوس الثالث ، من التعليمات ما يقضي باثارة اللاتين المقيمين بالشرق ، على انه وضع تقريراً عما شاهده من سوء احوالهم ، من حيث الكراهية الشديدة بين المسيحيين الوطنيين واللاتين، وايثار هؤلاء المسيحيين الحكم الاسلامي على الحكم اللاتيني وتضمن التقرير ايضاً ما ركن اليه اللاتين من حياة الدعة والترف والمباذل . ولم يكن رجال الدين بأفضل منهم خلقاً ، فاشتهروا بالفساد والتآمر والمطامع الدنيوية . واشار ايضاً الى النضال بين البنادقة والجنويين . واثر هذا العداء في صعوبة التعاون بينهم . يضاف الى ذلك انه شرح في تقريره بأن الفرنج في الشرق الادنى لا يرغبون في ارسال حملة صليبية جديدة ، لما ترتب على علاقات المسالمة بينهم وبين المسلمين من الرخاء والثروة ، وما حصل عليه التجار من امتيازات . (انظر Runciman : op. cit. III. 146.) .

James of Vitry يأمل في ان قوة من الصليبيين مؤلفة من اربعة آلاف فارس ، تستطيع بمساعدة المغول، ان تسترد بيت المقدس، غير انه لم تظهر اول علامة من علامات التحالف مع المغول ، الا في سنة ١٢٤٥ . ففي تلك السنة ارسل البابا انوسنت الرابع راهباً من الفرنسسكان هو Joannes de Piano Caprini الى المغول النازلين بجنوب روسيا، كما ارسل بعثة من المبشرين الدومنيكان الى فارس. وعلى الرغم من انه لم يترتب على هاتين البعثتين نتيجة من النتائج ، فان اوربا بدأت تتعرف ، عن طريق هاتين البعثتين ، الى داخل آسيا ، لان كابريني سيره المغول حتى بلغ قراقورم ، عاصمة الخاقان الكبير، والواقعة على تخوم الصين . وحدث ايضاً في سنة ١٢٥٢ ، ان ارسل القديس لويس (الذي شرع فعلاً في ١٢٤٨ — ١٢٤٩ ، في الدخول في مفاوضات مع المغول) ، الى بلاط الخاقان الكبير ، الراهب وليم روبروك [١] William of Rubruck ، غير انه لم ينجم ايضاً عن هذه السفارة، سوى ما يزيد في المعرفة الجغرافية . والراجح انه لم يحدث الا في سنة ١٢٦٠ ، من نتائج اعمال المغول ما اثر فعلا في سير الحروب الصليبية . ففي تلك السنة ، اغار هولاكو خاقان المغول بفارس ، على سوريا ، واستولى على دمشق ، وسار قائده كتبغا ، وهو مسيحي ، نحو الجنوب لمهاجمة المماليك في مصر ، غير انه حلت به هزيمة ساحقة [٢] على يد بيبرس (الذي صار في تلك

---

(١) انظر كتاب وثائق تاريخ العصور الوسطى . رحلة وليم روبروك ترجمها الى الانجليزية W. Rockhill بعنوان :

The Journey of William of Rubruck ta. the eastern part of the World (London1900)

(٢) هذه الهزيمة الساحقة جرت في وقعة عين جالوت، وتعتبر هذه الوقعة من الوقائع الحاسمة في التاريخ . اذ ان ما اصاب المماليك من انتصار انقذ العالم الاسلامي من اشد ما تعرض له من اخطار. ومن آثار هذه المعركة ان اضحت دولة المماليك اكبر هوة في الشرق الادنى حتى ظهور العثمانيين ، ومن اجل ذلك اعتنق المغول الدين الاسلامي ، وعجلت السلطنة المملوكية بالقضاء على ما تبقى من الامارات الصليبية . انظر (Runciman: op. cit. Vol. III. p. 313) .

السنة سلطاناً على مصر) . وسقطت دمشق في ايدي المماليك . وعلى الرغم من تدخل المغول، اتحدت دمشق والقاهرة مرة اخرى، مثلما اتحدتا زمن صلاح الدين، واتحدتا من جديد على يد احد المتحمسين من المسلمين ، الذي عزم على استئصال شأفة الصليبيين من سوريا .

وبينما كانت تلك الامور تجري من حول المسيحيين، عجل المسيحيون بمملكة بيت المقدس ، بانهيارهم ، فما وقع بينهم من المنازعات الداخلية شبيه بما حدث في الفترة السابقة من سنة ١١٨٧ . اذ انتقل الى الشرق الحرب بين الجويلفيين والجبليين[١]، فبينما طالب احد الحزبين، باقامة وصاية مثلما حدث في سنة ١٢٤٣، اعترض الحزب الآخر ، وطالب بالاعتراف بكنراد بن فردريك الثاني ملكاً على بيت المقدس . وحدث من جهة اخرى ، ان نشبت حرب تجارية بين البندقية وجنوه، اجتذبت الى نطاقها، سنة ١٢٥٧ ، كل ما في الشرق الادنى، من الثارات والعداوات المتباينة ، واذ لقي الجنويون الهزيمة في الحرب ، وانتقموا لما اصابهم من الهزيمة ، بعقد محالفة مع اسرة باليولوجوس ، ادت الى ان يفقد اللاتين سنة ١٢٦١ ، القسطنطينية ، كما ادت الى انهيار الامبراطورية اللاتينية ، بعد ان مضى ستون عاماً على قيامها، اشتهرت اثناء هذه الفترة، بالضعف والقلق والاضطراب. ولم تلبث جيوش بيبرس ، ان ركزت كل قوتها على هذه المملكة (بيت المقدس) التي انقسمت بهذه الصورة على نفسها، وتجردت من الحلفاء . فالسلطان الذي ارتقى من مجرد مملوك مغولي ، حتى اضحى صلاح الدين الثاني ، والذي جمع بين ما اشتهر به دانتي من الهيئة والجرأة، وبين ما اشتهر به فيليب الثاني من الصلابة والتدين ، صار يكيل للفرنج في الشرق الضربة تلو الضربة . ففي سنة ١٢٦٥ ، سقطت في يده قيصرية وارسوف ، وفي سنة ١٢٦٨ استولى على انطاكية ،

---

(١) انظر ما سبق .

فاختفت بذلك امارة بوهمند وتانكرد [1] . وفي السنوات التي تلت سقوط انطاكية، جرى في الغرب محاولات عديدة، لمواجهة زحف هذا الغازي الجديد. ففي سنة ١٢٦٩، تحول جيمس الفاتح ملك ارجون ، بناء على امر البابا ، من الحروب الصليبية الاسبانية طويلة الأمد ، الى القيام بحرب صليبية في الشرق ، كيما يكفر عما ارتكبه من انتهاك قانون الزواج . على ان ما صادفه من عاصفة ، اتخذ منها سبباً، للرجوع الى بلاده، مثلما فعل فردريك الثاني سنة ١٢٤٧ . وعلى الرغم من ان عساكره وصلوا الى عكا، فانهم لم يجرءوا على ان يتجاوزوا اسوارها، فبادروا بالعودة الى بلادهم في مستهل سنة ١٢٧٠ . واهم من ذلك ، ما قام به كل من شارل الانجوي ولويس التاسع من مشروعات ومحاولات ، يصح القول انها اتت على كل الحروب الصليبية ، فيما عدا ما حدث في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، من خواتيم متفرقة .

نجح شارل امير انجو في ان يقيم لنفسه مملكة في صقلية، نتيجة لما انشبته البابوية ضد اسرة هوهنشتاوفن ، من حرب صليبية استمرت زمناً طويلا ، منذ مجمع ليون حتى معركة تاجليا كوتشو Tagliacozzo (١٢٤٥ - ١٢٦٨) . ولما استولى شارل على مملكة فردريك الثاني وهنري السادس ، اتخذ ايضاً ما جرى عليه هذان الامبراطوران ، من سياسة ، وهي سياسة التوسع في الشرق ، وهي السياسة التي اتبعها من قبل الملوك النرمان . فهو من ناحية يرمي ، مثلما فعل هنري السادس من قبل ، الى الاستيلاء على القسطنطينية ، فحصل ، بمقتضى معاهدة فيتربو Viterbo المعقودة في سنة ١٢٦٧ ، من بلدوين الثاني آخر الاباطرة

---

(١) كانت الرها اول ما سقط من الامارات الصليبية الاربعة ، اذ زالت بين سنتي ١١٤٤، ١١٥٠ . وسقطت انطاكية في سنة ١٢٦٨ ، وهوت طرابلس سنة ١٢٨٩ . اما المملكة ذاتها فانها اختفت بسقوط عكا سنة ١٢٩١ .

اللاتين في الشرق ، على حق الوراثة في الحكم . وهو من ناحية اخرى يشبه فردريك الثاني في انه كان يهدف الى توحيد مملكة بيت المقدس مع مملكة صقلية، واستطاع بذلك ان يحصل على لقب ملك بيت المقدس . فعند وفاة كونرادين ابن فردريك الثاني ، جرى الاعتراف بهيو Hugh ملك قبرص في الشرق ، ملكاً على بيت المقدس (١٢٦٩ م) . غير ان دعواه لقيت معارضة شديدة من ماري صاحبة انطاكية ، وحفيدة امالريك الثاني ، والتي ابدت استعدادها لان تتنازل عن حقوقها في مملكة بيت المقدس الى شارل صاحب انجو، ولذا كان من الطبيعي ان تتلقى ماري منه المساعدة . غير ان سياسة شارل، التي مهدت بذلك الطريق الى حملة صليبية شبيهة بحملتي ١١٩٧، ١٢٠٢، قاومتها سياسة اخيه لويس التاسع. وفي سنة ١٢٦٧ ، اقسم القديس لويس مرة اخرى ، بأن يقوم بحملة صليبية ، وتأثر في ذلك بما جاءه من انباء فتوح بيبرس وانتصاراته . وعلى الرغم من ان البارونات الفرنسيين ، بما فيهم جوانفيل نفسه ، رفضوا ان يخصصوا القيادة ملكهم ، فان الامير ادوارد الانجليزي سار على نهجه . على ان لويس هداه تفكيره ، الى انه يجوز ان يتحول باي (امير) تونس الى المسيحية ، وبتلك الآمال ، عزم على ان يعد هذه الحرب الصليبية الثامنة والاخيرة، بحملة يوجهها الى تونس . اما شارل ، الذي لم يضارع حرصه على مهاجمة القسطنطينية سوى كراهيته لمهاجمة تونس، التي ارتبطت منذ زمن طويل بعلاقات تجارية مع صقلية، فانه جرى ارغامه على التخلي عن خططه ، والمشاركة في خطط اخيه [1]. على ان القديس لويس ما كاد يهبط ارض تونس ، حتى اصابه المرض ، ولم يلبث ان قضى نحبه في اغسطس سنة ١٢٧٠ وهو يتمتم « بيت المقدس . بيت المقدس » .

---

(١) الواقع ان الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجوس ، استنجد بالملك لويس التاسع ، ضد شارل امير انجو ، الذي شرع في سنة ١٢٧٠ في تجهيز قوات لمهاجمة القسطنطينية . (انظر Barker : p. 88 note 1) .

غير ان شارل الذي بادر بالظهور عقب وفاة اخيه مباشرة ، استطاع ان يقود حملة صليبية ، وان يحرز نجاحاً ملحوظاً . فبفضل ما ملكه من نهج فردريك الثاني، في مفاوضاته، وبفضل تصرفه على انه ملك صقلية ، لا محارب صليبي، لم ينتزع فحسب لنفسه وللملك فرنسا، من باي تونس، تعويضاً ضخماً، بل حصل ايضاً لخزانة صقلية ، على جزية ضخمة ، تقرر دفعها سنوياً، وبذلك ادت الحملة الصليبية الثامنة ، مثلما ادت الحملة الصليبية السادسة ، الى ما زاد في سخط عدد كبير من الصليبيين، ومنهم الامير ادوارد الانجليزي الذي لم يصل الا عند عقد المعاهدة ، ذلك ان ادوارد ، الذي لم يتيسر له من الفرص ، ما يجعله يشارك في الحملة الرئيسية، قاد حملة صليبية مستقلة، بعد ان امضى فصل الشتاء في صقلية، فوصل الى عكا في ربيع سنة ١٢٧١ . ومكث ادوارد بالاراضي المقدسة اكثر من سنة ، قام اثناءها من عكا ببعض المناوشات، واجرى مفاوضات مع المغول، غير انه لم يحصل على نتائج ثابتة ، فعاد الى بلاده في نهاية سنة ١٢٧٢ . ويعتبر ادوارد آخر محارب صليبي ، جاء من الغرب فكل المحاولات التي بذلها القديس لويس، وشارل امير انجو ، وجيمس ملك ارجونه ، والامير ادوارد الانجليزي، لم تسفر الا عن احتفاظ بيبرس بما احرزه من ممتلكات .

على انه جرى قبل طرد اللاتين نهائياً من سوريا ، مشروعــــات لحروب صليبية . ففي سنة ١٢٧٤ ، وفي مجمع ليون ، دعا البابا جريجوري العاشر الذي صحب الامير ادوارد الى الاراضي المقدسة ، الى تجريد حملة صليبية ، في اجتماع شهده رسل من قبل خان المغول ، ومن قبل ميخائيل باليولوجوس، امبراطور الدولة البيزنطية ، وكذا من قبل كثير من امراء الغرب. واقسم كل امراء غرب اوربا ، على ان يشتركوا في حرب صليبية ، ولم يحدث هذا فحسب ، بل ان جريجوري نجح ايضاً في ان يوحد الكنيستين الشرقية والغربية فترة من الزمن ،

وان يكفل للحملة الصليبية الجديدة المساعدة من الباليولوجيين ، الذين ارتاعوا وقتذاك من خطط شارل امير انجو . وعلى هذا النحو كانت بداية حملة صليبية بابوية ، تستند الى التحالف مع القسطنطينية ، وعلى هـــذا النحو اصاب خطط شارل امير انجو الفشل والخيبة . غير ان جريجوري العاشر هلك سنة ١٢٧٦ ، وبموته انطوت كل المشروعات . ولم يعد ثمة ما يدعو الى ان يتحد ملوك الغرب وامبراطور الشرق (الدولة البيزنطية) ، للقيام بحملة صليبية مشتركة . ومضى شارل قدماً في مشروعاته وخططه . ففي سنة ١٢٧٧ ، تنـــازلت له ماري ، صاحبة انطاكية عن كل حقوقها ، فأقام في عكا . وفي سنة ١٢٧٨ امتلك امارة اخايا Achaea . وبفضل ما توافر له من القواعد ، شرع في إعداد حملة صليبية جديدة ، يجري توجيهها اساساً لمهاجمة القسطنطينية (كالحملة التي اعدها هنري السادس سنة ١١٩٧ ، وكالحملة التي اقترحها سنة ١٢٧٠ م) غير ان خططه تعرضت مرة اخرى للفشل الذريع . على ان مذبحة صقلية Sicilian vespars وما اعقبها من تتويج بطرس ملك ارجون ، ملكاً على صقلية (سنة ١٢٨٢ م) ، سبب له من المتاعب والاضطرابات في بلاده ما شغله بقية ايام حيـــاته. هذه كانت آخر محاولة جدية ، جرت في الغرب للدعوة الى حرب صليبية لتخليص مملكة بيت المقدس ، وهي في دور الاحتضار ، وعجل فشلها بزوال المملكة نهائياً . اذ ان السلام الدائم لم يسد في الاراضي المقدسة الا منذ سنة ١٢٧٢ ، حين عقد بيبرس هدنة لمدة عشر سنوات . غير ان ما اصاب قوة شارل امير انجو من الانهيـــار الشديد ، هيأ لقلاوون ، الذي خلف ابن بيبرس على السلطنة المملوكية ، ان يتم ما بدأه هذا السلطان العظيم (بيبرس) من اعمال . ففي سنة ١٢٨٩ ، استولى قلاوون على طرابلس ، فاختفت بذلك كونتية طرابلس . وفي سنة ١٢٩٠ مات قلاوون ، بينما كان يعد العدة لحصار انطاكية ، التي استولى عليها ، بعد ان دافع

عنها الفرنج دفاعاً شديداً، ابنه وخليفته في الحـكم خليل، وذلك في سنة ١٢٩١. وبذلك زالت مملكة بيت المقدس ، وجلا الفرنج نهائياً عن سوريا ولم يتركوا وراءهم سوى خرائب قلاعهم لتكون ، حتى اليوم، شاهداً على ما اشعلوه من حروب صليبية ، وعلى مملكة شيدوها ثم اضاعوها .

الفصل الثاني عشر

طيف الحروب الصليبية

لم يؤد سقوط عكا الى اثارة دول اوربا ، للقيام بأي مجهود حربي جديد . اذ ان فرنسا ، التي تعتبر الموطن الطبيعي للحروب الصليبية ، بلغ من شدة انشغالها اولا بالحرب مع انجلترا ، ثم بالنضال ضد البابوية، انها لم تستطع توجيه جهودها نحو الشرق . غير ان الاحوال قضت بأن كل ما هو نظري انما ينمو ويترعرع ، كلما فشل من الاعمال ، فنظرية الامبراطورية الرومانية المقدسة ، لم تبلغ من القوة مثلما بلغته في ايام انهيارها ، وكذلك كان شأن الحروب الصليبية . اذ حدث ، لا سيما في الربع الاول من القرن الرابع عشر ، ان عكف الكتاب ، على شرح اسباب ما اصاب الحملات الصليبية السابقة من دواعي الفشل ، ورسم الخطوط التي ينبغي ان تسير عليها حملة صليبية جديدة . واعترف هؤلاء الكتاب بأن اسباباً عديدة اسهمت في فشل الحروب الصليبية ، وألقى بعض هؤلاء الكتاب باللائمة على البابوية .

والواقع ان البابوية اسهمت فيانهيار الحروب الصليبية، حينما جعلت مصالحها الخاصة تطغى على الصالح العام للمسيحية ، واتخذت من اسم الحرب الصليبية ومزاياها ، ما يعزز حربها السياسية مع بيت هوهنشتاوفن .

ووجد كتاب آخرون، ان امراء اوربا يعتبرون مسئولين عن انهيار الحروب

الصليبية وفشلها ، اذ انهم آثروا مصالحهم القومية والاسرية على الصالح العـــام للمسيحية. والواقع انهم فعلوا، كما سبق ملاحظته، اكثر من ذلك. اذ استخدموا اسم الحرب الصليبية منذ ايام هنري السادس ، ذريعة وسبباً لتحقيق ما لديهم من مطامع دنيوية . ولا شك انهم، بهذه الوسيلة اسهموا الى حد كبير في اخماد الحماس الديني القديم الذي اشتهرت به الحرب المقدسة .

وألقى كتاب آخرون اللوم ايضاً على ما اشتهرت به المدن الايطالية من الجشع التجاري ، اذ تساءلوا ، ولهم في ذلك ما يبرر سؤالهم ، ما الفائدة من الحروب الصليبية ، اذا كانت كل من البندقية وجنوه دمرت القواعد البحرية اللازمـــة لنجاحها، بما وقع بينهما من منازعات مريرة في الشرق الادنى (كما حدث في سنة ١٢٥٨) ، بل اسوأ من ذلك حينما دخلتا في معاهدات تجارية مع عدوهما المشترك الذي توجهت ضده الحملات الصليبية ، اذ حدث قبيل قيام الحملة الصليبية الخامسة ان عقدت البندقية معاهدة تجارية مع الملك الـكامل سلطان مصر. وحدث ايضاً قبيل سقوط عكا، ان قام الجنويون وملك ارجونه وملك صقلية ، بعقد معاهدات تجارية مربحة مع السلطان قلاوون .

وثمة سبب رابع عالجه كتاب عديدون ، لا سيما في الوقت الذي جرى فيه التفكير في القضاء على طائفة الداوية ، وهذا السبب يتمثل فيما وقع من النزاع بين طائفتي الداوية والاسبتارية، وما درجت عليه كلتا الطائفتين معاً، من اتخـــاذ سياسة تتسم بحب الذات والانانية ، لتحقيق مآربها الخاصة .

غير اننا نستطيـع آخر الامر ان نستخلص اسباب فشل الحروب الصليبية . فأيسر ما نقوله واصدقه ، هو ان الحروب الصليبية لم تفشل، انما جرى توقفها، ولم تتوقف الا لانها لم تعد ملائمة للازمنة والعصور ، فما اشتهرت به اوربا سنة

١٣٠٠ من صفة اخلاقية ، تختلف عما اتصفت به اوربا سنة ١١٠٠ ، فالحروب الصليبية ، التي تجسم فيها كل ما اتصفت به اوربا سنة ١١٠٠، من الروح الدينية والاستشهاد والتفكير في الحياة الآخرة ، صارت غريبة سنة ١٣٠٠ عند اوربا التي اشتهرت بالعلمانية والدنيوية ودراسة القانون والفلسفة . فلم يعد ثمة تفكير في الحرب المقدسة ، حينما سعى ادوارد الاول ، لاقامة مملكة متحدة في بريطانيا العظمى ، وحينما رسخت اقدام بيت هابسبرج في النمسا، واكثر من ذلك، حينما كان فيليب الجميل ومشروعه ، يرسون الملكية الفرنسية على اساس استبدادي . فلم يكن هؤلاء سوى رجال اعمال متعصبين لاعمالهم ، رجـــال لم يحرصوا على القيام بمغامرات من اجل المتعة، ولم يسعوا للحصول على الوعاء [1] المقدس. ولم يكن في استطاعة البابوات ، وقد وقعوا طوال سبعين سنة ، في الاسر البابلي[2] في افنيون ، ان يلتمسوا من برجهم الشرارة التي تستبعد الاغراض الدنيوية ، وتحولها الى عمل ضخم من اعمال التضحية .

ومن المعروف ان زوال نظام من الانظمة لا يتم الاعتراف به ، الا بعد زمن طويل . ولذا تحتم على الناس ان ينصرفوا الى ان يحاولوا من جديد ، ان يثيروا في الحياة الجديدة ما خمد من الجذوات. مثال ذلك ان بيير دبوا Pierre Dubois في رسالته المعروفة باسم استعادة الارض المقدسة De recuperatione Sanctae Terrae

---

(١) ورد في قصص العصور الوسطى ما يشير الى وجود وعاء يحوي صفات وقوى روحية ، ويهب من يشاهده او يحوزه مزايا خاصة – والوعاء يطابق الكأس التي استخدمهـــا المسيـح عند تناول العشاء الاخير . انظر Cross : op. cit. p. 579 .

(٢) يرجع الاصل التاريخي الى ما حدث من طرد اليهود من بيت المقدس الى بابـــل زمن بختنصر في سنتي ٥٩٧، ٥٨٦ ق. م. وجرى استخدام اللفظ هنا للدلالة على ما حدث من انتقال البابوات منذ ١٣٠٩ الى ١٣٧٧ ، الى افيليون بفرنسا – (انظر Cross: op. cit. p. 117)

التي وجهها الى ادوارد الاول ، ملك انجلترا ، في سنة ۱۳۰۷ ، اخذ يحض على عقد مجمع بأوربا لاقرار السلام ، ومنع المنازعات التي ساعدت ، مثلما حدث في سنة ١١٩٢ ، على فشل الحرب الصليبية التي سبق ذكرها. واقترن بهذا الدفاع العالمي (الجماعي) ، الدفاع عن تجربة الكنيسة من احباسها كما يتم وضع اساس لتمويل الحرب الصليبية القادمة . ومن الاقتراحات، ما عرضها رجال، اشتهروا بشدة معرفتهم بالشرق ، وتعتبر في اغراضها عظيمة الاهمية من الناحية العملية، غير انه لم تكن لها صفة سياسية . فقيام اسطول دولي ، يفرض الحصار البحري على مصر ، واجراء تحالف مع المغول ، واتحاد الطائفتين الدينيتين الكبيرتين ، الداوية والاسبتارية ، تلك هي الاسس الثلاثة الكبيرة لهذه المقترحات .

واذا كان ثمة شيء قليل قد جرى فعلا ، فانه لم ينجم الا عن محاولة القيام بتحقيق شيء مما يدخل في نطاق هذه المقترحات الثلاثة . اذ ان خطة قيـــام اسطول دولي بالضغط على المسلمين ، لم تؤد حتى اليوم الى نتيجة ايجابية، غير ان الاسبتارية الذين حصلوا على قاعدة باستيلائهم على جزيرة رودس في سنة ١٣١٠ ، استخدموا اسطولهم ، ليفرضوا على ساحل الشرق الادنى ، حصاراً جزئياً ، غير انه لم يكن مجدياً . اما ما جرى اقتراحه فعلا ، في مجمع ليون الذي انعقد في سنة ١٢٤٥ ، من اتحاد الطائفتين الدينيتين (الداوية والاسبتارية) ، فلم يتحقق الا اسمياً في مجمع فينا الذي انعقد سنة ١٣١١ ، غير ان هذا الاتحاد « المزعوم » لم يؤد في الواقع الا الى القضاء على الداوية ومصادرة مواردهم بسبب جشع فيليب الجميل . وظل التحالف مع المغول ، منذ البداية حتى النهـــاية، لغزاً محيراً ، واختفى آخر امل وهمي عندهم ، حين اعتنق المغول ، آخر الامر ، الاسلام، في نهاية القرن الرابـع عشر الميلادي .

على ان بعض مشروعات متفرقة ، ذات طابـع صليبي ، غير انها لم تبلغ من

الجدية ما يجعلها جديرة بذلك الاسم ، حدثت اثناء القرن الرابع عشر . ظل الملوك الفرنسيون يعتبرون، اسماً، محاربين صليبيين حتى بداية حرب المائة عام. اما المحارب الصليبي الوحيد ، الذي شن الحرب في فلسطين ، وحاول ان يزعزع قبضة المماليك من الاراضي المقدسة ، فكان بطرس الاول ملك قبرص ابتداء من سنة ١٣٥٩ حتى سنة ١٣٦٩. انشأ بطرس طائفة اطلق عليها اسم طائفة السيف، لتخليص الاراضي المقدسة، وبتحريض مستشاره دي مزيير De Mezières (الذي يعتبر من الكتاب النظريين المتأخرين الذين فكروا و كتبوا عن الحروب الصليبية)، حاول ان يبعث في انحاء غرب اوربا الروح الصليبية القديمة. على ان السفارة التي قام بها وبصحبته مستشاره لتحقيق هذا الغرض (١٣٦٢ - ١٣٦٥) ، لم ينجم عنها الا قدر كبير من الوعود او الاعذار من قبل الملوك، امثال ادوارد الثالث ، او الامبراطور شارل الرابع . وتحتم على بطرس ان يبدأ حربه الصليبية بمن استطاع ان يحشده من المتطوعين. وفي خريف سنة ١٣٦٥ قام بنهب الاسكندرية، وفي سنة ١٣٦٧، خرب ساحل سوريا، وانزل خسائر فادحة بالسلطنة المملوكية. غير انه حدث في سنة ١٣٦٩ ان لقي مصرعه غيلة . وبموته زالت آخر شخصية من شخصيات الحروب الصليبية ، التي كانت محور كثير من القصص، ولم يترك من بعده الا الذكر الحسن لمستشاره دي مزيير ، الذي ظل اربعين سنة اخرى ، يبشر في اوربا بالحرب الصليبية، يدعو - ما ظل يعتبر دائماً «الحلم القديم للحجاج» - الى انشاء طائفة جديدة من الفرسان سماهم « فرسان المسيح » لاستعادة بيت المقدس والدفاع عنها .

ويعتبر دي مزيير آخر من قام جدياً بالدعوة للحرب الصليبية ، على الصورة القديمة، كما ان بطرس الاول يعتبر آخر من حاول تحقيقها، بشن حرب هجومية

ضد مصر ، لاستخلاص كنيسة القيامة [1] . ومنذ سنة ١٣٥٠ ، اتخذت الحرب الصليبية مظهراً جديداً ، اذ اضحت حرباً دفاعية ، جرى توجيهها ضد الاتراك العثمانيين ، وهم قبيلة من الترك ، استقرت في داخل سلطنة قونية ، في نهاية القرن الثالث عشر ، اثناء ما صحب الغزو المغولي من اضطراب السكان وقلقهم . ومنذ عصر مبكر ، يرجع الى سنة ١٣٠٧ ، شرع الاتراك العثمانيون في الاستقرار في اوربا. وفي سنة ١٣٥٠ اعدوا جيشهم الخطير المعروف بالينى شريه. واستطاعوا في وقت واحد ان يهددوا ما تبقى من آثار الامبراطورية اللاتيلية القديمة في بلاد البلقان، وجزر بحر الارخيل، وبقايا الامبراطورية البيزنطية حول القسطنطيلية، وهددوا ايضاً الاسبتارية في جزيرة رودس ، وبيت لوزجنان في جزيرة قبرص . ومن الطبيعي ان يحرص البابوات على ان يحاولوا اقامة تحالف بين القوى المسيحية المختلفة التي تعرضت لخطر الترك ، واشتد حماس البندقية لتأييد جهود البابوات ، وذلك لحرصها على المحافظة على ممتلكاتها في بحر ايجه . وفي سنة ١٣٤٤ م تألفت حملة صليبية اشترك فيها البنادقة والقبارصة والاسبتارية ، ولم تؤد الا الى الاستيلاء على ازمير. وفي سنة ١٣٤٥ تألفت حملة صليبية قادها همبرت Humbert ولي عهد البندقية ، غير انها لم تلق الا الفشل الذريع . وواصل الترك زحفهم. ففي سنة ١٣٦٣ استولوا على Philippopolis، وفي سنة ١٣٦٥ دخلوا ادرنه، وتعرضت كل شبه جزيرة البلقان لاخطارهم ، بل ان المجر ذاتها تعرضت فيما يبدو لتهديدهم ، وحدث فعلا في سنة ١٣٦٥ ، ان سعى البابا إربان السادس الى ان

---

(١) على ان حلم توجيه حرب صليبية الى بيت المقدس ، ظل قائماً بعد دي مزيير . فكل مجتمع يطالع قصص الحروب الصليبية لا يسعه الا ان يهذي بهذا الحلم . فهنري الخامس ، الذي اشترك ابوه ، مع الفرسان الرهبان التيوتون في القتال ، على بحر البلطي ، كان يحلم بالرحيل الى بيت المقدس . (انظر Barker, p. 94, note 1)

يجمع ملك المجر وملك قبرص ، في حملة صليبية مشتركة ضد الترك ، غير انه لم يلحق الحملتين الصليبيتين البحريتين في سنتي ١٣٤٤، ١٣٤٥ بحملة صليبية برية الا في سنة ١٣٦٦ . اذ ان السلطان بايزيد الذي صارت له السيادة على الصرب وبلغاريا فضلا عن آسيا الصغرى ، اخذ يهدد وقتئذ القسطنطينية ذاتها . ولوقف تقدمه توجهت عن طريق وادي الدانوب الى البلقان ، حملة صليبية ، دعا اليها البابا بونيفاس التاسع ، وقادها حنا الشجاع ملك برجنديا ، وكان الفرسان الفرنسيون يؤلفون الجانب الاكبر منها . على ان الاخطاء السابقة ، التي تعتبر وصمة عند اتباع مزيير ، كانت دماراً للجيش الصليبي . وفي معركة نيكوبوليس سنة ١٣٦٩ ، حلت به هزيمة ساحقة ، وجرت المقادير بألا يوقف زحف بايزيد ، المحاربون الصليبيون في الغرب، انما اوقفه منافسه في الشرق تيمور (تيمور لنك) ملك اقليم ما وراء النهر، وفاتح اقليم جنوب روسيا وغازي الهند . واصاب الدولة العثمانية منذ معركة انقرة سنة ١٤٠٢ حتى زمن مراد الثاني سنة ١٤٢٢. غير انها نهضت الى ما كان لها من مجد قديم زمن مراد . ولمواجهة الخطر الجديد، جرت محاولة لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية . ومثلما حدث سنة ١٠٧٤ ، من حلم البابا جريجوري السابع لتحقيق هذا الاتحاد، على ان يعقبه هجوم مشترك من الشرق والغرب على السلاجقة حدثت ايضاً محاولة في سنة ١٤٣٩ ، في مجمع فلورنسه ، لاجراء اتحاد جديد بين الكنيستين الشرقية والغربية، كيما يواجه العالم المسيحي المتحد الخطر التركي الجديد [1] . والنتيجة الطبيعية لاتحاد

---

(١) ما اقره الباليولوجيون في مجمع ليون في سنة ١٢٧٤ م ، من الاتحاد ، لسحق خطط شارل امير انجو ، لم يكن الا امراً طارئاً . ويصح ان تضيف الى ذلك ، ان الخطر التركي ادى الى وضع خطط لتوحيد الكنيستين مثلما ادى الى المشروعات التي جرت لجمع الدول الاوربية في عصبة الامم فيما جرى من مشروعات لانشاء عصبة للامم ، والتي تكرر اجراؤها منذ بطرس ديبوا الى الكاردينال البيروني Alberoni ، وإيمانويل كانت، انما جرى الدفاع عنها، على اساس =

الكنيستين لم تكن الا حملة سنة ١٤٤٣ ، اذ قاد الكاردينال كايزريني Caesarini جيشاً مؤلفاً من اخلاط المغــــامرين، وانحاز به الى قوات فلاديسلاس Wladisles البولندي وهنيادي Huniadi الترانسلواني ، ونجحوا في ارغام مراد الثاني على ان يعقد في Sazegedin (سازجدين) هدنة لمدة عشر سنوات (في سنة ١٤٤٤) . غير ان المحاربين الصليبيين نقضوا الهدنة ، التي لم يرض بها مراد الا مكرهاً . ولما حاولوا ان يبالغوا في تحسين ما كان يعتبر صالحاً لهم، حلت بهم الهزيمة في فارنا. وعند هذا الحد انتهت الحروب الصليبية. فبعد تسع سنوات، اي في سنة ١٤٥٣ استولى على القسطنطينية محمد الفاتح الذي خلف مراد على حكم الدولة العثمانية . وحاول البابوات عبثاً ان يجهزوا حملة صليبية جديدة لاسترجاعها ، فالبابا بيوس الثاني ، الذي وعد بأنه سوف يشترك شخصياً في الحروب الصليبية ما كاد يصل الى انكونا في سنة ١٤٦٤، حتى تخلى عنه المحاربون الصليبيون، وقضى بها نحبه. ومع ذلك فما زال طيف الحروب الصليبية ماثلا ، فأضحت الحروب الصليبية تقليداً دبلوماسياً، تقرر اتخاذه لتبرير ما يلتمسه كل عمل سياسي حاد من الاعذار. على ان الحروب الصليبية ظلت باقية في اذهان الملاحين في صورة بالغة النبــــل والشرف. ذلك ان فاسكوداجاما، وكريستوف كولومبوس والبوكيوك وكثيرين من امثالهم، راودتهم الاحلام، في شيء من الاخلاص والايمان، بأنهم انما يعملون لتخليص الاراضي المقدسة ، واتخذوا الصليب على صدورهم [1] . ومن الروايات ما يشير الى ان خطة دون هنريك Don Henerique ، انما تمثل المحــــاولة الاخيرة

= ان الاتحاد ضد الترك انما هو من الامور المسيحية، (انظر : Termulen Der Gedanke der Internationalen Organisation) ، وتكرر في القرن التاسع عشر الميلادي، دعوة مؤتمر الدول للانعقاد من حين الى آخر ، لمعالجة مشاكل تركيا ، انظر : (Barker , 96 note 1)

(١) انظر : Bréhier : L'Eglise et L'Orient p. 347 .

للروح الصليبية، وان ما جرى توجيهه من الحملات الحربية ضد المسلمين، في بحار الهند والتي بلغت ذروتها بعد ان مضى على وفاة دون هنريك اربعين سنة، يصح اعتبارها الحرب الصليبية الاخيرة (١) .

(١) انظر : Cambridge Modern History vol. 1 p. 11

ومن الامور الجديرة بالملاحظة ان الروح الصليبية القديمة ظلت ماثلة زمناً طويلا في حركة روسيا ضد القسطنطينية . (انظر : Barker p. 96, note, 2)

الفصل الثالث عشر

نتائج الحروب الصليبية

يصح اعتبار ان الحروب الصليبية فشلت فشلاً ذريعاً في ناحية جوهرية اذ ان هذه الحروب لم تنته باحتلال مسيحيي الغرب للشرق ، بل انتهت باستيلاء الشرق الاسلامي على الغرب المسيحي . فالحروب الصليبية بدأت منذ ان استقر الترك السلاجقة في نيقية ، وانتهت بما حدث من اعتصام الترك العثمانيين بنهر الدانوب . فليس ثمة ما هو اكثر وضوحاً في التاريخ من انحسار المسيحية في الشرق بعد القرن الثالث عشر الميلادي . ففي القرن الثالث عشر ، كانت اوربا بأكملها مسيحية ، ولا زال ينتمي للمسيحية اليونانية جانب من آسيا الصغرى ، ولا زال بفلسطين مملكة مسيحية . على ان هذا لم يكن كل شيء ، اذ حدث في القرن الثالث عشر ايضاً ان بدأ نشاط تبشيري ضخم ، وهذا النشاط انما نجم عن الحروب الصليبية والاتصال بالمسلمين. وعلى الرغم من انه اسهم في وقف الحروب الصليبية ، فما قام به من غزو النفوس من الناحيتين السلمية والروحية ، يعتبر بديلا لما ترتب على الحرب ، ولو كانت مقدسة ، من اعمال العنف والمادية . بدأ البعثات التبشيرية في الشرق ، القديس فرانسيز St. Francis ، الذي زار سلطان مصر ، الكامل ايوب ، اثناء الحملة الصليبية الخامسة (سنة ١٢٢٠ م) ، وحاول

ان يجعله يعتنق المسيحية [1] . هذه البذرة الصغيرة نمت في اثناء مائة سنة حتى اضحت شجرة ضخمة، اذ ان مجالا كبيراً للعمل التبشيري، انفتح في الامبراطورية المغولية، حيث كان بها، كما سبق ذكره عدد كبير من المسيحيين. وفي سنة ١٣٥٠ بلغ من شدة استغلال هذا المجال، ان البعثات التبشيرية المسيحية، والاساقفة المسيحيين، استقرت في سائر الجهات، من فارس الى بكين، ومن نهر الدنيبر الى التبت ذاتها غير انه حدث رد فعل من قبل المسلمين، وذلك راجع الى حد كبير الى ما اشتهر به تيمور من حماس ديني، فأضاع من المسيحية وسط آسيا . ففي القرن الخامس انتصر الهلال على الصليب في كل مكان بأوربا وآسيا، وجرى تدمير الحرب الصليبية والبعثات التبشيرية معاً، سواء حل بينهما الوفاق او العداء.

على انه ينبغي ان ننظر الى الحروب الصليبية على انها فصل من فصول تاريخ المدنية في الغرب، لا على انها توسع وامتداد للسيطرة والديانة الغربية في الشرق. غير انه من العسير كتابة هذا الفصل، فبينما جاز من جهة للمؤرخ العبقري الفذ ان يرجع الى اثر الحروب الصليبية، كل ما جرى التفكير فيه، او القيام به فيما بين سنتي ١١٠٠ ، ١٣٠٠ ، فان المؤرخ الحذر يسعى للحصول على دليل من الوثائق لكل فرض من الفروض، قد لا يرجع الى اثر الحروب الصليبية امراً من الامور،

---

(١) بينما جرى النزاع بين الملك حنا بريين ، ملك بيت المقدس ، وبيلاجيوس ، مندوب البابا ، على قيادة الحملة الخامسه ، والخطط الحربية ، قدم الى معسكر الصليبيين بدمياط الراهب فرانسيز الاسيسي . جاء الى الشرق، وهو يعتقد انه في استطاعة سفارته ان تعقد الصلح، وتميد السلام . فطلب الى بيلاجيوس ان يسمح له بالتوجه الى السلطان ، فوافق بيلاجيوس، بعد شيء من التردد ، وبعث به الى فارسكور حيث عسكر الملك الكامل . وتشكك المسلمون في امره اول الامر ، غير انهم لم يلبثوا ان صحبوه الى الملك الكامل ، الذي اصغى الى دعوته ، غير انه لم يقبل ان يثير مسائل دينية ، ثم ارسله مكرماً الى المسيحيين . انظر :
Runciman : op. cit. vol. III. pp. 159 - 160 .

او يرجع اليها امراً شديد الضآلة (١) . وما حدث من انهيار النظام الاقطاعي ، ونمو المدن وتطور الحركة المدرسية ، انما ترجع كلها الى الحروب الصليبية ، على حين انها في الواقع لم تكن ناجمة عن الحروب الصليبية ، بل كانت مقترنة بها ومصاحبة لها . ومهما يكن من شيء ، فانها اذا كانت تعتبر من بعض النواحي ، من نتائج الحروب الصليبية ، تعتبر من نواحي كثيرة من نتائج امور اخرى . والخلاصة انه يصح التسليم بأن الحروب الصليبية اسهمت في تفكك النظام الاقطاعي ، بجعل الملكية حرة ، سهلة الانتقال ، وباضعاف قوة الالقاب ، وساعدت ايضاً على نمو المدن بما حدث من ازدياد حركة التجارة وضخامتهـــا ، وزادت في نمو الحركة المدرسية ، بما هيأته من اتصال الغرب بتفكير الشرق . على انه اذا التمسنـــا ما للحروب الصليبية من نتائج خاصة محدودة ، فلا بد ان نلتفت ايضاً الى نتائـــج اشد ضيقاً . واول هذه النتائج ان الحروب الصليبية ، انما تمثل محاولة للنظـــام الاقطاعي ، تقضي ، وفقاً لقانون جعل وراثة الحـكم لاكبر الابناء ، بالتخلص من الابناء الصغار . لم تكن هذه الحروب الا محاولات للتوسع الاقطاعي ، وطبقاً لذلك ادت الى ظهور عدد من المستعمرات : مملكة بيت المقدس ، مملكة قبرص ، الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ، وترتب عليها ايضـــا ظهور عدد من

(١) فالمؤلفون امثال Heerrn في بحثه المعروف باسم :
(Versuch einer Entcircklung der Folgen der Kreuzzuge) .
و Michaud في الجزء الاخير من كتابه عن تاريخ الحروب الصليبية ، وقعوا في الخطأ ، بأن ارجعوا كل شيء الى الحروب الصليبية . وبالغ Prutz في كتابه المعروف « Kniturgeschichte der Krenzzuge » في تقدير اثر الحروب الصليبية باعتبارها فصلاً في تاريخ الحضارة . فلم يكن منصفاً بما لجأ اليه من الحط من الحضارة الغربية اوائـــل العصور الوسطى ، وقد اشاد بروتز بالحضارة العربية ، وانتهى الى ان الحضارة الحديثة ليست الا وليدة الصليبيين ، الذين عملوا على التقاء الشرق بالغرب انظر : (Barker . p. 98 note 1) .

« الهيئات المشروعة » ، مثال ذلك الطوائف الدينية العسكرية الثلاث ، (الاسبتارية ، الداوية ، الفرسان التيوتون) ، التي على الرغم من انها بدأت على انها هيئات خيرية ، فانها تطورت الى هيئات حربية ، ثم تطورت مرة اخرى من هيئات حربية الى جماعات تجارية ، فامتلكت المصارف (البنوك) ، والاساطيل ، واراضي شاسعة .

والنتيجة الثانية ان الحروب الصليبية ، كما سبق ان لاحظنا ، تمثل ما بذلته التجارة الغربية من محاولات ، لان تكتشف ما يؤدي الى ثروة الشرق من طرق جديدة بالغة السهولة . وفي هذه الناحية ، ادت الحروب الصليبية الى نتائج مختلفة . اذ ادت من جهة الى اقامة مستودعات تجارية في الشرق – كالتي قامت في عكا ، ثم في فاماجستا (بقبرص) بعد سقوط عكا ، وتعتبر كلتاهما مركزين عظيمين لتجارة الشرق الادنى . ومن ناحية اخرى كان لزاماً على السلع التي تدفقت من الشرق الى البندقية وجنوى ، ان تلتمس طريقاً لانتشارها في سائر اوربا . هذا الطريق الرئيسي لم يكن سوى ذلك الطريق الذي امتد من البندقية مجتازاً ممر برنر ، واتخذ طريق الراين حتى مدينة بروج ، وهذا الطريق هو الذي اضحى الخط الطويل الذي يمثل نمو المدن ، فعلى امتداده في لومبارديا والمانيا والفلاندر ، نبتت ونشأت المدن الكبيرة في العصور الوسطى .

وترتب على هذه التجارة التي شقت طريقها الى اقصى الشرق ، وترتب ايضاً على البعثات التبشيرية في آسيا التي لم تكن الا مصاحبة للحروب الصليبية ، وتعتبر من آثارها ، ان ظهر في القرن الثالث عشر النتيجة الثالثة الكبيرة من نتائج الحروب الصليبية – وهي اكتشاف وسط آسيا ، وازدياد معرفتنا الجغرافية ، فاذا تذكرنا ان من المبشرين امثال بيانو كاربيني Piano Carpini ، ومن التجار

امثال آل بولو من البنادقة ، من استطاعوا إما ان يتوغلوا في آسيا بالسير براً من عكا الى بكين، او ان يطوفوا بحراً بجنوب آسيا من البصرة الى كانتون، لادركنا ان ما جرى حوالي سنة ١٣٠٠ من اكتشاف آسيا يضارع في جدته وروعته ما حدث بعد قرنين من الزمان ، من اكتشاف امريكا على يد كولومبس . وفي الوقت ذاته ، ما كان معروفاً لنا من قبل ، من الاجزاء القريبة منا من آسيا ، ازدادت معرفتنا المباشرة بها . اذ انه سبق ان لحظنا كيف تجمعت المعلومات العسكرية عن الطرق المؤدية الى مصر . غير ان اهم من ذلك ما كان معروفاً من كتب الارشاد التي جرت كتابة جانب كبير منها ، لارشاد الحجاج ، للسير الى ما ورد بالانجيل من البقاع المقدسة . فتوافر في العصور الوسطى من كتب الارشاد ما يفيد منها كل سنة جموع المسافرين ، الذين تولى نقلهم في عيد القيامة سفن المدن الايطالية ، او سفن الفرسان الرهبان ، ليزوروا الاماكن المقدسة وليغتسلوا في نهر الاردن، وليحصلوا على سعف النخيل، وليشهدوا معجزة النار المشتعلة في كنيسة القيامة .

فالاستعمار والتجارة والجغرافية ، كل هذه الامور الثلاثة شديدة الارتباط بتاريخ الحروب الصليبية . وما حدث من تطور في فن الحرب ، ونمو نظام الضرائب ، يعتبران من الامور ، التي تدين بها ايضاً اوربا العصور الوسطى للحروب الصليبية . وتعلم الفرنج، بفضل اتصالهم من جهة بالبيزنطيين، وبسبب نضالهم من جهة اخرى ضد المسلمين، طرقاً جديدة لتشييد الاستحكامات الحربية ومهاجمتها. فالقلعة المستديرة Concentric ، وما اشتهرت به من الاسوار المتتالية ، اخذت تحل مكان ما كان معروفاً عندهم من قبل من البرج القديم والفناء الداخلي، وما يجمعها من سور واحد ، وذلك حينما نقل الصليبيون معهم من الشرق انباء تلك القلاع . وما هو معروف عند المسلمين من اعمال النقابين للاسوار، واستعمال

ادوات الحصار كالمنجنيق، واستخدام « النيران » على هيئة قذائف ، تعلمها منهم الفرنج . اما الرنوك ، وتداريب الفروسية Tournaments ، فيجوز ان ترجع الى اصل شرقي ، فهذه المنازلات تتصل بتداريب الفروسية المعروفة بالجريد ، اما الرنوك فانها على الرغم من ان اصولها ترجع الى ما قبل التاريخ ، فانها تعرضت لتأثير جديد نتيجة الاتصال بالعرب . وما نجم عن الحروب الصليبية من تطور حربي ، يعتبر الى حد كبير منقولا عن اقوام آخرين .

اما التطور المالي فيعتبر ابتكاراً قائماً بذاته في الغرب . فمنذ زمن مبكر ، يرجع الى سنة ١١٤٧ ، فرض لويس السابع ، ملك فرنسا ، ضريبة من اجل الحروب الصليبية . وقرر لويس السابع فرض هذه الضريبة من جديد ، وحذا حذوه في ذلك سنة ١١٦٦ ، هنري الثاني ملك انجلترا ، فلم تلبث ان تطورت الى ما هو معروف سنة ١١٨٨ باسم عشر صلاح الدين [١] . وللضريبة المفروضة في سنة ١١٦٦ ، اهمية خاصة ، لانها تقررت لاول مرة على المنقولات ، وكل ما جرى وضعه من خطة للضرائب، يصح اعتبارها بداية النظام الحديث للضرائب. اما اتخاذ الحروب الصليبية سبباً لفرض الضرائب فلم يكن راجعاً فحسب الى السلطة الزمنية ، بل يرجع ايضاً الى ان البابوية افادت منها . فلاول مرة ، قرر البابا انوسنت الثالث، في مجمع اللاتران المنعقد في سنة ١٢١٥ ، على رجال الدين، ضريبة العشور لصالح الحروب الصليبية ، فأضحت الضريبة المقررة على رجال الدين تؤلف جانباً من جوانب المشروع السياسي الذي رسمه ذلك البابا الكبير للحملة الصليبية الخامسة . فمنذ ذلك الحين ، صارت ضريبة العشور من اجل الحروب الصليبية ، امراً مقرراً باستمرار . وفي زمن البابا جريجوري التاسع

(١) انظر كتاب وثائق العصور الوسطى .

اصبحت تؤلف جانباً كبيراً من موارد البابا في الحرب الصليبية التي شنهـا ضد اسرة هوهنشتاوفن ، ولا زالت تعتبر في القرن السادس عشر ركناً طبيعياً من اركان حكومة الكنيسة .

على ان اوربا بعد الحروب الصليبية ، اختلفت في نواحي عديدة اخرى ، عن اوربا في القرن الحادي عشر الميلادي . فأولا : حدثت تغييرات سيـــاسية كثيرة ، خضعت الى حد كبير لنفوذ وسلطان الحروب الصليبية . واذ غلب على الحروب الصليبية الصفة الفرنسية ، فانها اسهمت الى حد كبير في رفع شأن فرنسا ، وزادت من هيبتها ، حتى اصبحت في نهاية القرن الثالث عشر ، اكبر دولة في اوربا . اذ ان فرنسا هي التي استعمرت الشرق الادنى ، وان اللغة الفرنسية هي التي انتشر استعمالها في الشرق الادنى ، وما زال ملحوظاً حتى اليوم ، النتائج التي ترتبت على الاتصال قديماً بالشرق واستمرار هذا الاتصال .

اما الدول الكبيرة الاخرى ، امثال انجلترا والمانيا فلم يصبها الا حظ ضئيل من التغيير نتيجة الحروب الصليبية ، غير ان المانيا امتدت نحو الشرق بفضل حروب الفرسان التيوتون. على ان الامبراطورية البيزنطية تعرضت لتغيير كبير ، وكذلك كان شأن البابوية . فالامبراطورية الشرقية (البيزنطية) ، دمرها فترة من الزمن ، الحركة (الصليبية) التي عملت هذه الامبراطورية سنـــة ١٠٩٥ على إثارتها . فاذا انبعثت هذه الامبراطورية من بين الرمـــاد سنة ١٢٦١ لتبقى من جديد قرنين من الزمان ، فانها لم تكن اكثر من طيف لكيانها القديم ، اذ ضعف سلطانها في آسيا الصغرى ، وازداد ضعفاً في بلاد اليونان وجزر بحر الارخبيل ، التي ظل اللاتين يحتلونها الى ان استولى عليها آخر الامر الاتراك العثمانيون .

ونمت البابوية وتطورت بتأثير الحروب الصليبية . فالبابوات هم الذين بشروا

بالحروب الصليبية ودعوا لها، وهم الذين قاموا بالانفاق عليها ، وهم الذين ارسلوا مندوبين عنهم ليتولوا قيادتها. واتخذ البابوات من الحروب الصليبية وسيلة لعزل الاباطرة في الغرب ، وخلعهم من زعامة العالم ، وذلك يرجع من ناحية الى ان البابوات استطاعوا عن طريق الحروب الصليبية ، ان يوجهوا المسيحية في اوربا الى ما وضعوه لانفسهم من سياسة خارجية، دون استشارة الامبراطور، وترجع من جهة اخرى الى ان البابوات في القرن الثالث عشر ، استطاعوا آخر الامر ، ان يوجهوا الحروب الصليبية ضد الامبراطورية . ومع ان الحروب الصليبية رفعت من شأن البابوية ، فانها اسهمت ايضاً في افسادها ، اذ غدت الحروب الصليبية اداة في يد البابوية ، استخدمتها في كل اعمالها السيئة ، فأثارت الحرب الصليبية حين لم يكن ثمة ما يدعو الى حرب صليبية. فما شنته البابوية من حرب صليبية ضد اسرة هوهنشتاوفن على الرغم من انها هيأت للبابوية نصراً بارزاً انما اسهمت آخر الامر في الحط من شأن البابوية في نظر اوربا .

فاذا انتقلنا من مجال السياسة الى تاريخ المدنية والحضارة، فاننا نجد ان آثار الحروب الصليبية ازدادت عمقاً ، على الرغم من انها لم تكن واضحة المعالم . فالحروب الصليبية انما نبتت من سياسة حكومة ثيوقراطية ، ارتكزت على حافز الاهتمام بالآخرة، غير ان هذه الحروب اسهمت اثناء سيرها في تدمير ذلك الحافز ، وتدمرت معه الحكومة التي اسهم ذلك الحافز في اقامتها . فالحروب الصليبية هيأت من جهة المجال الذي بمقتضاه يستطيع الرجل العلماني ان يثبت بأن يكون ايضاً من رجال الدين ، وهيأت من جهة اخرى للغرب انه استطيع ان يعيش وان يستمر على الاتصال بديانة اخرى . فنزعت الحروب الصليبية الناس مما درج عليه اسلافهم من عادة التزام الوطن، كيما يسلكوا سبلا جديدة، ويشاهدوا اموراً جديدة ، ويستمعوا الى افكار جديدة . والنتيجة الحتمية لذلك ، ان جرى الاتساع في التفكير والافق العقلي، وان ضعفت حدة ما كان مألوفاً من

قبل من التزمت والتعصب .

وما جرى من اتصال الغرب بالحضارة في الشرق، او ما اخذه عنه من الحضارة لم يكن قدراً كبيراً ، فالواقع ان الغرب اتصل بشيء يخالفه ويغايره ، غير انه في احوال كثيرة يسمو عليه ، بل انه لاسمى منه واعلا . فروح ناثان الحكيم Nathan der Weise لم تكن بالضبط تلك الروح التي ولدتها الحروب الصليبية ، ومع ذلك فان ثمة من الاسباب ما دعا لسنج ان يؤلف روايته التي تدعو الى التسامح في المملكة اللاتينية في بيت المقدس. ومهما يكن من امر الاتهامات التي جرى توجيهها للداوية عند القضاء عليهم ، فانها تثبت بأنه لم يكن، على الاقل في صفوف اولئك الذين عرفوا الشرق ، ثمة الا قدر ضئيل من الديانة الصحيحة الخالصة .

وبينما نشأ عن الحروب الصليبية روح جديدة اشتهرت بالتسامح والقدرة على الموازنة والتقدير ، فما نجم عن الحروب الصليبية من المعرفة والخبرة الجديدة ، هيأ مادة جديدة للتفكير العلمي والخيال الشاعري في آن واحد . فلم يحدث فحسب ان ازدادت دراسة الجغرافية، بل تولد ايضاً عن الحروب الصليبية حافز قوي لكتابة التاريخ ، فنتج عنها ، الى جانب عدد كبير من المؤلفات التاريخية ، اعظم مؤلف في تاريخ العصور الوسطى ، وهو كتاب وليم الصوري المعروف باسم تاريخ « ما وراء البحار » Historia Transmairina . اما الرياضيات ، فعلى الرغم من ان اقوى ما تأثرت به انما جاء من المسلمين باسبانيا ، فانها تأثرت ايضاً بما جاءها من المسلمين بالشرق ، فالمعروف ان اول عالم مسيحي في الجبر وهو ليوناردو فيبوناتشي Leonardo Fibonacci ارتحل الى سوريا ومصر ، واخذ في دراسة اللغات الشرقية، لارتباطها بالبعثات التبشيرية في الشرق . كما ان المبشر الدءوب ريموند لل Raymundus Lullus ، حث مجمع فينا سنة ١٣١١ على ان يتخذ قراراً بانشاء ست مدارس للغات الشرقية في اوربا . غير ان المجال الجديد لما

تمخض عن الحروب الصليبية من آداب منظومة لاكثر اهمية ، من هذا التطور العلمي . اذ توافر من القصائد الجديدة ما عالج تاريخ الحروب الصليبية ، اما عن طريق الرواية الامينة الصادقة ، كالتي اشتهرت بها قصيدة امبروز Ambroise[1] ، التي تروي تاريخ الحملة الصليبية الثـــالثة ، وإما في روح شاعرية حرة ، كالتي تنبعث من قصيدة انطاكية .

على ان هذا لم يكن كل شيء ، اذ عرضت الحروب الصليبية من التفاصيل الجديدة ما يصح ادخالها في الامور القديمة ، ومن الروح الجديدة ما يجوز تضمينها في الموضوعات القديمة . وعلى هذا النحو اتخذت القصص السابقة عـــلى الحروب الصليبية ، امثال قصة ارثر وشارلمان ، مسحة صليبية . والى جانب هذه الاشياء العظيمة ، التي تبدو قليلة لانها قليلة فعلاً ، ما جلبته الحروب الصليبية الى اوربا من اشياء بالغة الاهمية ، كالنباتات الجديدة والثمار الجديدة ، والصناعات الجديدة والالوان الجديدة والازياء الحديثة . فالسكر والذرة ، والليمون والبطيخ ، والقطن والحرير الموصلي والدمقس ، والليلق ، والارجوان ، (ومن الالفاظ المشتقة من العربية اللازورد ، والاحمر) ، واستخدام المساحيق والمرايا الزجاجية ، واتخاذ المسابح ، كل هذه الاشياء انما انتقلت الى اوربا العصور الوسطى من الشرق نتيجة الحروب الصلبية . وفي معاجم لغات غرب اوروبا ، حتى اليوم ، من الالفاظ العربية العديدة ، ما يعتبر دليلا قائماً على اثر الحروب الصليبية ، كالالفاظ المتعلقة

---

(١) هذه القصيدة عنوانها Estoire de la guerre sainte ، ألفها شاعر نورماني اسمه امبروز Ambroise ، تروي ما جرى من احداث الحرب الصليبية الثالثة حتى سقوط عكا في يد الصليبيين سنة ١١٩١ م — ترجم هذه القصيدة الى الانجليزية ، هيوبرت ، ونشرها وعلق عليها وكتب لها مقدمة تاريخية طويلة الاستاذ لامونت . انظر :

The Crusade of Richard Lion-Heart by Ambroise . Ed John L-La Monte New York 1941 .

بالتجارة البحرية ، مثل تعريفة Tariff ، والسخرة Corvette او الفاظ مرتبطة بالآلات الموسيقية مثل العود، والنقارة naker ، التي ترجع الى العصر الاليزابيثي.

والى ان تتم رواية كل شيء عن الحروب الصليبية ، تعتبر هذه الحروب فصلا رائعاً من فصول الرواية الضخمة التي تمثل الحياة البشرية. اذ انها عالجت الذروة من الجراءة والتقوى، كما انها هوت الى احط مدارج الخزي والعار، وقد تنطوي ايضاً على نوازع المصلحة الشخصية. فالنوازع الدينية لم يكن الغرض منها سوى شراء الخلاص بثمن بخس، بينما ترمي النوازع الدنيوية الى اقتناء الثروات وامتلاك الاراضي. ومع ذلك يعتبر من الخيابة العظمى ما يقوم به الانسان من نضال متصل لتحقيق الخير المثالي ، اذ انكرنا ان الناس حاولوا في الحروب الصليبية ومن خلالها ، وفي سبيل العدل والتقوى ، ان يبسطوا مملكة الله على الارض . فتعتبر الانسانية بالغة الخصب والوفرة في ذاكرة اولئك الملايين من الناس الذين سلكوا « الطريق الى القبر المقدس » ، يحدوهم الايمان والامل في الحصول على الجزاء الابدي . فلم تكن عصوراً مظلمة ، تلك التي احتشدت فيها المسيحية بأجمعها لتحقيق غرض عام ، وحملت لواء عقيدتها الى قبر مخلصها ومنقذها ، كما انه لا يسعنا الا ان نزجي الشكر لذكراه ، لان الديانة عندنا ليست الا من روحه ، وكانت بيت المقدس ، في قلب كل انسان يؤمن بالمسيح .

ملحق

عن مراحل الجهاد ضد الصليبيين

حتى سقوط بيت المقدس سنة ١١٨٧

استطاع الصليبيون اواخر القرن الحادي عشر الميلادي وأوائل القرن الثاني عشر ان يقيموا في الشرق الادنى اربع امارات مستقلة ، في الرها ، وانطاكية ، وبيت المقدس ، وطرابلس. ولم يرجع نجاحهم في ذلك فحسب الى وفرة اعدادهم والى ما تلقوه من مساعدات من المدن الايطالية والدولة البيزنطية ، بل يرجع ايضاً الى ما اصاب العالم الاسلامي من التفكك السياسي والاجتماعي ، فانصرف الخلفاء والامراء والقادة الى المشاحنات الداخلية ، والمنازعات الاقليمية . ويشير احد المؤرخين الى ان الصليبيين لو تقدم بجيشهم عشر سنوات او تأخر قدومهم عشر سنوات ، لقذف بهم المسلمون الى البحر ، وذلك بسبب ما كان عليه السلاجقة زمن ملك شاه من القوة والمناعة ، وما كان للفاطميين من قوة بحرية وعسكرية ضخمة ، ثم بسبب ما حدث بعدئذ من النزوع الى توحيد العالم الاسلامي .

لم يدرك المسلمون خطورة امر الصليبيين الا بعد ان رسخت اقدامهم وبعد ان اتخذوا من اساليب القهر والاستبداد ، ما جعل المسلمين يحسون ان خطرهم سوف يتعرض له سائر المسلمين على اختلاف مذاهبهم واقاليمهم ومن ثم جرت

المحاولات لتوحيد الجبهة الاسلامية منذ مستهل القرن الثاني عشر .

وتعتبر حلب مركز التوازن في مجموعة السياسات الحادثة وقتـــذاك ، فاذا خضعت حلب لدمشق او الموصل او الصليبيين ترتب على ذلك حشد القوى من كلا الجانبـــين الاسلامي والصليبي . ولا شك ان ما تعرضت له حلب من الخطر الصليبي المباشر ، وما حدث سنة ١١١٠ من قدوم جماعة من اشرافها وصوفييها وتجارها وفقهائهـــا الى بغداد مستغيثين من « إفساد الصليبيين في بلادهم » كان حافزاً كبيراً للخليفة العباسي للدعوة الى الجهاد ضد الصليبيين . وظلت حلب تعتمد في حمايتها على امراء التركمان بالجزيرة غير انها لم تندمج في الامـــلاك السلجوقية [١] .

وتطلع امراء الموصل ، اقسنقر ، وزنكي من بعده ، الى اقامة امارة مستقلة تضم حلب والموصل ، لما لحلب من اهمية حربية ، اذ ان موقعها باعتبارها قلعة ضد الصليبيين يجعل لامير الموصل عند امتلاكها من الصفة ما يعتبر المدافع عن الاسلام ضد الكفار ، كما ان قوة الشعور الديني تمنع السلطـــان السلجوقي من ان يتخذ ضده اي اجراء من الاجراءات ، فضلا عما اشتهرت به من موارد وثروة مما يزيد في قوة الموصل المادية . وعلى الرغم من ان اتحاد حلب مع الموصل يبعد خطر استيلاء الصليبيين عن حلب ، فان فريقاً من سكانها ، لا سيما البـــاطنية ، حرصوا على ألا يتم هذا الاتحاد ، ورأوا في استيلاء المشارقة خطراً عليهم ، فلجأوا الى الاستعانة بالاراتقة والاغتيال لوقف هذا الاتحاد حتى سنة ١١٢٧ [٢] .

وفي وسط هذه الازمات ظهر عماد الدين زنكي ، الذي وضع سياسة الجهـاد

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٣ .
(٢) انظر : Baldurin : The Crusades p. 453 .

الديني التي اتبعها ضد الصليبيين من جاء بعده من الامراء والسلاطين . نشأ زنكي على مقربة من مسرح النضال بين القوتين الاسلامية والصليبية ، بل اشترك في بعض الوقائع التي جرت بينها ، ولمس زنكي منذ حداثته التناحر بين القوات الاسلامية ، ووقف على ما بين الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي من صراع حول السيطرة الفعلية ، وانحاز فعلا الى جانب السلطان ، ضد الخليفة سنة ١١٢٧ ، وفي نفس السنة تعين اتابكاً للموصل .

وضع زنكي خطته على اساس بسط سلطانه في الجهات التي خضعت له ، ثم محاولة مد سلطانه الى حلب ، لما زعمه بانها كانت في حوزة ابيه منذ سنة ١٠٨٦ زمن السلطان ملك شاه ، وتهيأت له الفرصة للتدخل في شئونها بسبب ما حدث بها من الفتن الداخلية ، ولتعرضها للخطر من قبل اميري الرها وانطاكية الصليبيين ، فاستصدر من السلطان السلجوقي سنة ١١٢٨ منشوراً بأن تكون حلب من الممتلكات الداخلية في حكمه ووافق السلطان على ذلك ، واستطاع زنكي آخر الامر سنة ١١٢٨ ان يوحد بين الموصل وحلب ويجعل منهما امارة واحدة خاضعة [١] لسلطانه .

وبوفاة طغتكين صاحب دمشق سنة ١١٢٨ ، اصبح زنكي مسئولا عن قتال الصليبيين ، وجهادهم ، واذ حصل على منشور يقضي بتقليده كل ما يفتحه من الاقاليم ، هاجم الاثارب وهي من امنع قلاع الصليبيين المتاخمة لحلب ، واشتبك في قتال مرير مع الصليبيين ، انتهى بسقوط القلعة ومصرع عدد كبير من المقاتلين ، ومن بقي من حامية القلعة وقع في اسره ، وذلك سنة ١١٣٠ [٢] ، وعاد زنكي الى

---

(١) حبشي : نور الدين والصليبيين ص ٢٣ - ٢٤ .

(٢) انظر Lane - Poole : Saladin p. 50

الموصل مظفراً ، واضحى اسمه مثلا للشجاعة والشدة ، وذاعت شهرته على انه بطل المسلمين في جهادهم ضد الصليبيين .

وادرك زنكي اهمية دمشق في القتال ضد الصليبيين ، غير ان حرص وزير دمشق ، معين الدين انر ، على الاحتفاظ بالاستقلال ، وما اتخـــذه من الاساليب لدرء مهاجمة زنكي له ، كالاستعانة بالصليبيين ، ونهوض البيزنطيين لمساعـــدة الصليبيين، كل ذلك حال دون ان يحقق زنكي غرضه، غير انه لم يعد الى الموصل سنة ١١٣٩ الا بعد ان سقط في يده من املاك دمشق حمص وبعلبك التي جعـــل عليها ايوبا والد صلاح الدين [١] .

وجه زنكي اهتمامه الى مهاجمة الصليبيين في جهة اخرى ، غير انه قبل المضي في تحقيق ذلك ، عمل على تأمين مؤخرة قواته ، من اخطار الاراتقة والاكراد بأعالي الجزيرة فسقطت في يده بلاد ديار بكر الواحدة بعـــد الاخرى، الى ان اصبح جيشه تحت اسوار آمد فحاصرها . والواقع ان زنكي لم يهـــدف الى الاستيلاء على آمد ، بل تطلع الى جهة اخرى من املاك الصليبيين ، الرها [٢] .

وكان جوسلين صاحب الرها مصدر خطر في انحاء سوريا وديار بكر، وتعتبر الرها من امنع المعاقل الصليبية ، فلما مات جوسلين، وخلفه في الحكم ابن له اتخذ اسم جوسلين الثاني ، كان يؤثر الدعة ، ويسعى وراء اشباع شهواته ، ولما رأى انصراف زنكي الى محاصرة آمد، وظن انه سوف لا يهاجم الرها، فاتخذ طريقه الى ضياعه بساحل الشام للهو والعبث . وعندئذ تقدم زنكي لمحاصرة الرها في

---

(١) Lane - Poole : op. cit. p. 55

(٢) Ibid. p. 56

سنة ١١٤٤ ، بعد ان وقف على ضعف حاميتها ، ولم يلبث زنكي ان اقتحمها في ديسمبر سنة ١١٤٤ ، فانهارت بذلك دعامة من دعائم المملكة اللاتينية ، واستولى زنكي على المدن التي كانت تابعة للرها ، فأصبح وادي الفرات خالصاً للمسلمين [١] .

على ان زنكي لقي حتفه على يد مماليكه سنة ١١٤٦ ، وذلك اثناء حصاره لقلعة جعبر، فمات زنكي بعد ان اتم من الاعمال ما لم يستطع جميع امراء المسيحية هدمه ، وترك لابنه نور الدين ، وتابعه صلاح الدين امر اتمام ما بدأه من عمل يرمي به الى توحيد الجبهة الاسلامية وطرد الصليبيين . فلم يمض على وفاة زنكي اربعون عاماً ، حتى سقطت بيت المقدس في يدي صلاح الدين [٢] .

انقسمت مملكة زنكي بعد وفاته الى قسمين : القسم الشرقي وتولى امره ابنه الاكبر غازي ، ومقره الموصل ، والقسم الغربي ، وصار من نصيب نور الدين محمود الذي اتخذ حلب مقراً له . وأدى الوضع الجغرافي الى ان يواجه نور الدين المشكلتين الكبيرتين اللتين صرف زنكي في معالجتها معظم ايامه ، وهما دمشق والامارات الصليبية الاخرى [٣] .

وجه نور الدين كل اهتمامه للاستيلاء على دمشق، بعد ان استقرت الامور بينه وبين اخيه في الموصل ، وبعد ان توافر له الجند بانحياز اعداد كبيرة من التركمان له ، وبعد ان احبط جهود الصليبيين في استرداد الرها ، فتوالت اغاراته على

---

(١) انظر Baldwin : Crusades 1 p. 460
Lane - Poole . Saladin p. 60

(٢) Ibid. p. 61

(٣) حبشي : نور الدين والصليبيون ص ٤١ .

دمشق بعد وفاة آنر سنة ١١٤٨، وذلك لاهمية دمشق في توحيد القوى الاسلامية، لا سيا بعد سقوط عسقلان في يد الصليبيين سنة ١١٥٣، ودأب الصليبيين على الغارة على دمشق، وفرضهم جزية سنوية عليها، وبلغ من شدة وطأتهم على دمشق وعجز وزير دمشق عن ردهم، ان قلت هيبة هذا الوزير عند سكان المدينة فحصروه في قلعتها، ولما اتصل ذلك بنور الدين اشتد به الحماس، وساءه حال اهل دمشق. وخاف ان يستولي العدو على بلاد المسلمين، فعمل على استمالة الوزير مجير الدين (١).

والواقع ان دمشق اضحت فريسة، يسهل على الصليبيين الاستيلاء عليها، وادرك نور الدين خطورة هذا الموقف، فجهز في ابريل سنة ١١٥٤ حملة بقيادة شيركوه للاستيلاء على دمشق. على ان ما تعرضت له دمشق من اخطار الصليبيين، وكراهية اهلها لما جرى عليه وزيرها من سياسة الاستكانة وما كان لايوب أخي شيركوه، من مكانة ممتازة بدمشق، كل ذلك يسر لنور الدين ان يدخل دمشق من غير قتال (٢).

وبسقوط دمشق في يد نور الدين، تحقق جانب كبير من سياسة زنكي التي ترمي الى توحيد الجبهة الاسلامية من جهة ومهاجمة الصليبيين من جهة اخرى. اذ حصر المسلمون الصليبيين على الساحل، واضحى الطريق الى مصر امامهم مفتوحاً كما يتم تطويق الصليبيين وطردهم. على ان سقوط عسقلان في يد الصليبيين جعل الطريق الى مصر امامهم مفتوحاً، ولمصر من الاهمية للصليبيين ما تجعلهم يأملون الافلات من قبضة نور الدين، وتهيء لهم سبيل الاتصال مع الغرب، فضلا عما اشتهرت به من الثروة.

وما جرى في مصر من الاحداث، وما حدث من تطور الامور في الشام،

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب في اخبار بني ايوب جـ ١ ص ١٢٦.

(٢) Lane - Poole : Saladin p. 72

أدى الى التسابق بين نور الدين والصليبيين من اجل الاستيلاء على مصر . ذلك ان مصر سادها منذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي الاضطرابات الداخلية نتيجة التنازع على الحكم والتنافس على منصب الوزارة ، وصار الصليبيون يبدون اهتماماً شديداً بما يحدث بداخل البلاد من المنازعات، وقبل وزراء الدولة الفاطمية ان يدفعوا مبلغاً كبيراً كل سنة في سبيل درء خطر الصليبيين[١]، وكان تنازع ضرغام وشاور على منصب الوزارة في مصر ، السبب المباشر في قيام الحملات النورية والصليبية وتوجهها من الشام الى مصر . اذ لجأ كل من المتنافسين الى هاتين القوتين لتمكينه في منصب الوزارة .

واستطاع شاور ان يقهر خصمه ضرغام بفضل مساعدة شيركوه قائد نور الدين سنة ١١٦٤ ، غير ان ما لجأ اليه شاور في سبيل الاحتفاظ بمركزه ، من سياسة استغلال كل من الجانبين النوري والصليبي ، دون ان يحفل بما تتعرض له مصر من الضرر والاذى ، ترتب عليها ان قدمت القوات النورية والصليبية في سنتي ١١٦٧ و ١١٦٨ ، الى مصر ، وهذا الموقف بمصر، من حيث تعرضها للغزو الصليبي ، كان اشبه بما جرى بدمشق قبيل سقوطها في يد نور الدين، وادرك كل من نور الدين والخليفة العاضد الفاطمي وسائر المصريين خطورة سياسة شاور ، لا سيما بعد ان ترك الصليبيون لهم حامية في مصر ، وبعد ان تم الاتفاق بينهم وبين البيزنطيين على غزو مصر واقتسامها، ومن الدليل على ذلك ما ورد على نور الدين من كتب الخليفة العاضد نفسه ، يعرض عليه ارسال حملة لتخليصه من شاور والصليبيين ويبذل له ثلث خراج البلاد ، ، ويقبل ان يقيم شيركوه عنده في عسكره على ان ايتكفل باقطاعاتهم، يضاف الى ذلك ما ارسله المصريون من

---

(١) Wiet : L'Egypte Arabe p. 288
Baldwin : The Crusades 1 p. 530 .

الكتب الى نور الدين وشيركوه في هذا المعنى[1]. فطلب نور الدين الى شيركوه ان يتجهز للمسير الى مصر ، وبذل له الاموال الوفيرة لاعداد الحملة ، وندب صلاح الدين للخروج مع عمه، فقبل صلاح الدين على كره منه ، مع ان مستقبله مرهون بهذه الحملة، وفي هذا يقول ابن الاثير «احب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته ، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه »[2] . ومن الملحوظ ان نور الدين ابدى من الاهتمام بهذه الحملة ما لم يبده بالحملات السابقة ، ولعل ذلك راجع الى حرصه على اعادة المذهب السني بمصر وإرضاء الخليفة العباسي ببغداد ، والى ما تبينه من الرسائل التي وردت اليه من مصر ، من الضعف الشديد الذي تردت فيه الدولة الفاطمية ، فضلا عن شدة قلقه من جهة الصليبيين ، وبلغ في حثه لشيركوه بالمسير الى مصر ، انه اشار بأنه اذا تأخر عن المسير الى مصر فالمصلحة تقتضي بأن يسير اليها بنفسه « لاننا اذا اهملنا امرها ملكها الفرنج ، ولا يبقى لنا معهم مقام بالشام ولا غيره[3] » . فلم يسع شيركوه الا الامتثال لامر نور الدين ، وحصل صلاح الدين من نور الدين على مال تجهز به ، وصحب عمه في حملته[4] .

وصلت الحملة الى القاهرة في يناير سنة ١١٦٩ ، ولم تصطدم بالصليبيين اذ ان اموري الملك الصليبي ادرك كراهية المصريين له ، ورأى ان يغادر البلاد ، خوفاً من ان يتعرض للهجوم من شيركوه ومن المصريين معـــاً . اما شيركوه فلقي في

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٥٨ .

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ١٥١ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٥٩ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ١ ص ١٦٠ .

القاهرة ترحيباً كبيراً ، واستقبله الخليفة الفاطمي، وفرح به اهل مصر وتقررت له ولعساكره الرواتب الوفيرة ، على حين ان شاور امتلأ غيظاً وحقداً ، ولم يف بما وعد به نور الدين من تقرير المال والاقطاع للعساكر، وإفراد ثلث الخراج له. واذ تبين لصلاح الدين وسائر الامراء ما درج عليه شاور من الخيـــانة والغدر، قرروا التخلص منه ، ووافقهم شيركوه على ذلك ولم ينكر الخليفة العاضد هذا الاجراء ، وبذلك انتهت حياة شاور ، ويعتبر مصرعه آخر حلقة في سلســـلة المؤامرات التي تعرضت لها مصر اواخر العهد الفاطمي ، ولم يعد للصليبيين من يستندون اليه في داخل البلاد ، ورأى نور الدين في خروج الصليبيين من مصر فتحاً جديداً للبلاد وحفظاً لسائر بلاد الشام (١) .

وتقلد شيركوه الوزارة، فصار يقطع البلاد للعساكر الذين قدموا معه وجعل صلاح الدين يباشر كل الامور (٢) ، غير ان شيركوه لم يلبث ان قضى نحبه في ٢٣ مارس سنة ١١٦٩ ، ولم تتجاوز مدة وزارته شهرين .

لم يسع الخليفة العاضد الفاطمي الا ان يعهد بالوزارة الى صلاح الدين الذي لم يتجاوز وقتذاك الثانية والثلاثين من عمره. وتعتبر تولية صلاح الدين في هذا المنصب الذي ادى التشاحن عليه ، الى تدخل نور الدين وتوطيد مركزه في مصر، امراً بالغ الاهمية . اذ ان صلاح الدين عمد الى تطهير الاداة الحكومية من الفساد ، فأمر بعزل عدد كبير من الموظفين ، وشرع في تدبير اموره في شيء من الحذر والروية .

فلاعادة المذهب السني الى مصر لا بد من ان يترقب الفرصة الملائمة لذلك ، كما

---

(١) ابن الاثير : تاريخ الاتابكة ص ٢٥١
حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١٣٠ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٦٤ - ١٦٥ .

انه في الوقت ذاته ، كان حريصاً على رضى نور الدين ، وعلى الاحتفاظ بمكانته ووضعه في مصر . فأمر بذكر اسم نور الدين في خطبة الجمعة ، وذلك بعد اسم الخليفة الفاطمي . ولهذا الاجراء اهمية، اذ انه يدل على ان ايام الاسرة الفاطمية باتت معدودة .

على ان صلاح الدين لم يلبث ان لقي معارضة شديدة من قبل بعض الفئات لا سيما قادة الجيش الفاطمي الذين اتخذوا لهم زعيما من بين طواشية القصر ، وهو مؤتمن الخلافة وساد السخط بينهم على اساس ان صلاح الدين يعمل على إضعاف مركز الخليفة ويحاول ان ينفرد بالسلطان ، ، وكرهوا ان يخضعوا لسلطان صلاح الدين. وما حدث من إلقاء القبض على عدد كبير من رجال القصر لم يترك عندهم اي اثر للشك فيما عند الوزير الجديد من النوايا. وكان مؤتمن الخلافة موطن ثقة الخليفة العاضد، ولم يتردد في ان يستنجد بقوة الصليبيين مثلما فعل شاور من قبل [1] .

غير ان صلاح الدين امر بقتل زعيم الثائرين في اغسطس سنة ١١٦٩، وترتب على ذلك ان تظاهر عدد كبير من الرعاع والجند عند دار الوزارة بالقاهرة ، فبادر صلاح الدين بحشد قواته ، التي جعل عليها اخاه توران شاه . ووقع بين الترك والسود معارك دامية في الشوارع ، وانتهت بهزيمة المتظاهرين ومطاردتهم في شوارع القاهرة ، واشعال النيران في الدور التي ينزلها السود . ثم اوقف صلاح الدين القتل والتذبيح ، واخرج من القاهرة عدداً كبيراً منهم ، ومن تبقى منهم ، ألزمهم بعدم مغادرة دورهم ، وعدم الظهور بشوارع القاهرة . وترتب على القضاء على هذه الفتنة ، ان هيبة الفاطميين وسلطانهم اخذ في الزوال ،

---

(١) Wiet : L'Egypte Arabe p. 300

بسبب سوء تصرف الخليفة ، فما لحق السود من القمع الشديـــد ، اودى بقوة الخليفة الفاطمي .

وبادر الصليبيون الى اصلاح خطاهم، قبل ان ترسخ قدم صلاح الدين، بتوحيد مصر والشام ، ورأوا انه لا بد من مهاجمة مصر وقتذاك بقوات ضخمة ، ولا بد ان يستند احتلال البلاد الى خطة موضوعة ، فعزموا على اتخــاذ دمياط قاعدة بحرية ، فهرعت قوات اموري الى دمياط ، وقدم اسطول ضخم مؤلف من سفن بيزنطية وصقلية، ليسهم في حصار المدينة . فأرسل صلاح الدين كل من يستطيع الاستغناء عنه من العساكر ، وطلب الى نور الدين ان يرسل اليه [1] امدادات . على ان صلاح الدين بفضل مواصلة إمداد حامية دمياط بالمؤن والذخائر ، وما تلقاه من تأييد من الخليفة العاضد، ومهاجمة نور الدين لاملاك الصليبيين في الشام، ونقص المؤن والذخائر عند الصليبيين ، واستماتة جند صلاح الدين في القتـــال ، ارغم الصليبيين على طلب الصلح ، فأجابهم الى طلبهم في ديسمبر سنة ١١٦٩ ، بعد ان التزموا بدفع مبلغ كبير من المال وبالجلاء فوراً عن الاراضي المصرية [2] .

شرع صلاح الدين عقب رد الصليبيين عن دمياط، في مهاجمة مواقع الصليبيين بالشام ، وبعد ان قام بحملة استكشافية وصلت الى عسقلان ، نقـــل على ظهور الابل سفناً مفككة امر ببنائها من قبل ، فأنزلها بخليج العقبة، بينما اجتاز بجيشه شبه جزيرة سيناء ، وبفضل التعاون بين الاسطول والجيش ، استولى على ايـــلة (العقبة) ، وشيد الاستحكامات القوية لرد الصليبيين .

على ان نور الدين اخذ يلح على صلاح الدين في ازالة الخلافة الفاطمية واعادة

---

(١) Wiet : op. cit. p. 301

(٢) Wiet : L'Egypte Arabe p. 301

المذهب السني الى مصر ، فلم يجد صلاح الدين بدأ من تحقيق هذه الرغبة ، وتولى الخبوشاني ، وهو رجل فارسي استقر بمصر منذ زمن طويل ، تنفيذ ذلك ، اذ القى بالفسطاط اول خطبة باسم الخليفة العباسي ، وذلك اول جمعة من سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١) ، وكان الخليفة العاضد قد اشتد به المرض ، ولم يلبث ان مات في سبتمبر سنة ١١٧١ ، واتفقت المصادر التاريخية على الاشارة الى ان الناس استقبلوا هذا التغيير الجديد دون اكتراث او اهتمام بزوال الخلافة الفاطمية . وترتب على ذلك ان عاد المذهب السني الى مصر ، وخضعت البلاد من الناحية الروحية للخليفة العباسي ببغداد .

وما وقع من الحوادث بين سنة ١١٧١ (٥٦٧ هـ) ، منذ سقوط الخلافة الفاطمية ، وسنة ١١٧٤ (٥٧٠ هـ) ، وهي السنة التي توفي فيها نور الدين ، حددت مستقبل صلاح الدين في مصر ، وعلاقته بالدولة النورية ، وما تطلع اليه من المضي في توحيد الجبهة الاسلامية ومهاجمة الصليبيين ، يضاف الى ذلك ما تعرضت له مصر في اثناء هذه الفترة من الفتن والمؤامرات التي دأب انصار الفاطميين على اثارتها .

استطاع صلاح الدين ان يطارد بقايا السودانيين ، الذين خرجوا من القاهرة ، ولجأوا الى النوبة فتحالفوا مع النوبيين سنة ١١٧٢ ، وأغاروا على اطراف مصر الجنوبية ، ولم يكن قصد هؤلاء المغيرين سوى النهب اولا ، ثم الانتقام من صلاح الدين لازالته الدولة الفاطمية ، وشدته في قمعهم وطردهم من مصر . على ان صلاح الدين بفضل جهود اخيه توران شاه ، شتت شملهم ، وأمر بوضع حامية كردية في ابريم (١) .

---

(١) ابو شامه : الروضتين في الدولتين جـ ١ ، ص ٢٠٨ .

وفي سنة ١١٧٣ (٥٦٩ هـ) ، جرى تدبير مؤامرة شاملة الغرض منها اعادة الحكم الفاطمي الى مصر ، وتضمنت هذه المؤامرة ، التي يعتبر الشاعر عمارة اليمني من اكبر زعمائها ، استغلال توزيع قوات صلاح الدين في جهات عديدة ، والاتصال بسائر العناصر المناهضة لصلاح الدين في داخل البلاد ، والتحالف مع اعدائه خارج البلاد ، فضلا عن الاستعداد لاعلان الخلافة الفاطمية في مصر من جديد .

وتفصيل هذه المؤامرة ان الشاعر عمارة اليمني ، الذي امضى شطراً كبيراً من حياته في القصر الفاطمي ، وعاش على سخاء وكرم الوزراء الفاطميين ، حاول ان يتقرب الى السادة الجدد (الايوبيين) ، لا سيما توران شاه ، فحرضه على فتح بلاد اليمن لابعاده عن مسرح الحوادث التالية لما اشتهر به من العنف والشدة[1]. ووافق ذلك هوى عند توران شاه لا سيما ان صلاح الدين ، منذ ان استقر بمصر ظل هو واهله ، خائفين من نور الدين من ان يدخل مصر وينتزعها منهم ، فرأوا ان يقيموا لهم مملكة يلجأون اليها ، ووجدوا ما يبرر ذلك عند نور الدين ، من حيث الحرص على اقامة الخطبة العباسية ببلاد اليمن[2] . واستنجد المتآمرون بالفرنج (الصليبيين) من صقلية والشام ، وكتبوا الى سنان زعيم الحشيشية بالشام ، يطلبون اليه ان يرسل من الفداوية من يغتال صلاح الدين . وانطوت خطتهم على ان الصليبيين اذا قصدوا مصر ، وخرج اليهم صلاح الدين اعلنوا الثورة بالقاهرة ، وأعادوا الخلافة العلوية ، وانحاز اليهم من مالأهم من عسكره ، فلا يستطيع صلاح الدين الصمود للصليبيين . اما اذا بقي صلاح الدين بالقاهرة وارسل عساكره لمواجهة الصليبيين ، ففي استطاعتهم القبض عليه ، لانه ليس

---

(١) انظر Wiet : L'Egypte Arabe , p. 301

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ، ص ٢٣٨ ، ٢٤٤ .

عنده من العساكر من يحميه . وعلم صلاح الدين بخبر هذه المؤامرة ، بعد ان اكتشف الصلة بين الصليبيين في الشام وزعماء الفتنة في مصر ، فألقى القبض عليهم ، وجرى الاحتياط على افراد الاسرة الفاطمية ، ثم امر بصلب عمارة وعصابته ، وصادر اموال الفاطميين ، وارسل جانباً كبيراً منها الى نور الدين ، ليستعين بها على الجهاد[1] .

من الواضح انه في الوقت الذي جرت فيه هاتان المحاولتان ، ولم يكن صلاح الدين يفكر مطلقاً في خطر ينجم عن اعادة الدولة الفاطمية ، انما اشتد قلقه من اعمال نور الدين ، الذي ارسل اليه في هذه السنة (١١٧٣) ، موفق الدين خالد القيسراني ، متولي ديوان الاستيفا ، يطلب منه اوراقاً بخراج مصر[2] ، بعد ان حاول صلاح الدين الاعتذار عن عدم التعاون الحربي معه ضد الصليبيين ، بما تعرضت له مصر من اخطار خارجية ، وما جرى بها من تدبير المؤامرات مما يتطلب منه الالتفات والاهتمام . والواقع ان السبب في امتناع صلاح الدين عن التعاون مع نور الدين ، ما لمسه صلاح الدين من حرص نور الدين على انتزاع مصر من يده ، والاستعداد لغزوها ، فعلى الرغم من ان صلاح الدين وافراد اسرته ، اعلنوا ولاءهم لنور الدين ، وبعثوا له بالهدايا ، فان نور الدين انتهز فرصة اعتراف الخليفة العباسي به سلطاناً على مصر ، فأرسل القيسراني ليتحقق من احوال البلاد ، ويتحرى بالتفصيل المركز المالي بها ، ويحدد ما ينبغي ان تدفعه مصر من الجزية كل سنة لنور الدين ، ومن الواضح ان نور الدين طلب

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ص ٢٤٤ - ٢٤٧ . ابو شامه : الروضتين جـ ١ ص ٢١٨ - ٢١٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٣٢ .

الى وزيره ان يتعرف الى نوايا صلاح الدين وميوله (١) .

واستطاع صلاح الدين ان يقنع القيسراني بحسن تصرفه، واخذ في جمع الاموال التي سوف يرسلها الى نور الدين، وجعل للقيسرانى من الاموال ما لم يكن يتوقعه وحمله من الهدايا ما تفوق في الفخامة والابهة ما سبق ان بعث به. وعلم القيسراني وهو في طريق عودته الى الشام ، بوفاة نور الدين ، التي حدثت في ١٥ مايو سنة ١١٧٤ م (٢) .

واذا كان صلاح الدين شق عليه ان يذكر اسم نور الدين في خطبة الجمعة ، وان يسك النقود باسمه ، ويظهر القلق من جانب نور الدين ، فان ما وقع من الاحداث بعد وفاة نور الدين، جعلته يقترب من تحقيق الهدف الذي يرمي اليه. اذ خلف نور الدين على الحكم ابنه الملك الصالح اسماعيل، الذي لم يكن الا طفلا لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره. وادرك صلاح الدين انه قد حان دوره، وانه لا يضيره ان يذكر اسم هذا الامير الصغير في خطبة الجمعة وان يسك النقود باسمه. كما انه ادرك ان عليه ان يقوم بعمل خطير ، فمكانة امير دمشق ، باعتباره بطل المسلمين ضد الصليبيين اضحت هدفه الكبير ، لما يترتب على ذلك من استقلاله وتوحيد الجبهة الاسلامية وتطويق الصليبيين . على ان تحقيق هذا الغرض يتوقف على موقفه من الصالح اسماعيل .

التزم صلاح الدين طريق الحكمة والروية كيما يحقق غرضه ، كما انه حرص على ان يسير في ذلك على مراحل وخطوات .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ ، ابو شامه : الروضتين جـ ١ ص ٢٢١ ، Wiet : op. cit. p. 312.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٥٨ Wiet : op. cit. p. 312.

وخلاصة ما جرى من الحوادث في الشام ، ان طائفة من امراء نور الدين ، دفعوا الصالح على ان يغادر دمشق الى حلب ، كيما يقيم بها ، وفي الوقت ذاته حرضوا صلاح الدين على القدوم الى دمشق . غير ان صلاح الدين ، لكيلا يترك من الاثر ما يدل على تسرعه وتعجله للامور ، توجه اول الامر الى خليج العقبة ، للوقوف على احوال المراكز التي حصنها بشبه جزيرة سينا ، ثم اتجه نحو بصرى ، ودخل دمشق في اكتوبر سنة ١١٧٤ .

وبعد ان قرر صلاح الدين ابطال كل المكوس التي جرى استحداثها بعد نور الدين في دمشق ، اعلن انه لم يقدم الا ليقوم على تربية الصالح ، وانه لم يقصد الا ان يتولى شئون المملكة باسم الامير الزنكي [١] . غير ان ما حدث من سيطرة بعض امراء نور الدين ، على الصالح ، وشدة حقدهم وحنقهم على صلاح الدين ، والاستنجاد بقوات الموصل ، والتماس المساعدة من الصليبيين ، جعل صلاح الدين يتخذ من الاساليب والوسائل ما يبطل هذه الدسائس ، ويوقف مساعدة الصليبيين ويحقق غرضه . لجأ الى استمالة بعض الامراء النوريين ، وبذل الاقطاعات لهم ، وتعيينهم في وظائف رئيسية بالشام . وبفضل ما حرص عليه من اقامة العلاقات الطيبة مع الخليفة العباسي ، يدل على ذلك ما تردد في رسائله الى الخليفة المستضيء من الاشارة الى جهوده في القضاء على الدولة الفاطمية واعادة المذهب السني بمصر واليمن والى حرصه على جهاد الصليبيين وتوحيد كلمة المسلمين ، والى ما لجأ اليه خصومه من الاستعانة بالصليبيين والباطنية الذين يعتبرون اعداء

---

(١) انظر .Wiet : op. cit p. 313
ابو شامه : الروضتين جـ ١ ص ٢٣٦
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٩ — ٢٠

الاسلام [١] ، احرز صلاح الدين في ١٣ ابريل سنة ١١٧٥ انتصاراً حاسماً على جيوش الصالح اسماعيل قرب حماه . وترتب على ذلك ان امر صلاح الدين بقطع الخطبة باسم الصالح ، وتقرر عقد صلح بينهما في يوليه سنة ١١٧٦ ، اعترف فيه الامير الزنكي لصلاح الدين بكل ما استولى عليه من البلاد ، وما هو جار تحت حكمه من الشام الاسفل الى حماه [٢] ، وتعهد صلاح الدين بمساعدة الصالح اذا هاجمه عدو ، ولم يسع الخليفة العباسي الا ان يمنح صلاح الدين تقليداً بالسلطنة ببلاد مصر والشام [٣] .

لم يعد في يد الصالح الا امارة صغيرة المساحة ، غير ان الامراء المحيطين به رأوا ان يتولى النضال ضد صلاح الدين ، امير زنكي آخر يحكم بالموصل ، سيف الدين غازي ، فأنفذ الى الحلبيين من اخذ عليهم المواثيق ، وتوجه ذلك الرسول الى دمشق ليأخذ للمواصلة من السلطان عهده ، غير انه اخطأ بأن قدم نسخة يمين الحلبيين الى السلطان ، ومن شرطها انهم لا يعتمدون امراً الا بمراجعة المواصلة واستئذانهم ، فأدرك صلاح الدين ان الحلبيين نقضوا صلحهم معه ، وان الامر استقر بين المواصلة والحلبيين على النهوض لقتاله . فقدمت العساكر المصرية ، ووقع القتال ضد القوات الحلبية الموصلية ، عند قرون حماه وحلب ، فأحرز صلاح الدين انتصاراً حاسماً في ٢٢ ابريل سنة ١١٧٦ ، واسر منهم جماعة من كبار الامراء ، وأعقب ذلك بالاستيلاء على عدد من المواقع الحصينية التابعة لحلب ، ثم القى الحصار على المدينة [٤] . ثم جرى التوسط في الصلح مع السلطان ، فعفا صلاح الدين عما

---

(١) ابوشامه : الروضتين جـ ١ ص ٢٤١ — ٢٤٤ .

(٢) الروضتين : جـ ١ ص ٢٥٠ . Wiet : op. cit. p. 315.

(٣) ابو شامة : الروضتين جـ ١ ص ٢٥٠ .

(٤) ابو شامة : الروضتين جـ ١ ص ٢٥٣ — ٢٥٥ ، ٢٥٦ — ٢٥٧ .

ارتكبه الحلبيون من الاخطاء ، وابقى للملك الصالح حلب وأعمالها ، وتجاوز عن اخطائه ، ورد له عزازاً . وتم الاتفاق مع الملك الصالح على ان يكون لصلاح الدين من حماه وما فتحه الى مصر ، وان يطلق الصالح اولاد الداية وكان الصلح عاماً للحلبيين والمواصلة واهل ديار بكر ، ومن نصوصه انه اذا غدر منهم واحد وخالف ، ولم يف بما حلف عليه ، اجتمع الباقون ضده حتى يرجع الى الوفاق[1] .

على انه ينبغي ألا يغيب عن تفكيرنا ، ان صلاح الدين لم يغفل امر الصليبيين اثناء انصرافه الى معالجة موقفه من نور الدين وابنه الصالح اسماعيل . غير ان ما قام به صلاح الدين من اجراءات ضد الصليبيين ، يصح تقسيمها الى مرحلتين متميزتين . ففي المرحلة الاولى لم يفكر السلطان في القيام بعمليات حربية واسعة النطاق كالتي بدأ بها بعد توحيد مصر والشام [2] والتي تعتبر المرحلة الثـــانية . فحملاته الاولى وجهها الى ارض الصليبيين ، المحصورة بين الاراضي الاسلامية ، والتي تعترض طريق المواصلات بين مصر والشام . وما وقـــع بين صلاح الدين والصليبيين من الاشتباكات حتى سنة ١١٨٠ ، وما تخلل هذه الفترة بين (١١٧٤ـ ١١٨٠) من مهادنة لم تؤد الى تغيير في الاوضاع الاقليمية ، غير ان صلاح الدين افاد من هذه الحروب في امور عديدة ، فبالاضافة الى ما احرزه من انتصارات على الجيوش الصليبية في مواضع عديدة ، وما دمر مما اقاموه من حصون ، لا سيما حصن بيت الاحزان ، بين دمشق وطبرية ، ووقع في يده اسرى عديدون ، ورد الاسطول الصليبي الذي قدم من صقلية وهاجم الاسكندرية ، فانه عمد الى تجديد استحكامات دمشق ، وتهيأت له الفرصة ، بعقد الهدنة سنة ١١٨٠ ، لان يواصل تقوية الاستحكامات . فمن ذلك تقوية الجسر المؤلف من السفن والذي يصل بين

---

(١) ابو شامة : الروضتين ج ١ ص ٢٦١ .

(٢) Wiet : op. cit. p. 316

البرجين اللذين يتحكمان في دمياط[1] وتشييد قلعة في تنيس، وعمارة استحكامات الاسكندرية ، وتلى ذلك قيامه بتفقد هذه المنشآت الحربية ، يضاف الى ذلك اهتمامه بالاسطول والبحرية ، فأفرد له ديواناً خاصاً به [2] .

وفي كل هذه العمليات ، لم يظهر الزنكيون في حلب والموصل من الاستعداد، ما يدل على انهم سوف يساعدون صلاح الدين في استرداد فلسطين من يد الصليبيين، وما احرزه من انتصارات اثناء هذه الفترة ، جعلته يدرك ان النضال ضد الصليبيين انما يحتاج الى ان تنضم جيوش اخرى الى قوات دمشق ، وما يقدم من مصر من قوات. فالقوة التي يستطيع صلاح الدين حشدها في وقت واحد، والتي لا تزيد على ستة آلاف جندي لا تكفي لخوض معركة حاسمة . وطالما استمر الامراء النوريون في حلب تحت زعامة الزنكيين ، فسوف يكونون مصدر خطر شديد على جناحه واذا حدث ان انحازوا اليه ، فسوف يؤدي ذلك الى عداوة الزنكيين في الموصل له . والخلاصة ان صلاح الدين لا يستطيع ان يحشد قوات الشام ومصر ضد الصليبيين، طالما تعرض جناح جيشه ومؤخرته لهجمات الموصل. فلا بد اذن من ان يخضع لسلطانه قوات الموصل التي يبلغ عددها ٦ آلاف مقاتل، وإضافتها الى الجيوش الاقليمية ، التي نهضت للاشتراك في الجهاد ضد الصليبيين[3]، ومن الواضح انه لا يتحقق هذا الغرض الا بنزاع مسلح، غير ان صلاح الدين ابى ان يرفع السلاح في وجه اقوام ، سوف يتخذ منهم حلفاء ، ورأى ان ما يحرزه بفضل الاقناع والمهارة السياسية من النتائج ، يفوق ما يجلبه القتال والنضال . وما توافر لصلاح الدين من هذه المهارة السياسية كفيل بتحقيق اغراضه ، اذ ان

---

(١) Ibid. p 318.

(٢) Wiet : op. cit. p. 318.

(٣) Baldwin : op. cit. p 574.

دعواه بأنه الوريث الروحي لنور الدين، استقرت في اذهان المسلمين، وان القوة الادبية التي كانت في جانب نور الدين والتي تتمثل في الخليفة تحولت الى جانب صلاح الدين ، وعلى الرغم من ان مصالح الزنكيين يؤيدها الحماس المحلي والقوات الموالية لهم، فان صلاح الدين احرز رضى الحزب القوي في كل من حلب والموصل. وما وقع بين الزنكيين من منازعات ، وما قاموا به سراً وعلانية من الاتصال بالصليبيين ، حطم آمالهم واغراضهم . بينما حرص صلاح الدين على مراعاة ما فرضته المعاهدات من قيود والتزامات ، وما للخليفة من سيادة[1] .

وحانت الفرصة لصلاح الدين سنة ١١٨٠ ، لكي ينتزع من سيادة الموصل، امراء الجزيرة وديار بكر ، الذين يتألف من رجـالهم اكثر من نصف جيش الموصل . فعلى الرغم من ان صاحب حصن كيفا يعتبر من اتباع صاحب الموصل ومن الموالين له، فانه استنجد بصلاح الدين ، حينما وقع النزاع بينه وبين السلطان السلجوقي ، واستطاع صلاح الدين ان يسوي النزاع بينهما ، وترتب على هـذا التحالف ما احرزه صلاح الدين من الانتصار على روبين ملك ارمينيا[2] . وما حدث عقب وفاة سيف الدين غازي صاحب الموصل سنة ١١٨٠ ، من حرص صلاح الدين على استرجاع ما بذله من الجهات الى صاحب الموصل ، جعـله لم يستجب لطلب عز الدين مسعود الذي تولى حكم الموصل بعد وفاة اخيه ، بـل كتب الى الخليفة يخطره بذلك وانه لا يستطيـع الاعتماد على قوات مصر فحسب في حملاته بالشام ، انما يحتاج الى قوات هذه الاقاليم، وسأل الخليفة ان يقلده امر

---

(١) Baldwin : op. cit. p. 574.

(٢) Baldwin : op. cit. p. 574.

ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٩٧ ، ٩٨ .

هذه الجهات (سروج والرها والرقة وحران ونصيبين) ، فاجابه الى ذلك [١] ، والواقع ان صلاح الدين اراد بهذه السياسة ان يعزل حلب عن الموصل . ثم عاد الى مصر .

غير ان خبراً مفاجئاً عجل برحيل صلاح الدين الى الشام ، ذلك ان الملك الصالح اسماعيل امير حلب مات في ديسمبر سنة ١١٨١ ، بعد ان عهد بالحكم من بعده الى ابن عمه عز الدين مسعود امير الموصل ، « لكثرة عساكره وبلاده وأمواله ، فيستطيع ان يحفظها من صلاح الدين ويبقي على البيت الاتابكي [٢] . على ان هذا الحادث زاد من غضب صلاح الدين ، لما يترتب على اتحاد حلب والموصل من خطر ضده [٣] . وكان صلاح الدين قد كتب الى الخليفة العباسي الناصر لدين الله يشرح له جهاده ضد الصليبيين في شمال الشام ، ورد ريجنالد شاتيون عن مهاجمة المدينة والدفاع عن قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما قام به من القضاء على الدولة الفاطمية وإعادة المذهب السني الى مصر ؛ وان الخليفة المستضيء جعل حلب من البلاد التي قلدها له ، وانه لم يتركها في يد الصالح بن نور الدين الا لاجل ابيه ، وطلب ردها اليه [٤] .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٩٤ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٣) Wiet , op. cit. p. 138

تنازل عز الدين مسعود عن حلب الى ابن عمه عماد الدين مقابل حصوله على سنجار ، وذلك لانه ادرك انه لا يستطيع حفظ حلب مع الموصل من صلاح الدين (ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٠٩ - ١١٠) .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١١٠ - ١١٢ ؛ ابو شامة : الروضتين جـ ٢ ص ٣١ - ٣٢ .

واذ رأى صلاح الدين ان يتخذ من امراء الجزيرة وملوك الاطراف حلفاء له ضد امير الموصل ، لم يحفل اول الامر بحصار حلب ، بل عبر الفرات سنة ١١٨٢ واستولى على البيرة والرقة والرها وسنجار وحران وديار بكر . وفي ديار بكر استقبل صلاح الدين رسلا من قبل امراء الاقاليم التي استولى عليها ، جاءوا يعتذرون عن مقاومتهم له ، واعلنوا انهم من اجناد السلطان واتباعه ومساعديه « على جهاد الكفرة [١] » . وانحاز ايضاً الى صلاح الدين الاراتقة في ماردين وحصن كيفا . وأقر الخليفة ما قام به صلاح الدين من ضم ممتلكات جديدة الى دولته [٢] .

لم يبق امام صلاح الدين الا ان يزحف على الموصل ويحصرها ، وذلك لاهميتها في توحيد كلمة المسلمين واستعادة بيت المقدس يضاف الى ذلك ان الاستيلاء على الموصل يؤدي الى اثارة الشرق العربي ضد الصليبيين ، فهي حد التقسيم ومركز المقاومة ، فاذا اتخذت وضعها السليم في سلسلة المحالفات ، انتظمت قوة المسلمين ، واجتمعت لمهاجمة قوات الاعداء (الصليبيين) [٣] ، على ان صلاح الدين انصرف عن الموصل مؤقتاً بعد توسط الخليفة العباسي [٤] .

والتفت صلاح الدين بعدئذ الى تسوية حسابه مع حلب وتوابعها ، فاستولى اثناء قدومه من الجزيرة على بعض معاقلها الامامية سنة ١١٨٣ ، ثم عسكر امام حلب ، غير انه جرى الاتفاق بين صلاح الدين وعماد الدين زنكي صاحب حلب ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١١٥ - ١١٧ ، ١١٨ Wiet : op. cit. p. 319

(٢) Wiet : op. cit. p. 319

(٣) انظر Baldwin : The Crusades 1 p 579

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٢٠ - ١٢٢ .

على ان يتنازل عماد الدين عن حلب مقابل الحصول على سنجار وبعض مواقع اخرى (نصيبين ، والرقة ، وسروج)، واشترط صلاح الدين ان تنهض عساكر حلب لمساعدته في مهاجمة الصليبيين ، لانه يعتبر النورية هم جند الجهاد الذين ادوا فيما مضى خدمة كبيرة للاسلام فضلاً عن اعجابه بفروسيتهم [١] ، وجعل ابنه غازي على حلب [٢] . وبذلك تحقق له فيما يبدو غرضه ، الذي كان يرمي اليه وهو توحيد الجبة الاسلامية .

ثم بلغ صلاح الدين من انباء صاحب الموصل ما يدل على محاولته اقامة حلف من الامراء المجاورين (في فارس وآذربيجان) لمهاجمة الامراء الموالين لصلاح الدين من التركمان ، فحشد صلاح الدين قواته بحلب سنة ١١٨٥ ، وسار قاصداً الموصل بعد ان ارسل الى الخليفة بما عزم عليه، فذكر له ان اهل الموصل يخطبون لسلطان العجم (السلجوقي) ، وينقشون السكة باسمه ، وانهم يراسلون الصليبيين ويحرضونهم على غزو بلاد المسلمين ، وانه لم يأت « لاجل الازدياد في الملك ، او التخلص من البيت القديم وقطع اصله (بيت زنكي) ، انما مقصوده ردهم الى طاعة الخليفة ونصرة الاسلام، وردهم عما اعتادوه من الظلم، وقطعهم عن مواصلة العجم ، والتزامهم بما يجب عليهم من حفظ الجار وصلة الرحم [٣] » .

غير ان عماد الدين صاحب سنجار توسط في الصلح بين صلاح الدين وصاحب الموصل ، على ان يتسلم السلطان صلاح الدين بعض المواضع الحصينة المجاورة

---

(١) Wiet: op. cit. p. 139.
ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٢ ص١٤١ – ١٤٢ . ابو شامه : الروضتين جـ ٢ ص ٤٢.
(٢) Wiet : op. cit. p. 319.
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٦٥ .
Baldwin : op. cit. p. 580 .

للموصل ، وتعهد امير الموصل بالنهوض مع صلاح الدين في الجهاد ضد الصليبيين ، وجرت الخطبة لصلاح الدين في جميع بلاد الموصل ،وديار بكر ، وجميع بلاد الاراتقة ، كما جرى ضرب السكة باسمه ، وذلك سنة ١١٨٦ ، ثم عاد الى دمشق بعد ان تم توحيد القوى الاسلامية (١) .

سبق ان اشرنا الى ما قام به صلاح الدين من مهاجمة الصليبيين ١١٧١ ، ١١٧٣ في الشوبك ، وعلى الرغم من ان هذه الحروب لم يترتب عليها تغيير في الاوضاع الاقليمية ، فان كل ما احرزه صلاح الدين من انتصارات ، انما يزيد في ثقته بقوته واعتزازه بها ، فضلاً عن الافادة من اخطاء خصومه . يضاف الى ذلك ما لموضعي الشوبك والكرك من اهمية في التحكم في طريق القوافل الممتد من الفرات الى مصر ، مجتازاً دمشق . وهـــذا هو السر فيما فرضه نور الدين من زيادة في المكس على القوافل القادمة من الجزيرة ، عند دخول دمشق وخروجها منها . وهذا المرسوم الذي تضمن هذه الزيادة ما زال منقوشاً على احدى ابواب دمشق (٢) . امـــا القوافل المتجهة الى مصر ، فخضعت لنظام شديد الصرامة ، اذ تولت حراستها شطراً من الطريق ، قوات من دمشق ، على ان يحل مكانها في الشطر الثاني قوات مصرية ، تعتمد في ارسال اخبارها على البريد وحمام الزاجل . وهذا ما يفسره لنا المقريزي فيما اورده من اغارة صلاح الدين على الكرك والشوبك سنة ١١٧٣ . على ان لهذا الهجوم اهمية اخرى ، تتمثل في اكتشاف الاماكن وارتياد المواضع

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٧١ - ١٧٢ .

Baldwin : op. cit. p. 320

Wiet : op. cit. p. 320

(٢) انظر Wiet : op. cit. p 320

التي سوف تتعرض لهجومه الكبير فيما بعد [١] ؛ لا سيما ان الكرك كان يخضع لريجنالد شاتيون ، الذي جر على مملكة الصليبيين كوارث عنيفة بسبب ما قام به من غارات هوجاء على بلاد العرب براً وبحراً لتخريب الاماكن المقدسة. على ان هذه الغارات حدثت في الوقت الذي اكتملت فيه عدة مصر البحرية والعسكرية . فالمعروف ان بلدوين الرابع ملك بيت المقدس عقد سنة ١١٨٠ هدنة مع صلاح الدين ، ودخل في هذه الهدنة ريموند صاحب طرابلس ، بعد ان تعرضت بلاده الى سلسلة من الغارات المخربة من قبل المسلمين ، وبعد ان استولى الاسطول المصري على جزيرة ارواد . ومن شروط هذا الاتفاق ما يتعلق بحرية التجارة، فكان انتهاك هذا الشرط من قبل ريجنالد ، بما فرضه من الاتاوات على القوافل الاسلامية سنة ١١٨١ ، من الاسباب التي ادت الى توتر العلاقات بين المسلمين والصليبيين، يضاف الى ذلك ما سبق الاشارة اليه، من مضيه الى الحجاز ومحاولة نهب مكة والمدينة والاستيلاء عليهما ، ولم يرجعه عن قصده ، سوى مهاجمة نائب صلاح الدين بدمشق ، لاملاك ريجنالد بالكرك .

غير ان ريجنالد انتهز فرصة انصراف صلاح الدين الى الاستيلاء على حلب، ورأى ان يكون هجومه هذه المرة على مكة والمدينة عن طريق البحر . ففي سنة ١١٨٣ ، انزل بالبحر الاحمر سفناً ، توجهت الى عيذاب فقطعت طريق التجارة ، وشرع المحاربون عليها في القتل والنهب، ثم توجهوا الى ارض الحجاز، وتوجس الناس منهم الشر والخطر. غير ان الاسطول المصري انزل بهم هزيمة منكرة في البحر الاحمر ، ووقع في ايدي المسلمين عدد كبير من الاسرى وسقط كثيرون صرعى [٢] . وكان ذلك من عوامل ذيوع صيت صلاح الدين وتوطيد

---

(١) Ibid. p. 320

(٢) ابن جبير ص ٦ - الرحلة ص ٥٨ - ٦٠ .

مركزه .

وما حدث في النصف الثاني من سنة ١١٨٣ من حملات جعل الصليبيين يتخذون خطة الدفاع . اذ اخذ صلاح الدين ، بعد عودته من حملاته بالجزيرة ، يوجه الحملات التأديبية على املاك الصليبيين ، وحاول الاستيلاء على الكرك ، قلعة ريجنالد وحصنه المنيع ، غير انه انصرف عنه بعد أن تعرض للحصار والضرب بالمجانيق (١) .

ومنذ هذه اللحظة ، اضحت الحملات المقبلة تتحدد في ذهن السلطان ، الذي لم يترك للصليبيين فرصة للراحة والهدوء . وتعرض الكرك مرة اخرى (١١٨٤) لهجوم شديد من صلاح الدين، ثم انصرف عنه صلاح الدين ، وشن الغارات على الجهات الواقعة وراء نهر الاردن ، واخذ يرسل السرايا يميناً وشمالاً ينهبون ويخربون في املاك الصليبيين (٢) .

واضحى صلاح الدين مستعداً للقيام بهجوم ضخم على الصليبيين، وايقن بانه لا بد من القيام بهجوم كبير منظم ضد الصليبيين. واصبح معظم جيش صلاح الدين يعمل في تعاون تام ، وتهيأت الفرصة للقيام بعمليات مشتركة، اسهمت فيها القوى المختلفة من سائر جهات مملكته ، يضاف الى ذلك ما كان للأسطول المصري من نشاط قوي في مهاجمة الصليبيين في السنتين ١١٨٣ ، ١١٨٤ . والتمس ريموند صاحب طرابلس سنة ١١٨٥ الهدنة من صلاح الدين ، فأجابه الى طلبه .

والمعروف ان الهدف الاساسي لصلاح الدين هو ان يوجه كل الجهود لحشد

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٤١ - ١٥٩ .

Wiet : op. cit. p. 355

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٥٨ - ١٥٩ .

جميـــع القوى لمهاجمة الصليبيين ، غير ان ثمة طائفة من مظاهر النشاط لا بد من القيام بها ايضاً لتحقيق هذا الغرض ، ومن ذلك استخدام السياسة . والواقع ان الكتاب لم يحفلوا حتى اليوم ، بما لجأ اليه صلاح الدين ، من استخدام السيـــاسة لعزل الصليبيين في الشام ، والحرص على ان يكون في وفاق وسلام مع كل عدو خارجي ، قبل ان يخوض المعركة الحاسمة (١). ومن الدليل على ذلك ما اتخذه من سياسة نحو المدن الايطالية من جهة ، ونحو الدول البيزنطية من جهة اخرى .

ادرك المسلمون في مصر والشام ، ما للمصالح الايطالية من اهمية في بقـــاء الامارات اللاتينية ، وما يحدث من التنافس بين الجمهوريات الايطاليـــة ، بيزا وجنوه والبندقية .

ومنذ بداية حكم صلاح الدين نشطت تجارتهم في مصر ، وبذلك حصل السلطان على ميزتين الاولى ازدياد موارده ، والثانية اضعاف النشاط التجاري للصليبيين ، لا سيما اذا عرفنا ان صلاح الدين صارت له السيطرة على البحر الاحمر ، ولهـــذه التجارة اهميتها من حيث الاهتمام باعادة بناء الاسطول المصري . وفي رسالة وجهها صلاح الدين الى الخليفة العباسي ، سنة ١١٧٤ ، ما يشير الى المعاهدات التجارية مع جنوه والبندقية ، وانها يحملان الى مصر المواد الحربية (٢) .

ومن اقوى العوامل التي خدمت اغراض صلاح الدين ، ما جرى من المفاوضات السياسية مع الدولة البيزنطية ، التي ادت الى اعادة العلاقات الطيبة مع صلاح الدين ، وتوطدت هذه العلاقات بالمعاهدة التي تم عقدها سنة ١١٨١ ، وكلمـــا ساءت

(١) انظر Baldwin: op. cit. p. 584

(٢) ابو شامه : الروضتين ج ١ ص ٢٤٣ . Baldwin : op. cit. p. 584

العلاقات بين اللاتين وبين البيزنطيين، كلما تحسنت من ناحية اخرى بين صلاح الدين وبين البيزنطيين [1] .

ولم تلته سنة ١١٨٦ ، حتى اكتمل لصلاح الدين من اسباب الاستعداد من الناحيتين السياسية والعسكرية ، ما يحقق هدفه الكبير بالقيام بهجوم شامل على الصليبيين ، ولم يمنعه من المبـادرة الى ذلك سوى سنوح الفرصة ، لا سيما ان صلاح الدين لم يزل متقيداً بالمعاهدة التي عقدها سنة ١١٨٥ فكان لزاماً عليه ان ينتظر حتى ينتهي اجلها او ينقضها الصليبيون من جانبهم. ولم تلبث ان سنحت الفرصة بما قام به ريجنالد شاتيون صاحب الكرك من انتهاك الهدنة التي عقدها الصليبيون مع صلاح الدين، بأن تعرض اوائل سنة ١١٨٧ لقافلة عظيمة متوجهة من القاهرة الى دمشق ، فأخذها بأسرها ، وأسر ما صحبها من الاجناد وحملهم الى الكرك، واستولى على خيلهم وعدتهم، ولم يحفل بتهديد صلاح الدين ورفض ان يفرج عن الاسرى ، فنذر صلاح الدين دمه ، واعطى الله عهداً إن ظفر به ان يستبيح دمه [2] . وترتب على ذلك ان انتقضت الهدنة ، وادرك الصليبيون خطورة تهور ريجنالد، وحاولوا ان يلزموه باصلاح ما افسده، غير انه لم يستجب لرجائهم واعلن انه امير مستقل في بلاده ، ليس مقيداً بالهدنة التي عقدهـا صلاح الدين مع الصليبيين [3] .

والمفروض بعد ذلك ان يتوجه صلاح الدين مباشرة لمهاجمة الكرك ، غير

---

(١) Ibid. p. 584

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٨٥ .

Baldwin : op. cit. p. 606

(٣) Baldwin : op. cit. p. 606

انه اكتفى بما شنه من الغارات على الشوبك والكرك ، وادرك ان حصارهما قد يطول امده ، ولذا اتخذ عشترا التي تقع الى شمال الكرك ، موضعاً لحشد عساكره ، التي قدمت من مصر ودمشق وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر ، وعـين مواقف الامراء وأوقفهم على ما ينبغي ان يسيروا عليه في خطتهم عند الالتقاء بالصليبيين (١) . ثم نزل الجند في غرب طبرية في يونيه سنة ١١٨٧ ، منتظرين مهاجمة الصليبيين لهم ، وكانت طبرية من املاك زوجة ريموند امير طرابلس ، وبلغ عدد قوات صلاح الدين نحو ٢٠ الف جندي . واتخذ الصليبيون مواقفهم في صفورية وكانوا في مثل عدد القوات الاسلاميـة . وكان على الصليبيين ان يختاروا بين ان يتجنبوا الاشتباك مع قوات صلاح الدين ، فيتسرب الملـل الى عساكره ، فيتفرقون الى بلادهم ، واما ان يلتحموا في معركة حاسمة ، وذلك ما اقره القادة الصليبيون . وكيفما كان الامر ، فان الصليبيين جعلوا في هذه الحملة كل ما عندهم ، وعبـأوا كافة مواردهم . واذا كان الجيشان الاسلامي والصليبي متساويين في العدد ، فان النصر سوف يكون حليف الجيش الذي يستطيع ان يدفع الجيش الآخر الى المبادرة بالقتال في ظروف غير ملائمة . وبفضل ما اختاره الصليبيون لجيوشهم من مواضع شديدة الملاءمة ، ولما عزموا عليه من اتخاذ خطة الدفاع ، حرصوا على ان يثيروا المسلمين كيما يبدأوا بالقتال . غير ان خطتهم لم تتحقق بسبب ما وقع في صفوفهم من الاضطراب (٢) .

غير ان صلاح الدين نجح في اثارة الصليبيين للمبادرة بالهجوم ، بما شنه من هجوم خاطف على طبرية ذاتها ، لاعتقاده ان اخبار الهجوم سوف تثير نخوة

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٨٨ .

(٢) Baldwin: op. cit. p. 909

انظر وصف المعركة في كتاب وثائق تاريخ العصور الوسطى .

كونت طرابلس المشهور بشدة الغيرة ، وترغم الصليبيين على خوض المعركة ، ونجحت خطة صلاح الدين ، اذ اصدر الملك جاي لوزجنـــان الامر بالمسير الى طبرية في ٣ يوليه سنة ١١٨٧ ، بينما انسحب صلاح الدين من طبرية ولم يترك بها الا قوة صغيرة ، ورتب جيشه الرئيسي على التلال الواقعة غربي المدينـــة . لم يستطع الصليبيون التقدم الى طبرية ، فتوقفوا في منتصف الطريق ، عند حطين في ٤ يوليه ، فاشتد بهم العطش بعد ان فرغ ما معهم من الماء ، فأخذتهم سهام المسلمين ، وكثر فيهم الجراح ومنعهم المسلمون من ورود الماء ، وكثر فيهم الاسر والقتل ، ثم قام المسلمون بهجوم شامل ، انهوا به المعركة واسروا الملك ومن معه من الامراء والزعماء والقادة ، وترجل السلطان صلاح الدين ، فسجد لله شكراً وبكى من شدة فرحه [1] .

وبعد ان تولى السلطـــان قتل ريجنالد جزاء له على غدره ، جمع الاسارى المعروفين وأمر بحملهم الى قلعة دمشق ، حيث جرى الاحتياط عليهم [2] .

ووجه صلاح الدين اهتمامه بعد حطين مباشرة ، الى ان يستولي على اكبر عدد من الحصون والمدن الهامة في اقصر وقت ، ولذا صوب ضرباته الى الموانى الهامة ، التي لم تبد [3] الا مقاومة ضئيلة . فاستولى على عـــكا ، وقيصرية ، وحيفا ، ونابلس ، ويافا ، وصيدا ، وبيروت ، وجبيل ، والرملة ، وبيت لحم ، وعسقلان . وبذلك تبددت مملكة بيت المقدس .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٩٠ - ١٩٢ .

انظر Baldwin : op. cit. pp. 611-613

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٩٤ - ١٩٥

(٣) Baldwin : op. cit. p 615

ولم يسع صلاح الدين الا ان يهاجم بيت المقدس ، بعد ان استولى على سائر توابعها من المدن، وعلى الرغم من ان الحامية الصليبية ابدت شيئاً من المقاومة، فانها لم تلبث ان قبلت تسليم المدينة بشروط مالية وذلك في اكتوبر سنة ١١٨٧ (١).

ولم يبق في حوزة الصليبيين على الساحل سوى صور وطرابلس وانطاكية، فتوجه صلاح الدين لحصار صور ، غير انها امتنعت عليه بسبب تقاطر الصليبيين عليها من سائر المدن التي فتحها صلاح الدين ، وقدوم كنراد مونتفرات اليها ، وقيامه على تدبير امورها ، فضلا عن المساعدات من قبل الاساطيل الايطالية والامدادات المجلوبة من الغرب (٢). وفي السنة التالية (١١٨٨) توجه صلاح الدين نحو الشمال ، فاستولى على انطرسوس وجبلة واللاذقية ، ووقع هدنة مع امير طرابلس مقابل اطلاق سراح المسلمين الذين في اسره . وفي تلك الاثناء استولى عساكر مصر على الكرك والشوبك . ثم استولى صلاح الدين على صفد (ديسمبر سنة ١١٨٨) ، وعلى كوكب (يناير سنة ١١٨٩) (٣) .

هذه هي النتائج التي ترتبت على ما قام به صلاح الدين من هجوم كبير، وبعث صلاح الدين الى الخليفة العباسي ببغداد بتاج جاي لوزجنان وصليب الصلبوت ومقادير وفيره من الغنائم والاسلاب التي حصل عليها (٤) .

ومن التغييرات الهامة التي حدثت نتيجة فتوح صلاح الدين ، استعادة المسلمين ما كان لهم من نفوذ وسيطرة في هذه البلاد قبل قدوم الصليبيين . على ان

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢١٤ :
Baldwin : op cit. p. 617
(٢) ابن واصل : الكروب ج ٢ ص٢٧٢ . ابو شامة: الروضتين ج ٢ ص١٣٥ - ١٣٦.
(٣) Wiet : op. cit. p. 226
(٤) Wiet : op. cit. p. 326

المسيحيين الوطنيين او السوريين لم يتعرضوا لخطر من الاخطار . وكان لاتجاه الارثوذكسية اليونانية وسائر المذاهب المسيحية الشرقية اهمية كبيرة، اذ رحبت بعودة الحكم الاسلامي ، لما اشتهر به المسلمون من التسامح الديني ، وللعداء التقليدي بين القسطنطينية وروما ، فضلا عن عداء الامبراطورية البيزنطية للصليبيين لا سيما بعد وفاة مانويل ، وجنح اندرونيكوس كومنين الى اقامة نوع من التحالف مع المسلمين، وارسل اسحاق كومنين الى صلاح الدين يهنئه بالاستيلاء على بيت المقدس ، وطلب تجديد التحالف ضد اللاتين ، وان يعود القسس الارثوذكس الى الاماكن المقدسة . والخلاصة ان ما اشتهر به صلاح الدين من التسامح والرحمة والمروءة ، لم يغير في الاوضاع السائدة ، واطمأنت العناصر المخالفة للمسلمين في الديانة ، الى التغيير الجديد .

اما المسيحيون في الغرب، فاعتبروا انتصارات صلاح الدين كارثة شديدة الخطورة ، وتعلقت ارستقراطيتهم بالامل في استرداد ما كان لهم من سلطان ، وشجعهم على ذلك ان بعض المعاقل والحصون لا زالت في ايدي الصليبيين، وان صور اضحت قاعدة قوية لهم ، واكثر من ذلك ان اوربا ادركت خطورة انتصارات صلاح الدين ، وترتب على ذلك ما حدث من الاعداد للحملة الصليبية الثالثة (١) .

---

(١) Baldwin : op. cit. p. 611 . انظر كتاب وثائق تاريخ العصور الوسطى .

المصادر والمراجع

المصادر :

لمعالجة مصادر الحروب الصليبية ، يحسن ان نبدأ بالتواريخ والقصص لا بالوثائق ، على الرغم من ان ذلك لا يعتبر امثل الطرق وخيرها من الناحية العلمية . فمن نتائج الحروب الصليبية ، كما سبق الاشارة الى ذلك ، ما ادى الى الاهتمام البالغ في كتابة التاريخ. فالمحاربون الصليبيون خلفوا لنا مذكرات يومية، او سجلوا خطوط سيرهم Itineraria ، على حين ان رجال الكنيسة الذين لزموا ديارهم بالغرب ، ومنهم رهبان مثل روبرت من دير ريمس Rheims ، ورؤساء اديرة مثل جيلبرت رئيس دير نوجنت Guilbert of Nogent ورؤساء اساقفة مثل بالدريخ رئيس اساقفة دول Balderich of Doi ، وجدوا في تاريخ الحروب الصليبية موضوعاً خصباً لأقلامهم . فتاريخ طائفة من الاعمال كالحروب الصليبية ، ينبغي ان يعتمد اساساً على هذه التواريخ وعلى الاخص على النوع الاول منها ، فالقصص ينبغي ان تسبق الوثائق ، حيث لا تجري معالجة الحياة المستمرة لنظام مرتب ثابت ، انما تجري معالجة طائفة من المغامرات ، لا سيما حين ابدع الكتاب المعاصرون ، كما في هذه الحالة، في وصف ما شاهدوه .

اولا – تواريخ الحروب الصليبية وما ارتبط بها من القصص .

(١) المجموعات – جرى جمع المصادر الاصلية عن الحروب الصليبية في المؤلفات الآتية :

– Bongars : Gesta Dei per Francos (Hannover 1611)

وهي غير كاملة

– Michaud : Bibliothêque des Croissades (Paris 1829)

ويشتمل هذا الكتاب على ترجمة نصوص مختارة من المصادر .

– Recueil des Historiens des Croissades (Paris 1841)

نشر هذه المجموعة

Academie des Inscriptions .

وهي خير مجموعة ، اشتملت على عدد كبير من المصادر اللاتينية واليونانية والارمنية ، فضلا عن نصوص قوانين مملكة بيت المقدس ، ولم تكتمل بعد .

ومن هذه المجموعات ايضاً منشورات Société de l'Orient Latin (وهذه الجمعية تأسست سنة ١٨٧٥) ، لا سيما ما يتعلق منها بالمخطوطات ، التي لم يصدر منها الا مجلدان في سنة ١٨٨١ ، وسنة ١٨٨٤ ، وما صدر سنوياً عن مجلة الجمعية Revue de l'Orient Latin من المؤلفات منذ ١٨٩١ حتى سنة ١٩٠٢ ، التي لم تشتمل فحسب على نصوص جديدة ، بل حوت ايضاً مقالات وعرضاً لبعض الكتب كبيرة الاهمية .

(٢) مصادر خاصة – فالحروب الصليبية ، وهي حركة شغلت كل اوربا ، وجعلت الغرب يتصل بالشرق ، ينبغي ألا تدرس فحسب في المصادر اللاتينية في اوربا وفلسطين، بل ينبغي ايضاً دراستها عند المؤلفين من البيزنطيين والارمن والمسلمين . ولذا فان ثمة من وجهات النظر الاربعة او الخمسة ما ينبغي دراستها.

الحرب الصليبية الاولى : اضحت ، اكثر من غيرها ، موضوعاً لطائفة كبيرة

من الكتابات، التي لا بد من التمييز بين درجات قيمتها. فكتاب وليم الصوري المعروف ظل حتى سنة ١٨٤٠ ، المرجع الذي يجري الاعتماد عليه في تاريخها . وجرى وليم الصوري في معالجة الحرب الصليبية الاولى ، على النهج الذي اتبعه Albert of Aix . ولذا اعتبر بطرس الناسك المسئول الاول ، عن اثارة الحرب الصليبية ، غير ان ما اشار اليه رانكه Ranke حوالى سنة ١٨٤٠ ، واثبته فون سيبل Von Sybel في كتابه المعروف :

Geschichte des ersten Keuzzuges

بأن ألبرت لم يكن مصدراً ثبتاً، جعل من المحتم اغفال ما كتبه وليم الصوري، عن الحرب الصليبية الاولى ، ولا بد من استخدام مصادر اخرى معاصرة لها . ولذا اعتمد فون سيبل ، عند كتابته تاريخ الحرب الصليبية الاولى ، على ثلاثة مصادر غربية معاصرة : اعمال الفرنجة [١] ، وريموند اجيل ، وفولشر Gestea Froncowm, Raymund of Agiles , Fulcher وما ابداه فون سيبل ، من وجهة النظر في قيمة ومكانة البرت وتاريخه عن الحرب الصليبية الاولى ، اخذ بها المؤرخون ، ولم يخرج عليها الا كيجلر Kugler الذي حاول ان يرد الاعتبارات الى البرت ، ومن ثم يصح ان يعتبر كتاب فون سيبل ثورة في تاريخ الحرب الصليبية الاولى ، بعد ان نزع عنها مظاهرها الاسطورية ، وبعد ان تبين كشف سيرها الصحيح .

واذا اخذنا المصادر الغربية عن الحرب الصليبية الاولى ، كل منها على حدة ، فيصح تقسيمها ، في ضوء كتاب فون سيبل ، الى اربعة انواع : تواريخ الذين شهدوها بأعينهم ، والمؤلفات التي استندت على هذه التواريخ ، ثم القصص

(١) انظر حسن حبشي : اعمال الفرنجة ـ القاهرة سنة ١٩٥٨ (المقدمة) .

الاسطوري وشبه الاسطوري ، اما النوع الرابع وهو الاخير والذي يعتبر في حد ذاته نوعاً قائماً بذاته ، فهو تاريخ وليم الصوري الذي يعتبر مؤرخاً تغلب عليه الصفة العلمية ، لا كاتب حوليات .

(١) فالذين شهدوا الحملة الصليبية الاولى ، اشهرهم ثلاثة : المؤرخ المجهول الذي ألف اعمال الفرنجة ، وريموند ، وفولشر . فالمؤلف المجهول لاعمال الفرنجة (انظر طبعة Hagenmeyer – هيدلبرج سنة ١٨٩٥) . كان من النرمان بجنوب ايطاليا ، وتوجه مع جيش بوهمند ، ولذا فهو يصف سير الحملة الصليبية الاولى من وجهة نظر النرمان . واشتهر هذا المؤلف بأنه من العلمانيين ، صحب الجيش المحارب ، واشترك في القتال ، ولذا يعتبر كتابه عظيم الاهمية ، لانه يمثل رأي المحارب الصليبي العادي . يضاف الى ذلك انه شهد الحملة من بدايتها الى نهايتها ، وانه عاصرها ، فكتب تاريخ كل حادث كبير وقت وقوعه .

اما ريموند فهو بروفنسالي من رجال الدين ، صحب جيش ريموند امير تولوز ، وكتب تاريخه المعروف باسم تاريخ الفرنجة الذين استولوا على بيت المقدس Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem وذلك من وجهة نظر البروفنساليين . وهو يعرض تاريخاً كنسياً للحملة الصليبية الاولى ، فحفل تاريخه بالظواهر الروحانية التي صاحبت اكتشاف الحربة المقدسة ، وما ترتب على اكتشافها من نتائج . واتخذ كتابه في معظم الاحيان اسم «رؤيات بطرس بارتلميو وآخرين Visions of Peter Partlrolomew and Others » . ومن الطبيعي ان تجري كتابته على نحو قصص ديفو Defoe . وكان ريموند ايضاً من شهود الحملة الصليبية الاولى ، واشتهر بالامانة التامة ، ويلي تاريخه في الاهمية ، كتاب اعمال الفرنجة .

وصحب فولشر جيش روبرت النرمندي ، غير انه في اكتوبر سنة ١٠٩٧ ،

انضم الى بلدوين اللوريني في حملته على الرها ، ثم صحبه بعدئذ في كل ما اصابه من الحظوظ. وتاريخه المعروف بتاريخ بيت المقدس Historia Hierosolymitano (الذي نشره هيجنمير ـ في هيدلبرج سنة ١٩١٣) ، والذي وصل فيه الى سنة ١١٢٧ م ، ولم يشتمل فحسب على تاريخ الحملة الصليبية الاولى ، بل انطوى ايضاً على تاريخ تأسيس مملكة بيت المقدس . وهذا التاريخ انما يمثل بصفة عامة وجهة نظر اللوثرنجيين ، ويعتبر بذلك تكملة طبيعية لتاريخي المؤلف المجهول وريموند . على ان تاريخه عن الحرب الصليبية الاولى ، لا يعتبر كبير القيمة (لانه كان غائباً في الرها ، اثناء سير الحملة) . وفيما عدا ذلك يعتبر تاريخاً بالغ الاهمية . على ان فولشر المشهور بأنه شيخ دعي ، خلط تاريخه بكثرة ما اورده فيه من الجغرافية وعلم الحيوان ، والتاريخ المقدس .

والى جانب هؤلاء المؤرخين الثلاث ، الذين يعتبرون شهود عيان للحملة الصليبية الاولى ، يصح ان نذكر ايضاً الحوليات الجنوية Annales Genueuses التي ألفها القنصل الجنوي Caffarus [1] ، وكذا الحوليات البيزاوية Annales Pisani التي صنفها Bernardus Marago لما لهما من اهمية وفائدة في دراسة الحرب الصليبية الاولى من الناحيتين التجارية والايطالية . ويضاف الى ذلك تاريخ بيت المقدس المعروف باسم Hierosolymita ، الذي ألفه Ekkehard الالماني ، رئيس دير اورا Aura ، الذي قدم اول مرة الى بيت المقدس حوالي سنة ١١٠١ . ولهذا الكتاب قيمته (انظر طبعة هيجنمير ـ تيبنجن سنة ١٨٧٧) ، على الرغم من ان المؤلف اعتمد فيه من ناحية ، على اعمال الفرنجة ، ومن ناحية اخرى على كتاب اعمال

---

(١) ورسالته الحافلة بالاساطير ، والمعروفة باسم :
De liberatione civitatum Orientis .
جرى تأليفها حوالي سنة ١١٥٥ م (انظر Barker , 106 , note 1)

تانكرد Gesta Tancredi ، الذي ألفه Raoul of Caen ، بناء على ما استمده من المعلومات من تانكرد ذاته. وعلى الرغم من ان الكتابين الاخيرين لا يعتبران من مصنفات اولئك الذين شهدوا الحرب الصليبية الاولى ، فانهما يعتبران من المصادر الاولى ، وينتميان الى فئة المؤلفين الاوائل ، لا فئة المؤلفين المتأخرين . ويجوز ان نضيف آخر الامر الى الكتاب المعاصرين للحرب الصليبية الاولى ، الرسائل المعاصرة لا سيما تلك التي كتبها Stephen of Blois (ستيفن بلوا) و Anselm of Rabemont ، وكذا الرسائل التي وجهها الى الغرب ، الامراء الصليبيون في الحملة الصليبية الاولى. (انظر هيجنمير – Epistulae et Chartae[1] – طبعة انسبروك سنة ١٩٠١) .

(ب) واستندت المصنفات المتأخرة ، اساساً الى كتاب اعمال الفرنجة ، الذي عمد كتاب كليرون الى اصلاح اسلوبه المعقد .

واول هذه المصنفات كتاب Tudebod المعروف باسم Historia de Hierosolymitano itinere الذي لم يكن سوى الاصل ، على حد ما كتبه Besly في سنة ١٦٤١ ، ولم يكن كتاب اعمال الفرنجة الا صورة منقولة عنه ، وليس ذلك الا قلباً للحقيقة ، كما اثبت ذلك فون سيبل بعد مضي قرنين على ذلك التاريخ .

ثانياً – والى جانب كتاب تيديبود ، المنقول عن كتاب اعمال الفرنجة ، ثمة اولئك المؤلفون الذين دأبوا على الاخذ عن كتاب اعمال الفرنجة ، وأقروا واعترفوا بفضله عليهم ، غير انهم دافعوا عن ذلك ، بما اشتهر به الاصل الذي اعتمدوا عليه ، من رداءة الاسلوب . ومن هؤلاء جيبرت رئيس دير Nogent ،

---

(١) تولى الكونت Riant عرض هذه الرسائل ونقدها في مؤلفه المعروف باسم : Inventaire Critique . (Paris 1880) .

وبلدريخ رئيس اساقفة دول، وروبرت الراهب بدير ريمس (وجميعهم تقع وفاتهم بين حوالي ١١٢٠ – ١١٣٠) ، وفولكو Fulco مؤلف القصيدة الفرجيلية عن الحروب الصليبية ، التي ذيل عليها جيلو Gilo (مات حوالي سنة ١١٤٢) . على ان الراهب روبرت طغت شهرته في العصور الوسطى ، على شهرة كل من جيبرت رئيس دير نوجنت ، والمعروف بالتعاظم والكبرياء ، ومن رئيس اساقفة دول ، المعروف بهدوئه وميله الى الحدائق .

(جـ) على ان نمو اسطورة او قصة ، الحروب الصليبية الاولى ، بدأ على حد قول فون سيبل ، اثناء الحملة ذاتها . واساس هذا النمو يرجع من جهة ، الى ما يشتهر به جميع الناس من ميل فطري الى رواية القصص ، التي تزيد في ارتفاع شأن الحادث ، وتمعن في وصف شدة وقعة من الوقائع ، او تبالغ في اظهار وجه الاختلاف ، هذا الميل الذي يتضح فيما يشبه القصص الايسلندية ، من امثال قصة برنت نيجال Burnt Nijal ، وترجع من جهة اخرى الى الميل الى عبادة الاصنام ، اذا جاز تسمية ذلك الميل او الغريزة بذلك الاسم ، الذي يجعل من عظمة الشخصية المحبوبة شيئاً مستحيلا ، وجعل قياساً على ذلك ، من بطرس الناسك وجودفري بويون ، شخصيات اسطورية ؛ وترجع ايضاً الى الحافز الديني الذي لم يجد في الحرب المقدسة شيئاً رائعاً ، فاتخذ عناصر المعجزات ، حتى في الصفحات الجديدة من كتاب اعمال الفرنجة . هذه الغرائز (الميول) والحوافز تأثر بها الجند اثناء الحرب الصليبية ، وترتب عليها من القصص والحكايات ما لا يقابلها الا من كان من الشعراء في المعسكر ، لاننا نعلم ان شاعراً اسمه رتشارد ، اشترك في الحرب الصليبية الاولى ، وصار يشيد بأعمالها نظماً ، وأشهر منه الامير الشاعر التروبادوري ، وليم صاحب اكيتانيا ، الذي اشترك في الحملة الصليبية (سنة ١١٠٠) . فاذا اخذنا برأي فون سيبل ، لا رأي كيجلر ، فان قصة الحرب الصليبية الاولى ،

انما ظهرت لاول مرة (حوالي سنـــة ١١٢٠) في مؤلف البرت المعروف باسم Historia Hierosolymitana الذي لم يكن الا قصة ، بما انطوت عليه من عدم الترابط ، والاخطاء في ترتيب الحوادث ترتيباً زمنياً ، والاخطاء في خطط المدن والبلدان ، وما يغلب عليها من الطابع الشعري ، وما اوردته من الاوصاف الحية للمعارك . على ان كيجلر اعتبر ان البرت انما فعل مثلما فعل تيديبود(١) ، بأن نقل كل ما رواه عن كاتب مجهول ، عظيم القدر ، ينتمي الى الجيش اللوثرنجي في اثناء الحرب الصليبية الاولى ، ثم استقر بعدها في مملكة بيت المقدس (انظر : Kugler : Albert von Aachen , Stuttgart 1885) . واكثر ما اتضحت اسطورة الحرب الصليبية ، انما كان في قصيدة البؤساء Chanson des chetifs وانشودة انطاكية . وجرى تأليف القصيدة الاولى في انطاكية حوالي سنـــة ١١٣٠ ، وجعلت من بطرس الناسك بطلا اسطورياً . اما الثانية فقصيدة ألفها حوالي سنة ١١٨٠ م ، Graindor of Douai ، الذي اتخذ من اشعـــار المحارب الصليبي رتشارد اساساً لقصيدته ، (انظر طبعة Paulus Paris . 1848) وتبين هذه القصيدة ما جرى من نمو الاسطورة التي اعتبر فيها رتشارد ما شاهده الناسك من رؤية ، مسئولة عن الحرب الصليبية ، وتجعل الحملة التي قادها بطرس الناسك تسبق ، على الرغم مما اصابها من الفشل ، انعقاد مجمع كليرمونت (الذي ورد تاريخ انعقاده ، على انه مايو لا نوفمبر) . ولا داعي لأن نمضي هنا في شرح ازدياد نمو العامل الاسطوري

---

(١) ينبغي تعديل رأى فون سيبل بما ذهب اليه كيجلر من رأى ، ايده وتمسك به هيجنمير (انظر ما جاء في ص ٦٢ – ٦٨ من كتاب اعمال الفرنجة الذي قام على نشره) . ويميل هيجنمير الى الاعتقاد في وجود مؤلف اصيل ، يختلف عن البرت ، ويرى ان هذا الكاتب الاصيل (سواء شهد الحرب الصليبية او لم يشهدها) ، افاد ايضاً من كتاب اعمال الفرنجة ومن كتاب فولشر .

انظر : (Barker p. 107 note 1)

في الحرب الصليبية الاولى (١) ، على انه جدير بالذكر ان الاسطـــورة الفرنسية المتعلقة بالحرب الصليبية الثالثة عمدت ايضاً الى تغيير الحقيقة ، فجعلت رتشرد الاول يعود الى انجلترا يجلله الخزي والعار ، بينما بقي فيليب اغسطس ، فاستولى على دمشق واصاب صلاح الدين بجرح مميت (انظر Gaston Paris في مقدمة الكتاب:

Estoire de la Guerra Sainte - Paris 1897

(د) اما وليم الصوري ، فهو مؤرخ تغلب عليه الصفة العلمية والتدليل المنطقي ، ادخل في تاريخه المتزن المترابط ، الذي احتذاه المؤرخون قروناً عديدة ، مـــا استخلصه من اخبار شهود الحرب ، وما اشتهر به القصص من التفاصيل الزاهية ، غير انه ازداد ميله الى الاخذ بالتفاصيل القصصية فيما يتعلق بالحرب الصليبيـــة الاولى . ووليم الصوري من اهل فلسطين ، ولد حوالي سنة ١١٣٠ ، وتلقى تعليمه في الغرب . فلما عاد ، حظي بتقدير امالريك الاول له ، فجرت رسامته شماساً ثم رئيساً للشمامسة بصور ، ثم اصبح مؤدباً لبلدوين الرابع (١١٧٠) ، فلما تولى بلدوين الحكم ، صار وليم مستشاراً للمملكة ، ورئيساً لاساقفة صور (١١٧٤ — ١١٧٥) . وجرى استخدامه عادة في السفارات والمفاوضات ، وباعتبـــاره مستشاراً ، كان مسئولا عن المحافظة على محفوظات المملكـــة . واشتهر وليم بالاتزان والاعتدال ، ولذا كان له من الصفات العديدة ما يؤهله لان يكتب تاريخاً صادقاً غير متحيز . اشتهر بدرايته باللغتين العربية واليونانية ، وبالمامه التام بما يجري في القسطنطينية من الامور ، وقد زارها مرتين على الاقـــل ، كما اشتهر بمعرفته بتاريخ الدول الاسلامية ، التي ألف عنها كتاباً (يعتبر مفقوداً) ، بناء

---

(١) Pigonneau : Le Cycle de la Croissade. (Paris 1877)

Hagenmeyer : Peter der Eremit (Leipzig 1879).

J. Bedier : Le Chansons des Croissades (Paris 1909).

على طلب امليريك . واملريك هو الذي كلفه ايضاً بتأليف كتاب عن الحروب الصليبية ، وهو الذي ما زال في حوزتنا (ويقع في ٢٢ كتاباً وجزء من الكتاب الثالث والعشرين) واشتهر باسم :

Historia rerum in partibus transmarinis gestatarum .

وصنف وليم الكتاب في ازمنة مختلفة ، تقع بين سنة ١١٧٠ ، وسنة ١١٨٣ ، حيث توقف فجأة ، واختفى مؤلفه فجأة ايضاً . ويقع الكتاب في قسمين : الاول (ويشتمل على الكتب من ١ الى ١٥) مستمد من المؤلفات السابقة . اما الثاني (الذي يحتوي على الكتب من ١٦ الى ٢٣) فيعتبر مبتكراً . وفي القسم الثاني ، كان مصدره ما توافر له من الدراية بالحوادث . وما حصل عليه من المعلومات من المعاصرين ، واستخدم في القسم الاول نفس المصادر التي لا نزال نعتمد عليها : امثال كتاب اعمال الفرنجة ، ومؤلف فولشر والبرت ، فاختار منها ما يساعده في صياغة قصة بالغة الروعة ، دون ان يتقيد بمبدأ النقد . ولذا فلا يعتبر كتابه اصيلا الا ابتداء من تاريخ الحملة الصليبية الثانية . غير ان ما اشتهر به اسلوبه من الروعة والجمال (اذ يعتبر من اعظم كتاب العصور الوسطى واحسنهم صياغة واسلوباً) ، وما اضفاه عليه مركزه من الهيبة ، جعل من كتابه المصدر الوحيد لكل تاريخ القرن الاول من الحروب الصليبية . وعلى الرغم مما اورده في سيرته من العناصر الاسطورية ، يعتبر جديراً بما ناله من شرف وتقدير ، اذ انه في الواقع كان مؤرخاً عظيما في كل ما يتعلق بمادته ، وفي ادراكه لموضوعه ، واشتهر ايضاً بالذكاء ، وعدم التحيز ، وصدق المعلومات ، والطرافة ، على الرغم مما تراءى في اسلوبه من النزوع للخطابة ، وما جرى من الغموض في التواريخ والترتيب الزمني .

وفي اثناء العصور الوسطى انتشر كتابه في ترجمة فرنسية اشتهرت باسم

Chronique d'Outremer او باسم Roman d'Eracles(اتخذت هذا الاسم لما ورد في مستهله من الاشارة الى الامبراطور هرقل) . هذه الترجمة ذيل عليها مؤلفون آخرون حتى سنة ١٢٧٧ . والى جانب ما اتصل بكتاب Livre d'Eracle من التذييلات ، ثمة تذييلات اخرى مستقلة ، تعتبر كتباً قائمة بذاتها ، ألفها ارنول Ernoul ، وبرنارد صاحب بيت المال Bernard the Treasurer . هذان الكتابان الاخيران اللذان ألفها ارنول وبرنارد ، يعالجان الفترة الواقعة بين سنة ١١٨٣ ، وسنة ١٢٢٨ ، ويعتبر تاريخ ارنول ، فيما يبدو ، المصدر الاصلي ، بينما لم يكن تاريخ برنارد في معظمه الا نسخة من ارنول . غير ان كل موضوع المذيلـــين على كتاب وليم الصوري ، يقتضي مزيداً من التحقيق .

وينبغي ان يضاف الى ما ورد عن الحرب الصليبية من المصادر الغربيـــة ، المصادر الشرقية ، من بيزنطية وعربية وارمنية . واهم المصادر البيزنطية كتاب الالكسياد Alexiad الذي ألفته أنه كومنين Anna ، وذلك يرجع من جهة لمكانة المؤلفة ، ومن جهة اخرى الى نقط الاتصال العديدة بين البيزنطيين والصليبيين . ولتاريخ أنه اهمية من حيث انها قامت بتصويب ما جاء في المصادر الاوربية الغربية من التعصب ضد الكسيوس ، وانها جعلت لبوهمند ما يستحقه من شهرة . اما وجهة النظر الارمنية عن الحرب الصليبية الاولى ، وإمارة الرها التي انشأها بلدوين ، فقد عرضها متى الرهاوي Matthew of Edessa في كتابه المعروف بتاريخ ارمينيا. لم تحفل اللغة العربية بالحرب الصليبية الاولى الا قليلا ، فلم تبدأ اهمية المصادر العربية وقيمتها الا منذ ظهور الاتابكة بالموصل (حوالي سنة ١١٢٧) . غير ان كتاب كمال الدين (بن العديم) المعروف باسم بغية الطلب في تاريخ حلب (الذي جرى تأليفه في القرن الثالث عشر الميلادي) اشتمل على بعض تفاصيل تتعلق بالحرب الصليبية الاولى. اما كتاب اسامة بن منقذ (وهو ترجمة ذاتية لامير من

امراء شيزر بشمال الشام ، الذي نشره وشرحـــه درينبورج Derenbourg ، في المنشورات المعروفة باسم :

(Publications de l'Ecole des langues orientales vivantes)

فانه يصور رأي احد المسلمين ، الذي شملت حياته معظم القرن الاول من الحروب الصليبية (١٠٩٥ — ١١٨٨) .

اما الحرب الصليبية الثانية فان مصدرها الاساسي في الغرب ، انما هو كتاب اودو دييل Odo de Deuil ، المعروف باسم :

De prefectione Ludovici VII regis Francorum in Orientem

وأودو كان راهباً ، اتصل عن طريق سيجر ، بالملك لويس السابع في الحرب الصليبية الثانية . وكتب الى سيجر اثناء الحرب ، سبع رسائل ، جرى جمعها سوياً بعدئذ في مؤلف واحد . ويبين وجهة النظر الالمانية كتاب اعمال فردريك الاول Gesta Fridrici Primi الذي ألفه Otto of Freising (الذي اشترك في الحملة الصليبية الثانية . انظر قسم ١ : الفصل ٤٤ وما يليه) .

ولحق بالكتاب الاول الرسائل التي وجهها الملك لويس السابع الى سيجر ، ولحق بالكتاب الثاني رسائل كنراد الثالث الى ويبالد Wibald رئيس ديري ستابلو Stablo وكورفي Corvey . أما وجهة النظر البيزنطية فعرضهـــا Cinnamus في كتابه Enitoun كاتم سر الامبراطور مانويل والذي ذيل على كتـــاب أنه كومنين المعروف باسم الكسياد (اعمال الكسيوس Alexiad) فجعل تلك التكملة في كتاب افرده لحكم حنا ومانويل كومنين. ويعتبر كتاب وليم الصوري مصدراً اساسياً منذ الحرب الصليبية الثانية ، ويمثل اتجاه الفرنج في بيت المقدس . ومن وجهة النظر الاسلامية يعتبر كتاب ابن الاثير مصدراً عظيم الاهمية . فمؤلفه

عن تاريخ الاتابكة جرت كتابته حوالي سنة ١٢٠٠ م ، راعى فيه صالح زنكي ونور الدين ، بينما لم ينل صلاح الدين هذا الاهتمام (لانه نحى سلالة نور الدين عن الحكم) ، ويعتبر تاريـــخ الامارة الاسلامية الكبيرة التي قضت آخر الامر على مملكة بيت المقدس [١] .

ويعتبر كتاب ابن الاثير ، بالاضافة الى كتاب بهاء الدين (ابن شداد) من اهم ما صنفه المسلمون من التواريخ . يشير المؤلف (باركر) الى ان المؤلفـــات العربية كتبها رجال مارسوا الحياة العامة ، فكان منهم الولاة ، والكتـــاب والسفراء (الرسل) ، فلم يكونوا عند كتابتهم مجردين من التحيز [٢] .

وجرت معالجة الحرب الصليبية الثالثة ، من وجهات نظر عديدة تتمثل في المصادر الانجليزية النرمندية والفرنسية والالمانية . فالمصدر الاساسي الانجليزي النرماني يتمثل في كتاب Carmen Ambrossii ، الذي عنوانه ، كما يذكر جاستون باريس Gaston Paris ، تاريخ الحرب المقدسة L. Estoire de la Guerre Sainte ، وهو عبارة عن قصيدة منظومة باللغة الفرنسية ، ألفها امبرواز Ambroise ، وهو شاعر غنائي من النرمان ، توجه مع رتشارد الاول الى الارض المقدسة ، وجرى العثور على هذه القصيدة لاول مرة حوالي سنة ١٨٧٣ ، فنشرها جاستون باريس (باريس ١٨٩٧) . اما المؤلف الذي عنوانه طريق الحجاج Itinerarium Peregrinorum ، الذي جرت كتابته باللغة اللاتينية في نثر مسجوع ، فلم يكن الا ترجمة (باستثناء الكتاب الاول منه) لكتاب كارمن ، اختفى في هيئـــة كتاب مستقل . ومن الواضح انه قطعة ادبية من المدح ، وان مؤلفهـــا رتشارد

---

(١) وردت مصادر الحملة الصليبية الثانية في كتاب كيجلر .
Kugler : Studien Zur Geschichte des Zweiten Kreuzzuges . (Stuttgart , 1866) .

(٢) هذا الرأي ينطبق على مؤرخي الحروب الصليبية الغربيين. انظر ما ورد عنهم فيما سبق.

(كاهن كنيسة Holy Trinity في لندن) ، لم يكن موقفه من كارمن الا مثـل موقف تيديبود من مؤلف اعمال الفرنجة ، او البرت الآخيني من الكتاب الذي زعمه لنفسه . وقام ايضاً بوصف الحرب الصليبية الثالثة من وجهـة النظر الانجليزية ، سائر المؤرخين المعاصرين امثال : Ralph of Coggeshall الذي افاد مما حصل عليه من اخبار عن الصليبيين الذين اشتركوا في الحملة ، و William of Newburgh الذي استطاع ان يحصل على مؤلف كتبه انسلم قسيس الملك رتشارد وهذا الكتاب غير معروف الآن (١) . اما وجهة النظر الفرنسية ، فعرضهـا ريجورد Rigord في كتابه Gesta Philippi Augusti (اعمال فيليب اغسطس) ، وفي Gesta (وهو مجمل لكتاب ريجورد وتكملة له) وفي كتاب Philippeis ، وكلا الكتابين من اعمال وليم البريتوني William of Breton . وكلا الكتابين اتهما رتشارد بأنه تابع لا ايمان له ، على حين ان رتشارد ظهر على انه جلف امتلأ كبراً وغطرسة كما تمثله الكاتبان الالمانيان : تاجينو Tagino رئيس اسقفية باساو Passau ، الذي ألف كتاب عن حملة بربروسة الصليبية (١١٨٩ — ١١٩٠) ومشهـور باسم Descripto ، وانزبرت Ansbert ، وهو من رجال الدين النمساويين ، وكتب ايضاً عن حملة الامبراطور فردريك De Expeditione Friderici . وجاء وصف رتشارد في المؤلفات العربية في كتاب ابن شداد عن سيرة صلاح الدين . والمعروف ان ابن شداد كان من كبار الموظفين الذين خدموا صلاح الدين ، ولذا صـار يفخر بسيده ، وجرى الاضطراب والخلط في ترتيب الحوادث ترتيباً زمنيـاً ، وعلى الرغم من تحيزه في الكتابة ، يعتبر كتابه بالغ الاهمية . وما لحق كتاب وليم الصوري من تكملات عديدة ، انما تمثل رأي الفرنج المستوطنين (الذين يعتبرون

---

(١) عن هؤلاء الكتاب المعاصرين انظر Archer : Crusade of Richard I, Appendic
(Nutt's series of Histories from Contomparary Writers) .

معادين لرتشرد الاول) . اما نكيتاس Necetas الذي ألف كتاباً عن التاريخ البيزنطي في الفترة الواقعة بين سنة ١١١٨ وبين سنة ١٢٠٦ ، فيعتبر مؤرخاً بيزنطياً يختلف ، على حد رأي بيوري ، عن كل من أنه كومنين ، وكيناموس Cinamus ، فما اورده عن الصليبيين ، واعتبره بيوري مؤرخاً منصفاً .

والمصدر الاساسي عن الحرب الصليبية الرابعة يتمثل في كتاب :

Villehardouin : La Conquête de Constantinople .

وهذا الكتاب ليس الا تبريراً رسمياً لتحويل الحملة الصليبية الى القسطنطينية ، ألفه احد قادة هذه الحملة . وذيل على هذا الكتاب روبرت كلاري Robert de Clary بكتابه المعروف باسم La Prise de Constantinople وروبرت دى كلاري فارس من فرسان بيكارديا ، وهو يمثل العنصر غير الرسمي في الحروب الصليبية ، فوصفها كما تبدو لمحارب عادي . اما الكتاب المعروف باسم :

The Book of the Conquest of Constantinople and the Empire of Rumania .

فقد ألفه شعراً باللغة اليونانية بعد سنة ١٣٠٠ ، كاتب من اصل يوناني فرنجي وجرت ترجمته الى اللغة الفرنسية منذ زمن مبكر . ويروي الكتاب حوادث الحملة الصليبية الرابعة ، وكذا حوادث الحملة الصليبية الاولى : اما تاريخ المورة Chrouicle of Morea ، فانما يمثل وجهة نظر الفرنج ، على الرغم من انه كتب شعراً باليونانية ـ ونلتمس وجهة النظر البيزنطية في نكيتاس [١] .

وتدخل الحملات الصليبية المتأخرة ، ابتداء من الحملة الخامسة الى الحملة الثامنة ، في نطاق الكتب المذيلة على وليم الصوري ، الذي سبق الاشارة اليه .

---

(١) عن مصادر الحملة الصليبية الرابعة انظر :

Klimke , Die Lnellen znr Geschrchte des vrerten Kreruzzuges .(Breslau 1875)

فبينما تناول كتاب Historia Orientalis الذي ألفه جاك فيترى Jacques de Vitry، والذى اشترك في الحملة الصليبية الخامسة ، وتوفي سنة ١٢٤٠ ، تاريخ الحوادث حتى سنة ١٢١٨ ، (لم يكن الكتاب الثالث الا اضافة متأخرة) . ومن الكتب التي لها اهمية ولا سيما عن حملة فردريك الثاني، الكتاب المعروف باسم Secreta fidellum Crucis، الذىألفه مارينو سانيدو Marino Sanudo وهو تاريخللحروب الصليبية صنفه احد النبلاء من البنادقة بين ١٣٠٦ ، ١٣٢١ . اما المصادر الثانوية عن الحملة الصليبية الخامسة ، فجمعها المؤرخ Röhricht في مؤلفاته التي نشرتها Société de l'Oricnt Latin بين سنة ١٨٧٩ ، وسنة ١٨٨٢ . فالرسائل القيمة التي صدرت عن اوليفر Oliver اسقف بادر بورن، وتاريخ دمياط Historia Damietatis الذياعتمد على هذه الرسائل، نشرها رورختايضاً في West deutsche Zeitschrlft fur Geschichte und Kunst (1891) وجرى وصف الحملة الصليبية السادسة ، وهي حملة فردريك الثاني في تاريخ رتشارد سان جرمانو Richard San Germano وهو احد كتاب الامبراطور، وكذا في المصادر الغربية الاخرى مثل كتاب Roger of Wendover . وأهم المصادر عن حملات القديس لويس التاسع ، ما ألفه Joinville عن ترجمة حياة سيده ، اذ صحبه الى مصر في الحملة الصليبية السابعة وكتاب Nangis المعروف باسم Gesta Ludovici regis (اعمال الملك لويس) .

وجرى تأليف كتب عديدة عن سقوط عكا في يد المسلمين سنة ١٢٩١ منها كتاب Excidium urbis Acconensis ، وهو رسالة القت الضوء ، بعد ان خيم الغموض سنوات عديدة ، على الساعات الاخيرة في حياة المملكة . اما وجهة النظر الشرقية في القرن الثالث عشر، فتبدو في كتاب جلال الدين (ولعله جمال الدين بن واصل) عن تاريخ سلاطين الايوبيين في مصر ، الذي جرت كتابته في نهاية القرن الثالث عشر، وكذا فيالمقريزي في تاريخ مصر، الذيألفه في منتصف

القرن الخامس عشر ، وفي تاريخ ابي الفداء (الذي مات سنة ١٣٣٢) على حين ان ابا الفرج Abulfaragius (الذي اطلق عليه Rey القديس توماً بالشرق) في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، ألف كتابه عن التاريخ العام باللغة السريانية ، وجعل له مختصراً باللغة العربية تناول فيه تاريخ الاسرات الحاكمة .

ثانياً ــ الوثائق . توافرت الوثائق المتعلقة بتاريخ الحروب الصليبية وتاريخ المملكة اللاتينية ببيت المقدس .

فما يتعلق منها بالعهود ورد في Regesta Hicrosolymitani الذي نشره رورخت ــ انسبروك سنة ١٨٩٣ (فضلا عن الزيادات المضافة اليه سنة ١٩٠٤) . وفي Cartulaire general des Hospitaliers الذي نشره Delaville Lenonl (باريس منذ سنة ١٨٩٤) . و Cartulaire de l'eglise du St. Sepulchre الذي نشره Rozière (باريس ١٨٤٩) .

اما القوانين فتشمل قوانين assizes مملكة بيت المقدس التي نشرها Beugnot في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية Recueil des Historiens des Croissades ، وقوانين انطاكية التي جرى نشرها في البندقية سنة ١٨٧٦ وللاستاذ G. Schlumberger مؤلفات عديدة عن النقود والاختام المتعلقة بالشرق اللاتيني (١) . وألف Rey كتاباً عن العمارة الحربية باسم :

Etude sur les mouvements de l'architecture militaire (Paris 1871) .

---

(١) نشر شلمبرجر ايضاً كتابين هما :

Récits de Byzance et des Croissades (Paris 1916) .

Prise de Sainte Jean, d'Acre en L'an 1912 .

وانساب الفرنج في الشرق الادنى وردت في الكتاب المعروف باسم :
Le Livre des Lignages d'Outre-mer (وهو ملحق بقوانين مملكة بيت المقدس) .

المراجع :

من كتب المراجع التي تناولت المصادر الاصلية للحروب الصليبية ، الكتب التالية :

Molinier : Les Sources de l'Histoire de France . Vols. II & III .

Wattenbach Deutshland Geschichtsquellen .

ورد في الجزء الثاني منه . طبعة ١٨٩٤ ص ١٧٠ – ١٨٠ دراسة عن ألبرت الاخيني ، وفي ص ١٨٩ – ١٩٨ ، عن ايكارت اورا .

Von Sybel : Geschichte des ersten Krenzzuges

(يتضمن دراسة وافية عن مصادر الحرب الصليبية الاولى. ولمقدمة هيجنمير لكتابي اعمال الفرنجة وايكارت اهمية كبيرة) .

وفي كتابه الذي سوف يأتي ذكره فيما بعد ، شرح جاستون دودو G. Dodu باختصار كل المصادر الاصلية ، غير ان ما اورده عن وليم الصوري وقوانين مملكة بيت المقدس يعتبر عظيم الاهمية .

وأورد Prutz في كتابه Kulturgeschichte ص ٤٤٥ – ٤٦٩ دراسة موجزة لبعض مؤرخي الحروب الصليبية . ولا بد من الاشارة الى مؤلفات كيجلر وكليملك التي سبق ذكرها ، وكذا الى كتاب Michaud المعروف باسم Bibliographie des Groissades (paris 1822)

الكتاب المحدثون :

تعتبر مؤلفات رورخت اسلم وأروع ما كتب عن الحروب الصليبيـــة . فمن مؤلفاته :

Geschichte des crsten Kreuzzuges (Innsbruck 1901)
Geschichte des Konigreichs Jerusalem (Innsbruck 1898)
Geschichte des Kreuzzuge in Umrises (Innsbruck 1898)

ومن المؤلفات عن الحرب الصليبية الاولى كتاب فون سيبل و كتاب شالاندون Chalandon عن الكسيوس كومنين Alexis 10 Comnène وعن الحرب الصليبية الرابعة يصح الاشارة الى دراسة A. Luchaire عن انوسنت الثالث Innocent III ، في كتابه La Question d'Orient ، ومن الكتب القيمة ايضاً عن جميع الحروب الصليبية :

Norden : Papstum and Byzanz ,
Kugler : Geschichte des Kreuzzuge (in Onken's series)
Brehier L. : L'Eglise et l'Orient au moyen âge .

(لم يشتمل فحسب على دراسة حديثة للحروب الصليبية ، بل تضمن ايضاً قائمة وافية بالمراجع) .

Ruville . A. Die Kreuzzuge (Bonn 1920)

ومن الكتب التي تعالج الوقائع التاريخية والعلاقات بين الصليبيين والمسلمين كتاب Stevenson, W. B. : The Crusaders in the East (كمبردج ١٩٠٧) .

ومن الكتب الهامة ايضاً في المراجع كتاب :

Golubovich : Biblioteca bio-bibliagrafica della terra Santa e del l'Oriente francescana .

(٣ مجلدات ١٩٠٧ ، ١٩١٥ ، ١٩١٩)

وعن التاريخ الدستوري والاجتماعي لمملكة بيت المقدس انظر :

Dodu G. : Histoire des Institutions du Royaume Latin de Jerusalem .
Rey , E. G. : Les cholonies franques en Syrie .
prutz : Kulturgeschichte des Kreuzzüge .

(يشمل دراسة عن الشرق اللاتيني واثر الصليبيين في المدنية) . ومؤلفات
Delaville leroulex , Gmelin

عن الداوية والاسبتارية ، لها اهمية كبيرة .

وللوقوف من الامور الشرقية لا بد من قراءة كتابي :

Le Strange : Palestine under the Moslems .
Stanley Lane - poovle : Saladin Muhammedan Dynamics .

جـــدول أنساب ملوك بيت المقـــدس

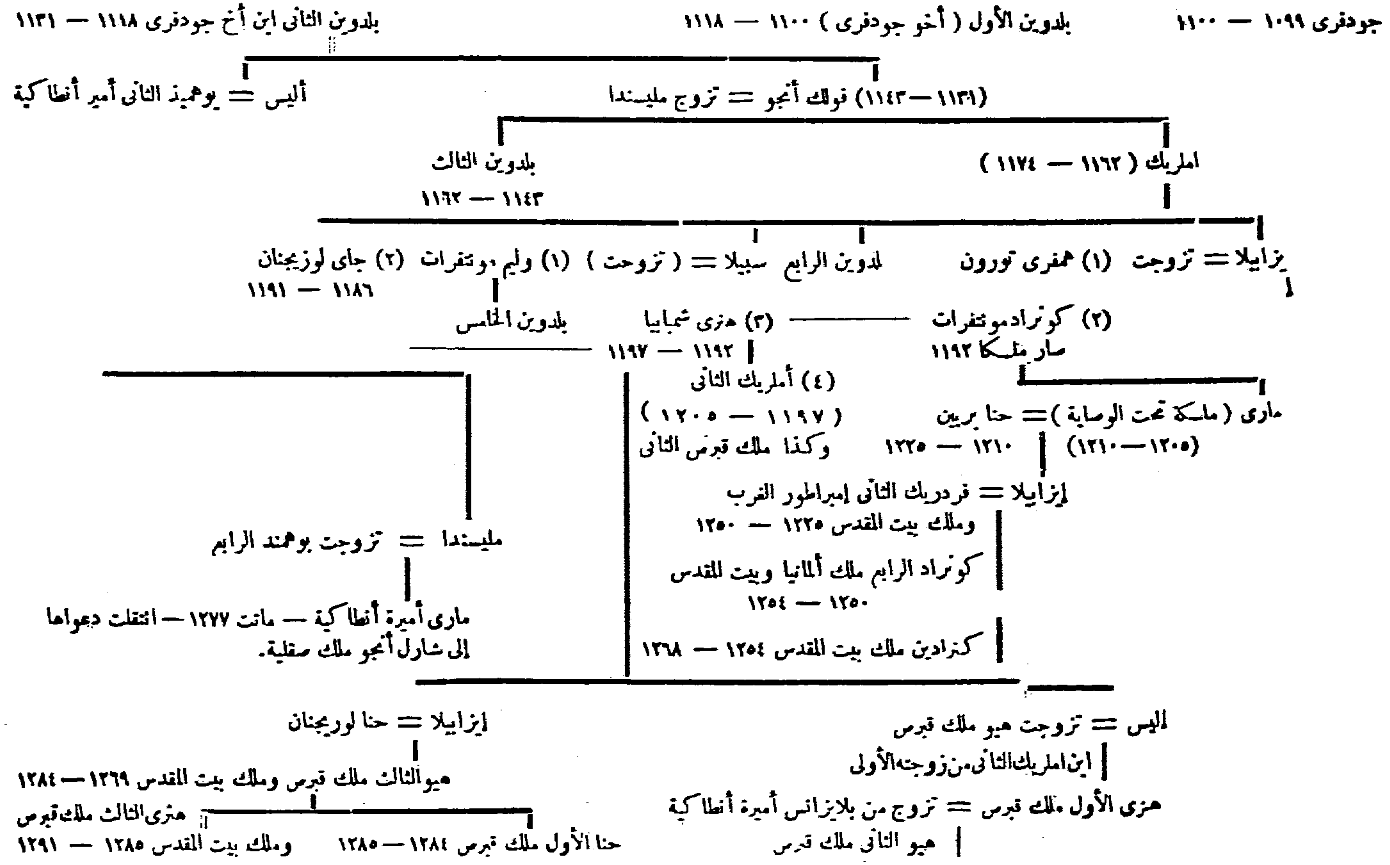

Bajazet dismounted at the sound of many minstrels, at the principal tent that had belonged to the king of Hungary, which was very large and richly adorned. When he was disarmed, to cool and refresh himself, he sat on a silken carpet in the middle of the tent, and sent for his principal friends to chat and joke with them. He began the conversation by saying that he would now conquer Hungary, and all the rest of Christendom; and that, as he was descender from his blood, he would reign like Alexander of Macedon, who for twelve years governed the whole world. He then gave three orders : first, that everyone who had made prisoners should produce them before him next day; secondly, that the dead should be carefully examined, and the nobles and great lords set apart and left untouched until he had seen them; thirdly, that exact inquiries should be made after the king of Hungary, that he might know whether he was dead or alive.

When Bajazet had refreshed himself he resolved to visit the dead on the field of battle, where, to his great surprise and anger, he found that the victory had cost him dear; for where one Christian lay dead, there were thirty of their enemies around them. The next morning, before Bajazet was risen, great numbers came to his tent to learn his will respecting the prisoners. It had been rumored that he intended having them all put to death without mercy; this, however, was not the case : his orders were, «Let those alone be spared who are nearly related to the king and willing to pay for their liberty a great sum of money, and all others be put to death».

French would have returned, but could not, for they were now enclosed on all sides. The battle raged with fury, and lasted a considerable time.

The king of Hungary, when informed of the engagement, was very angry that his orders had not been obeyed : « We shall lose the day from the vanity of the French», he said to the Grand Master of Rhodes, who was beside him. «If they had waited for us to join them, we should have sufficient strength to cope with the enemy». As he thus spoke, he looked back, and saw his men flying panic-struck, and the Turks pursuing them. It was a most unfortunate day for the Hungarians and French. As they fled, in the greatest confusion, the Turks followed, killing them, or making prisoners at pleasure. God assisted the king of Hungary and the Grand Master of Rhodes, for, on arriving at the banks of the Danube, they fortunately found a small vessel, into which they entered, and, by means of it, crossed to the opposite shore.

Sir William de la Tremouille and his son displayed great feats of valor before they were slain. Sir John de Vienne, also, who wore the banner of our Lady, in spite of his deeds of arms, was killed, grasping the banner in his hands, and was thus found after the battle. Very many of the French were saved from the extreme richness of their armor — they were dressed like kings: and the Saracens and Turks, who are very avaricious, thought, by saving their lives, that they should gain large ransoms for they believed them to be much greater lords from their appearances than they really were. The Count de Nevers was made prisoner, as were also the counts d'Eu and de la Marche, the lords de Coucy Boucicant, and others. The battle lasted three hours; more were killed in the pursuit than in the battle, and numbers were drowned. Happy indeed was he who could escape from such danger by any means. When the business was over, the Turks, Persians, and others retired to the tents and pavilions, which they had conquered from the Christians, and enjoyed themselves.

a league of ground; in front of the main body were 800 Turks, to mask the body of the army, which was divided into two wings, and Bajazet was in the midst of the main body.

It happened on the Monday preceeding Michaelmas Day in the year 1396, about ten o'clock, as the king of Hungary and his lords were seated at dinner, news was brought that the Turks were at hand. This was agreeable information to many who were desirous of arms; they instantly arose, pushed the tables aside, and demanded their horses and armor. Being somewhat heated with wine, they hastened to the field, and banners and pennons were displayed. The banner of the Virgin Mary was unfurled, and the guard of it given to that valiant knight, Sir John de Vienne, admiral of France. The French were the first in the field, and seemingly fearless of the Turks, for they were ignorant of their immense numbers, and that Bajazet commanded them in person. The king of Hungary sent to entreat them not to begin the battle before they heard from him again; but the Count d'Eu, the constable of France, was impetuous, and determined to fight the enemy.

The infidels were now fast approaching, and in such numbers that the Christians became completely surrounded, and found it impossible to retreat. Many knights and squires, who were used to arms knew that the day mus be lost, nevertheless they advanced. The French lords were so richly dressed out in their emblazoned surcoats, that they looked like little kings but, as I was told, when they met the Turks they were not more than 700 in number. Had they waited for the Hungarian army, they might, perhaps, have gained the victory; to their pride and presumption was the whole loss owing — a loss which was so great, that never since the defeat of Roncesvalles, when twelve peers of France were slain, did the French suffer so considerably. However, before they were overcome they made a great slaughter of the Turks; indeed, they defeated the van battalion, and put it to flight, pursuing it into a valley where Bajazet was posted with the main army. The

and they received continually supplies of fresh provisions which were brought on the backs of camels.

The second after the Christians had landed the Saracens about dawn, came to attack the camp; indeed, during the whole of this siege the Christians were never quiet : for every night and morning the camp was attacked by the enemy...

The army was then ordered forward to attack the town; which it did, and gained by storm the first enclosure; but no one inhabited that part, and the Christians paid dear for an inconsiderable advantage : for the heat of the sun and its reflection on the sands, added to the fatigue of fighting which, lasted until evening, caused the death of several valiant knights and squires. Thus was the siege of Africa continued. To say the truth this was a very great enterprise, and those who engaged in it showed much courage and perseverance in continuing the siege in so unhealthy climate, after the great losses they had suffered, without assistance from anyone. But we must now leave the affairs of Africa to speak of the handsome feasts which at this time were given in London...

18. — THE DEFEAT OF THE CHRISTIAN ARMY AT NICOPOLIS (1396)

Froissart

The Christians were besieging Nicopoli, and as yet nothing had been heard of any assistance from Bajazet. During the whole summer he had been busily employed in raising a large army of Saracens and infidels, and had even sent to Persia for succor. These, to the amount of 200,000 crossed the Hellespont, and advanced so secretly, that they were close to Nicopoli before the Christians knew that they had begun their march. Bajazet was as well aquainted as most persons with the stratagems of war, and marched to raise the siege in the following order. His army was drawn up in the form of a harrow, and occupied about

the rowers force their vessels through its smooth surface, which seemed to delight in bearing these Christians to the shores of the infidels. Late in the evening the Christians saw the town of Africa; everyone was rejoiced at the sight, and not without cause, as they had in part accomplished the object of their voyage. The Saracens, who observed them from the town, were astonished at the number of vessels which were coming to besiege them; however, they were not cast down, for they knew the place was strong, well fortified, and plentifully stored with artillery and provisions. On first noticing the fleet, the Saracens, according to custom, sounded a number of bells in the towers to alarm the country. There were encamped, near the town, a large body of barbarians and infidels whom the kings of Tunis and Bugia (1) had sent thither to defend the coast.

As I, John Froissart, the author of these chronicles, never was in Africa, I sought all the information I could from those knights and squires who had been on this expedition, and made several journeys to Calais to learn the truth of all that had passed. The town of Africa was reported to me to be in the form of a bow, like Calais, extending its arms toward the sea, wonderful strong, and surrounded with high walls at proper distances. The entrance of the harbor was defended by tower larger than the rest, on which was placed a bricolle (1)...

You must know, that these infidels, the Saracens, had for a long time been menaced by the Genoese, and had made preparation accordingly. The better to resist them they assembled on the present occasion the most experienced warriors from the kingdoms of Bugia, Morocco and Tunis. They took advantage of a large and thick wood in their rear, to avoid danger from ambuscades or skirmishes on that side. According to estimate, they amounted to about 30,000 archers, and 10,000 horses

(1) In Arabic Bijaya; situated about 100 miles east of Alger.
(2) A bricolle was a machine to throw stones.

Genoa on board ships and galleys, which had been properly equipped for the voyage. It was a beautiful sight to see the fleet with the emblazoned banners of the different lords glittering in the sun, and fluttering with the wind; to hear also the minstrels and other musicians soundings their pipes, clarions, and trumpets. When all were embarked, they cast anchor and remained that night at the mouth of the harbor; but the servants and horses were left behind on the shore. A horse worth fifty francs was on the embarcation sold for ten, as many of the knights and squires were uncertain when they should return, if ever. They, therefore, on departing, made of their horses what money they could, which was little enough. At daybreak they weighed anchor, and rowed coastwise that and the succeeding night. The third day they made Porto-fino, where they lay that night, and sunrise rowed to Porto-Venere, and again cast anchor. The ensuing morning they took to the deep, putting themselves under the protection of God and St. George.

When they had passe: the island of Elba they encountered a violent tempest, which drove them back into the gulf of Lyons, a position always dangerous; they waited, therefore, the will of God, the storm lasted a day and a night, and dispersed the fleet. When the weather became cold and the sea tranquil, the pilots steered as directly as they could for the island of Commeres, which is but thirty miles from the town of Africa, whither they were bent. It was at this island of Comino (1) that the knights assembled after encountering the great storm in the Gulf of Lyons, to wait for those who had separated from the fleet, as that island was but thirty miles from Africa. They remained there nine days, and then reembarked on board their galleys with a good will to meet their enemies, the Saracens. The sea was now calm and the weather fine, it was a pleasure to see

(1) The island of Comino – or Commeres – is a small island in the Mediterranean between Gozo and Malta; it was then belonging to the Knights of Malta.

And you may reckon that you can buy for one sommo of silver nineteen or twenty pounds of Cathay silk, when reduced to Genoese weight, and that the sommo should weigh eight and a half ounces of Genoa, and should be of the alloy of eleven ounces and seventeen deniers to the pound.

You may reckon also that in Cathay you should get three or three and a half pieces of damasked silk for a sommo; and from three and a half to five pieces of nacchetti of silk and gold, likewise for a sommo of silver.

17. — CRUSADE OF LOUIS II DE BOURBON (1390) (Froissart)

I must not forget, nor indeed defer any longer to mention a grand and noble enterprise that was undertaken by some knights of France, England, and other countries, against the kingdom of Barbary, at the solicitation of the Genoese. The cause of this expedition was that the Africans had attacked the country of Genoa, plundered the islands belonging to it, and carried off many prisoners. Moreover, the Genoese, who were rich merchants, bore great hatred to the town of Africa (1) situated on the sea-shore of Barbary, because its corsairs frequently watched them by sea, and fell upon and plundered their ships. Reports of the intended invasion of Barbary soon spread far and wide, and many gallant men-at-arms prepared to take part in it; on being mustered by the marshal, these amounted in all to 1400 knights and squires, who on St. John Baptist day, in the year of grace 1390, embarked from

(1) The Empire of Almohades had finally collapsed before the end of the thirteenth century. On its ruins there arose four smaller dynasties, the Nasrides of Granada, the Merinides of Fez, the Abd al-Wadides of Telmsen, and the Hafsides of Tnuis. The last of these was a centre of African trade, and it also became the home of Barbary corsairs who threatened the coasts of Sicily and Italy. The chief centre of piratical navies was al-Mahdiya' known in the French chronicles as "the town of Africa.

weight; and the camle-waggon will require three camels, and will carry thirty cantars Genoese weight; and the horse-waggon will require one horse, and will commonly carry six and a half cantars of silk, at two hundred and fifty Genoese pounds to the cantar. And a bale of silk may be reckoned at between one hundred and ten and one hundred and fifteen Genoese pounds.

You may reckon also that from Tana to Sara the road is less safe than on any other part of the journey; and yet even when this part of the road is at its worst, if you are some sixty men in the company you will go as safely as if you were in your own house.

Anyone from Genoa or from Venice, wishing to go to the places above-named, and to make the journey to Cathay, should carry linens with him, and if he visit Organci he will dispose of these well. In Organci he should purchase sommo of silver, and with these he should proceed without making any further investment, unless it be some bales of the very finest stuffs which go in small bulk, and cost no more for carriage than coarser stuffs would do.

Merchants who travel this road can ride on horseback or on asses, or mounted in any way that they list to be mounted.

Whatever silver the merchants may carry with them as far as Cathay the lord of Cathay will take from them and put into his treasury. And to merchants who thus bring silver they give that paper money of theirs in exchange. This is of yellow paper, stamped with the seal of the lord aforesaid. And this money is called balishi; and with this money you can readily buy silk and all other merchandise that you have a desire to buy. And all the people of the country are bound to receive it. And yet you shall not pay a higher price for your goods because your money is of paper. And of the said paper money they are three kinds, one being worth more than another, according to the value which has been established for each by that lord.

51

The road you travel from Tana to Cathay is perfectly safe, whether by day or by night, according to what the merchants say who have used it. Only if the merchant, in going or coming, should die upon the road, everything belonging to him will become the perquisite of the lord of the country in which he dies, and the officers of the lord will take possession of all. And in like manner if he dies in Cathay. But if his brother be with him, or an intimate friend and comrade calling himself his brother, then to such any one they will surrender the property of the deceased, and so it will be rescued.

And there is another danger, this is when the lord of the country dies, and before the new lord who is to have the lordship is proclaimed; during such intervals there have sometimes been irregularities practised on the Franks, and other foreigners. (They call «Franks» all the Christians of these parts from Romania westward). And neither will the roads be safe to travel until the other lord be proclaimed who is to reign in room of him who is deceased.

Cathay is a province which contains a multitude of cities and towns. Among others there is one in particular, that is to say the capital city, to which is great resort of merchants, and in which there is a vast amount of trade; and this city is called Cambalec. And the said city hath a circuit of one hundred miles, and is all full of people and houses and of dwellers in the said city.

You may calculate that a merchant with a dragoman, and with two menservants, and with goods to the value of twenty-five thousand golden florins, should spend on his way to Cathay from sixty to eighty sommi of silver, and not more if he manage well; and for all the road back again from Cathay to Tana, including the expenses of living and the pay of servants, and all other charges, the cost will be about five somi per head of pack animals, or something less. And you may reckon the sommo to be worth five golden florins. You may reckon also that each ox-waggon will require one ox, and will carry ten cantars Genoese

have to do with merchandise and exchanges; showing also what relation the merchandise of one country or of one city bears to that of others; and how one kind of goods is better than another kind, and where the various wares come from, and how they may be kept as long as possible.

The Book was compiled by Francis Balducci Pegolotti of Florence, who was with the Company of the Bardi of Florence, and during the time that he was in the service of the said company, for the good and honour and prosperity of the said company, and for his own, and for that of whosoever shall read or transcribe the said book. And this copy has been made from the book of Agnolo di Latti of Antella, and the said book was transcribed from the original book of the said Francesco Balducci.

In the first place, you must let your beard grow long and not shave. And at Tana you should furnish yourself with a dragoman. And you must not try to save money in the matter of dragomen by taking a bad one instead of a good one. For the additional wages of the good one will not cost you so much as you will save by having him. And besides the dragoman it will be be well to take at least two good men servants who are acquainted with Cumanian tongue. And if the merchant likes to take a woman with him from Tana, he can do so; if he does not like to take one there is no obligation, only if he does take one he will be kept much more comfortably than if he does not take one. Howbeit, if he do take one, it will be well that she be acquainted with the Cumanian tongue as well as the men.

And from Tana travelling to Gittarchan (Astrakhan) you should take with you twenty-five day's provisions, that is to say, flour and salt fish, for as to meet, you will find enough of it at all the places along the road. And so also at all the chief stations noted in going from one country to another in the route, according to the number of days set down above, you should furnish yourself with flour and salt fish, other things you will find in sufficiency, and especially meat.

In two months and ten days we came to Baatu, and (on the way there) we never saw a town, nor the trace of any building save tombs, with the exception of one little village, in which we did not eat bread; neither did we ever take a rest in those two months and x days, except for one day only, when we could not get horses. We came back for the most part of the way through the same peoples, though generally through different districts; for we went in winter and came back in summer by parts farther to the north, fifteen days excepted, when both in going and in coming back we had to keep along a river between mountains, where there is no grass except close to the river. We had to go for two days — sometimes for three days — without taking any other nourishment than cosmos. Sometimes we were in great danger, not being able to find any people, at moments when we were short of food, and with worn-out-horses.

It seems to me inexpedient to send another friar to the Tartars, as I went, or as the preaching friars go; but if the lord pope, who is the head of all Christians, wishes to send with proper state a bishop, and reply to the foolishness they have already written three times to the Franks (once to Pope Innocent the fourth of blessed memory, and twice to you once by David, who deceived you, and now by me), he would be able to tell them whatever he pleased, and also make them reply in writing. They listen to whatever an ambassador has to say, and always ask if he has more to say; but he must have a good interpreter — nay, several interpreters — abundant travelling funds, etc.

16. — ADVICE TO MERCHANTS BOUND FOR CATHAY
Francesco Pegolotti, C. 1340 (1)

In the name of the Lord, Amen!

This book is called the Book of Descriptions of Countries and of measures employed in business, and of other things needful to be known by merchants of different parts of the world, and by all who

(1) Yule : Cathay and the Way Thither. Ed. H. Cordier, 2nd edition.

they called me and interpreted them to me. I wrote down their tenor, as well as I could understand through an interpreter, and it is as follows :

« The commandement of the eternal God is, in Heaven there is only one eternal God, and on Earth there is only one lord, Chingis Chan, the Son of God, Demugin, (or) Chingis «sound of iron». (For they call him Chingis, «sound of iron», because he was a blacksmith; and puffed up in their pride they even say that he is the son of (God). «Thus is what is told you. Wherever there be a Moal (Mongol), or a Naiman, or a Merkit or a Musteleman, wherever ears can hear, wherever horses can travel, there let it be heard and known; those who shall have heard my commandments and understood them, and who shall not believe and shall make war against us, shall hear and see that they have eyes and see not; and when they shall want to hold anything they shall be without hands, and when they shall want to walk they shall be without feet: this is the eternal command of God...

«This, through the virtue of the eternal God, through the great world of the Moal, is the word of Mangu Chan to the lord of the French, king Louis, and to all the other lords and priests and to all the great releam of the French, that they may understand our words. For the word of the eternal God to Chingis Chan has not reached unto you, either through Chingis Chan or others who have come after him»...

Master William, once your subject, sends you a girdle ornamented with a precious stone, such as they wear against lightening and thunder; and he sends you endless salutations, praying always for you; and I cannot sufficiently express to God or to you the thanks I owe him. In all baptized VI persons there.

So we separated with tears, my companion remaining with Master William, and I alone with my interpreter going back with my guide and one servant, who had an order by which we were to receive every days one sheep for the III of us.

twice a year: once about Easter, when he passes there, and once in summer, when he goes back (westward). And the latter is the greater (feast); for then come to his court all the nobles, even though distant two months' journey; and then he makes them largess of robes and presents, and shows his great glory. There are many buildings as long as barns, in which are stored his provisions and his treasures. In the entry of this great palace, it being unseemly to bring in there skins of milk and other drinks, Master William the Parisian had made for him a great silver tree, and at its roots are four lions of silver, each with a conduit through it, and all belching forth white milk of mares. And four conduits are led inside the tree to its tops, which are bent downward, and on each of these is also a gilded serpent, whose tail twines round the tree. And from one of these pipes flows wine, from another caracosmos, or clarified mare's milk, from the another bal, a drink made with honey, and from another rice mead, which is called terracina; and for each liquor there is a special silver bowl at the foot of the tree to receive it. Between these four conduits in the top, he made an angel holding a trumpet, and underneath the tree he made a vault in which a man can be hid. And pipes go through the heart of the tree to the angel. In the first place he made bellows but they did not give enough wind. Outside the palace is a cellar in which the liquors are stored, and there are servants all ready to pour them out when they hear the angel trumpeting. And there are branches of silver on the tree, and leaves and fruit. When then drink is wanted, the head butler cries to the angel to blow his trumpet. Then he who is concealed in the vault, hearing this, blows with all his might in the pipe leading to the angel, and the angel places the trumpet to his mouth, and blows the trumpet right loudly. Then the servants who are in the cellar, hearing this, pour the different liquors into the proper conduits, and the conduits lead them down into the bowls prepared for that, and then the butlers draw it and carry it to the palace to the men and women...

Finally, the letters he (Mangu Chan) sends you being finished,

gave us the best food she could. She belonged to the ordu of the Christian lady of whom I have spoken, and she told me of the unheard — of misery she had endured before coming to the ordu. But now she was fairly well off. She had a young Ruthenian husband, of whom she had had three right fine-looking boys, and he knew how to make houses, a very good trade among them. Furthermore, she told us that there was in Caracarum a certain master goldsmith, William by name, a native of Paris : and his family name was Buchier, and the name of his father was Laurent Buchier.

She believed that he had still a brother living on the Grand Pont, called Roger Buchier. She also told me that he supported a young man whom he considered his son, and who was a most excellent interpreter. But as Mangu Chan had given this said master three hundred iascot, that is three thousand marks and -L- workmen to do a certain work, she feared he would not be able to send his son to me. She had heared people in the ordu saying, «The men who have come from your country are good men, and Mangu Chan would be pleased to speak with them, but their interpreter is worth nothing». Twas for this that she was solicitous about an interpreter. So I wrote to this master of my coming, asking him if he could send me his son ; and he replied that in that month he could not, but the following he would have finished his task and then he would send him to me ...

Toward the middle of Lent, the son of Master William arrived bringing a beautiful crucifix made in French style with a silver image of the Christ fixed on it. Seeing it, the monks and priests stole it, though he was to have presented it from his master to Bulgai, the grand secretary of the court. When I heard of this I was greatly scandalized.

This young man also informed Mangu Chan that the work he had ordered to be done was finished; and this work I shall here describe to you. Mangu had at Caracarum a great palace, situated next to the city walls, enclosed within a high wall like those which enclose monks' priories among us. Here is a great palace, where he has his drinkings

not pleased that we had come to Sartach in the first place rather than to him. Then I, seeing that I was without interpreter, said nothing, save to beg him not to be displeased with what I had said of gold and silver, for I had not said that he needed or wanted such things, but only that we would gladly honour him with things temporal as well as spiritual. Then he made no arise and sit down again, and after awhile we saluted him and went out, and with us his secretaries, and his interpreter, who was bringing up one of his daughters. And they began to question us greatly about the kingdom of France, whether there were many sheep and cattle and horses there, and whether they had not better go there at once and take it all. And I had to use all my strength to conceal my indignation and anger ; but I answered, « There are many good things there, which you would see if it befell you to go there».

Then they appointed someone to take care of us, and we went to the monk. And as we were coming out of there to go to our lodgings, the interpreter I have mentioned came to me and said : « Mangu Chan takes compassion on you and allows you to stay here for the space of two months : then the great cold will be over. And he informs you that ten days hence there is a goodly city called Caracarum. If you wish to go there, he will have you given all you may require ; if, however, you wish to remain here, you may do so, and you shall have what you need. It will, however, be fatiguing for you to ride with the court». I answered : « May the Lord keep Mangu Chan and give him a happy and long life ! We have found this monk here, whom we believe to be a holy man and come here by the will of God. So we would willingly remain here with him, for we are monks, and we would say our prayers with him for the life of the Chan ». Then he left us without a word. And we went to a big house, which we found cold and without a supply of fuel, and we were still without food, and it was night. Then he to whom we had been entrusted gave us fuel and a little food..

A certain woman from the Metz in Lorraine, Paquette by name, and who had been made a prisoner in Hungary, found us out, and she

speak. Then we had to bend our knees. He had his interpreter, a certain Nestorian, who I did not know was a Christian, and we had our interpreter, such as he was, and already drunk. Then I said: « In the first place we render thanks and praise to God, who has brought us from so far to see Mangu Chan, to whom God has given so much power on earth. An we pray Christ, by whose will be all live and die, to grant him a happy and long life.» For it is their desire, that one shall pray for their lives. Then I told him : « My lord, we have heard of Sartach that he was a Christian, and the Christian who heard it rejoiced greatly, and principally my lord the king of the French. So we came to him, and my lord the king sent him letters by us in which were words of peace, and among other things he bore witness to him as to the kind of men we were, and begged him to allow us to remain in his country, for it is our office to teach men to live according to the law of God. He sent us, however, to his father Baatu, and Baatu sent us to you. You it is to whom God has given great power in the world. We pray then your mightiness to give us permission to remain in your dominion, to perform the service of God for you, for your wives and your children. We have neither gold, nor silver, nor precious stones to present to you, but only ourselves to offer to you to serve God, and to pray to God for you. At all events give us leave to remain here till this cold has passed away, for my companion is so feeble that he cannot with safety to his life stand any more the fatigue of travelling on horseback».

My companion had told me of his infirm condition, and had adjured me to ask for permission to stay, for we supposed that we would have to go back to Baatu, unless by special grace he gave us permission to stay. Then he began his reply : « As the sun sends its rays everywhere, likewise my sway and that of Baatu reach everywhere, so we do not want your gold or silver ». So far I understand my interpreter, but after that I could not understand the whole of any one sentence : «twas by this that I found out he was drunk, and Mangu himself appeared to me tipsy. His speech, it seemed to me, however, showed that he was

«A solis ortus cardine
Et usque terre limitem
Christum canamus principem
Natum Maria virgine.»

When we had sung this hymn, they searched our legs and breasts and arms to see if we had knives upon us. They had the interpreter examined, and made him leave his belt and knife in the custody of a door-keeper. Then we entered, and there was a bench in the entry with cosmos, and near by it, they made the interpreter stand. They made us, however, sit down on a bench near the ladies. The house was all covered inside with cloth of gold, and there was a fire of briars and wormwood roots — which grow here to great size — and of cattle dung, in a grate in the centre of the dwelling. He (Mangu) was seated on a couch, and was déessed in a skin spotted and glossy, like a seal's skin. He is a little man, of medium height, aged forty-five years, and a young wife sat beside him; and a very ugly, full-grown girl called Cirina, with other children sat on a couch after them. This dwelling had belonged to a certain Christian lady, whom he had much loved, and of whom he had had this girl. Afterwards he had taken this young wife, but the girl was the mistress of all this ordu, which had been her mother's.

He had us asked what we wanted to drink, wine or terracina, which is rice wine (cervisia), or caracosmos, which is clarified mare's milk, or bal, which is honey mead. For in winter they make use of these four kinds of drinks. I replied : « My lord, we are not men who seek to satisfy our fancies about drinks, whatever, pleases you will suit us ». So he had us given of the rice drink, which was clear and flavoured like white wine, and of which I tasted a little out of respect for him, but for our misfortune our interpreter was standing by the butlers, who gave him so much to drink, that he was drunk in a short time. After this the chan had brought some falcons and other birds, which he took on his hand and looked at, and after a long while he bade us

wise man : « He shall go through the land of foreign peoples, and shall try the good and evil in all things». This, my lord king, have I done, and may it have been as a wise man and not as a fool; for many do what the wise man doth, though not wisely; but most foolishly; of this number I fear I may be. Nevertheless in whatever way I may have done, since you commanded me when I took leave of you that I should write you whatever I should see among the Tartars, and you did also admonish me not to fear writing a long letter, so I do what you enjoined on me, with fear, however, and diffidence, for the proper words that I should write to so great a monarch do not suggest themselves to me.

Be it known then to your Sacred Majesty that in the year of our Lord one thousand CCLIII, on the nones of May (7th May), I entered the Sea of Pontus, which is commonly called Mare Mojus, or the Greater Sea...

On the Octave of the Innocents (3rd January, 1254) we were taken to court, and there came certain Nestorian priests, whom I did not know to be Christians, and they asked me in what direction I prayed. I said, «To the east». And they asked that because we had shaved our beards, at the suggestion of our guide, so as to appear before the chan according to the fashion of our country. «Twas for this that they took us for Tuins, that is idolaters. They also made us explain the Bible. Then they asked us what kind of reverence we wanted to make the chan, according to our fashion, or according to theirs. I replied to them, «We are priests given to the service of God. Noblemen in our country do not, for the glory of God, allow priests to bend the knee before them. Nevertheless, we want to humble ourselves to every man for the love of God. We come from afar : so in the first place then, if it please you, we will sing praises to God who has brought us here in safety from so far, and after that we will do as it shall please your lord, this only excepted, that nothing be required of us contrary to the worship and glory of God». Then they went into the house, and repeated what I had said. It pleased the lord, and so they placed us before the door of the dwelling, holding up the felt which hung before it ; and, as it was the Nativity, we began to sing :

or persuade them to make an inviolable truce, with the approval of the holy universal council we decree that a general peace shall be obsreved in the whole world for at least four years. And those who shall refuse to observe this peace shall be compelled to do so on by excommunication of their persons and interdict on their lands, unless they have been so malicious in inflicting injuries on others that they themselves do not deserve the protection of such a peace. If they disregard the censure of the church, the ecclesiastical authorities shall invoke the secular power against them as disturbers of the business of Christ.

17. Trusting, therefore, in the mercy of omnipotent God and the authority of Saints Peter and Paul, and by the authority to bind and loose, which God has given us, to all who shall personally and at their own expense go on this crusade, we grant full pardon of their sins, which they shall repent and confess, and, besides, when the just shall receive their reward we promise them eternal salvation. And to those who shall not go in person, but nevertheless at their own expense and in proportion to their wealth and rank, shall send suitable men, and likewise to chose who go in person but at the expense of others, we grant the full pardon of their sins. All who shall give a fitting part of their wealth to the aid of the holy land shall, in proportion to their gifts and according to the degree of their devotion, have a share in this forgiveness. This universal council wishes to aid in the salvation of all who piously set out on this work, and, therefore, grants them in common the benefit of all its merits. Amen.

Given at the Lateran, 19 Kal. Jan., year 18 of our pontificate.

15. — A MISSION TO THE GREAT KHAN WILLIAM OF RUBRUCK (1)

To the most excellent lord and most Christian Louis, by the grace of God ilustrious king of the French (Louis IX), from Friar William of Rubruck, the meanest in the order of Minor Friars, greetings, and may he always triumph in Christ. It is written in Ecclesiasticus of the

(1) From Journey of & william of Rubruck; vol. 4. p. 466. (London 1900)

other places to prevent them from practising this iniquity. Otherwise, since not to interfere with the wicked is the same as to aid them, and since he who does not prevent a manifest crime is suspected of having a secret share in it, we command all prelates to exercise ecclesiastical severity against their persons and lands.

13. Besides, we excommunicate and anathematize those false and impious Christians who, against Christ and the Christian people, furnish the Saracens with arms, irons, and timbers for their galleys. If any who sell galleys or ships to the Saracens or accept positions on their piratical craft, or give them aid, counsel, or support with regard to their (war) machines to the disadvantages of the holy land, we decree that they shall be punished with the loss of all their goods, and they shall be the slaves of those who capture them. We command that this decree be published anew every Sunday and Christian feast day in all the maritime cities, and the bosom of the church shall not be opened to offenders against it unless, for the support of the holy land, they give all that they have gained from such a damnable business, and as much more from their possessions, so that they shall be justly punished for their crimes. But if they cannot pay, they shall be punished in some other way, in order that by their punishment others may be prevented from impudently attempting things of the same sort.

14. We forbid all Christians for the next four years to send their ships, or permit them to be sent, to lands inhabited by Saracens, in order that a larger supply of vessels may be on hand for those who wish to go to the aid of the holy land, and also that the Saracens may be deprived of that aid which they have been accustomed to get from this.

15. Although tournaments have been prohibited by many councils under the general threat of punishment, we forbid them for three years under the threat of excommunication, because the crusade is hindered by them.

16. Since, for the accomplishment of this work, it is necessary that Christian princes and peoples live in peace, and in order that the clergy may be able to make peace between all who are quarelling,

we decree that all who have taken the cross shall be free from all collections, taxes, and other burdens. As soon as they take the cross we receive them and their possessions under the protection of St. Peter and of ourselves, so that archbishops, bishops, and other prelates are entrusted with their defence, and besides, other protectors shall be specially appointed to defend them. And until they return or their death shall be certainly known, their possessions shall not be molested. And if anyone shall act contrary to this he shall be restrained by ecclesiastical censure.

11. If any of those who go on the crusade are bound by oath to pay interest, their creditors, under threat of ecclesiastical censure, shall be compelled to free them from their oath and from the payment of the interest. If anyone compels them to pay the interest, he shall be forced to pay it back to them. We order the secular authorities to compel the Jews to remit the interest to all crusaders, and until they do remit it they shall have no intercourse with Christians. If any are not able for the present to pay their debts to Jews, the secular authorities shall secure an extension of time for them, so that after they have set out on the journey until their return or their death is certainly known, they shall not be disturbed about the interest. The Jews shall be compelled after deducting the necessary expenses, to apply the income which they receive in the meantime from the property which they hold in pawn, toward the payment of the debt; since a favor of this kind, which defers the payment but does not cancel the debt, does not seem to cause much loss. Moreover, all prelates must know that they will be severely punished if they are lax in securing justice for crusaders or their families.

12. Since corsairs and pirates greatly impede the work by taking and robbing those who are going to, or returning from, the holy land, we excommunicate all who aid and protect them. Under the threat of anathema we forbid anyone knowingly to have anything to do with them in buying or selling, and we command all rulers of cities and

we warn them that they must answer for it to us before the terrible judge on the lats day. Let all such consider with what conscience and what security they will be able to make their confession before the only begotten Son of God, Jesus Christ, into whose hands the Father has given all things, if, in this matter which so peculiarly concerns them, they refuse to obey him who was crucified for sinners, by whose favor and goodness they live and are sustained, nay, more, by whose blood they are redeemed.

7. Lest we should seem to put on other men's shoulders burdens so heavy that we would not so much as put a finger to them, like those who say, but do not, we give 30,000 pounds out of our savings for this work, and besides the passage-money which we give all crusaders from Rome and the surrounding country, we also give 3,000 silver marks which are left in our hands from the gifts of certain Christians, the rest having been spent for the benefit of the holy land by the patriarchs of Jerusalem and the masters of the Templars and the Hospitallers.

8. Since we wish all other prelates and clergy to have a share in this meritorious work and its reward, we, with the approval of the council, decree that all the clergy of whatever rank shall, for three years, give the twentieth of the income of their churches to the aid of the holy land, and for the collection of it we shall appoint certain persons. We except from this tax certain monks and also those who shall take the cross and go in person on the crusade.

9. Moreover, we and our brethren, the cardinals of the holy Roman Church, will pay a tenth of our incomes and let all known that they must faithfully do this. For any cardinal who shall knowingly commit any fraud in this matter shall incur the sentence of excommunication.

10. Now, because it is only just that those who devote themselves to the service of the heavenly ruler should enjoy some special prerogative, and since it is a little more than a year until the time set for going,

and observe moderation in their way of living and in their dress. They shall altogether avoid dissensions and rivalries, and shun hatred and envy. Thus, equipped with spiritual and material arms, they shall fight more securely against the enemies of the faith, not resting on their own power but hoping in the divine strength.

3. These clergymen shall receive all the income of their benefices for three years, just as if they were residing in them, and, if it is necessary, they may pawn their benefices for the same length of time.

4. In order that this holy undertaking may not be prevented or delayed, we earnestly command all prelates, each in his own locality, to urge and insist that all who have taken the cross fulfil their vows to the Lord. And, if necessary, they may compel them to do so, in spite of all their subterfuges, by putting their persons under excommunication and their lands under the interdict. We except, however, those who may find some real hindrance in the way, on account of which we may decide that their vow may be commuted or put off.

5. In addition to these things; that nothing relating to Christ's business may be neglected, we command patriarchs, archbishops, bishops, abbots, and all others who have the care of souls, zealously to preach the crusade to those who are under their charge, by the Father, Son and Holy Spirit, one only true eternal God, beseeching kings, dukes, princes, marquises, counts, barons, and other magnates, as well as the communes of cities, villages, and towns, that those who do not go in person to aid the holy land may, in proportion to their wealth, furnish a suitable number of fighting men and provide for their necessary expenses for three years. This they shall do for the remission of their sins according to the terms published in our general letter, and, for the sake of greater clearness, repeated below. Not only those who give their own ships, but also those who shall try to build ships for this purpose, shall have a share in this remission of sins.

6. If any shall be found so ungrateful to the Lord as to refuse,

person on a crusade. Nor were they all willing to equip someone to go in their place (pars. 5 and 6). (4) The commercial interests and spirit of the Italian cities were stronger than their religious sentiment, and led them to sell arms and ships to the Mohammedans, and even to serve in important positions on their boats (pas. 12, 13, and 14). (5) The warlike spirit of the west had found a new outlet in the bloody tournaments which were now muchin fashion, and the feuds and private warfare offered the ambitious and adventurous knight a convenient field for the constant exercice of arms (pars. 15 and 16).

In spite of his great efforts, many things made the execution of Innocent's plan impossible. The popular days of the crusades were over. Innocent escaped a bitter disappointment only by his death, which occured the following year, 1216.

Since we earnestly desire to liberate the holy land from the hands of the wicked, we have consulted wise men who fully understand the present situation. And at the advice of the holy council we decree that all crusaders who shall determine to go by sea shall assemble in the kingdom of Sicily a year from the first of next June. They may gather at their convenience either at Brindisi, Messina, or in any other place on either side of the strait. If the Lord permits, we shall also be there in order that the Christian army, with our advice and aid, be well organized, and set out with the divine benediction and papal blessing.

1. Those who determine to go by land shall be ready at the same date, and they shall keep us informed of their plans in order that we may send them a suitable legate to counsel and aid them.

2. All clergymen of whatever rank, who go on the crusade, shall diligently devote themselves to prayer and exhortation, by word and example teaching the crusaders always to have the fear and the love of God before their eyes and not to say or dc anything to offend the divine majesty. Even if they sometimes fall into sin, they shall rise again by true penitence. They shall show humility of heart and of body,

to the church, and showed him all the honour he could. So was the Count Baldwin of Flanders and Hainault elected emperor, and a day appointed for his coronation, three weeks after Easter (16th May, 1204). And you must know that many a rich robe was made for the coronation nor did they want for the wherewithal.

14. — INNOCENT III AND THE LATERAN COUNCIL ANNOUNCE A CRUSADE, 1215 (1)

It was the greatest ambition of Innocent III to recover Palestine from the Mohammedans. During his pontificate he never lost sight of this object. One of the chief purposes of the Lateran council which he called together in 1215, was to arrange for a universal crusade. This decree shows his earnestness in the matter, but at the same time betrays the difficulties which were in the way. (1) The character of the clergy was not such as to insure the best results, and their conduct was not above reproach. They were jalous of each other, and intrigued to secure places to which much honor and rich livings were attached. (2) Many who took the cross afterwards refused to go. Some had no doubt made the vow in a moment of enthusiasm; others, in a calculating spirit, hoping to gain some reputation, or secure some advantage, such as an extension of time in the payment of their debts, the concellation of interest, the freedom from local taxation, or feudal dues, the right to raise money by pawing their fiefs, etc. (pars. 4, 10, and 11). (3) There was a general unwillingness on the part of the rich to go in

(1) Thatcher : op. cit. ; p. 537

and the Isle of Greece, and that other shall be his liegeman. Thus shall we keep both lords in the host».

As had been proposed, so was it settled, and both consented right willingly. Then came the day for the parliament, and the parliament assembled. And the twelve electors were chosen, six on one side and six on the other, and they swore on holy relics to elect, duly, and in good faith, whomsoever would best meet the needs of the host, and bear rule over the empire most worthily.

Thus were the twelve chosen, and a day appointed for the election of the emperor, and on the appointed day the twelve electors met at a rich palace, one of the fairest in the world, where the Doge of Venice had his quarters. Great and marvellous was the concourse, for every one wished to see who should be elected. Then were the twelve electors called, and set in a very rich chapel within the palace, and the door was shut, so that no one remained with them. The barons and knights stayed without in a great palace.

The council lasted till they were agreed, and by consent of all they appointed Névelon, Bishop of Soissons, who was one of the twelve, to act as spokesman. Then they came out to the place where all the barons were assembled, and the Doge of Venice. Now you must know that many set eyes upon them, to know how the election had turned. And the bishop, lifting up his voice — while all listened intently — spoke as he had been charged, and said : « Lords, we are agreed, let God be thanked ! upon the choice of an emperor, and you have all sworn that he whom we shall elect as emperor shall be held by you to be emperor indeed, and that if any one gainsay him, you will be his helpers. And we name him now at the self — same hour when God was born, The Count Baldwin of Flanders and Hainault ! »

A cry of joy was raised in the palace, and they bore the count out of the palace, and the Marquis Boniface of Montferrat bore him on one side

great, for if it had not been for what was stolen, and for the part given to the Venetians, there would have been at least four hundred thousand marks of silver, and at least ten thousand horses — one with another. Thus were divided the spoils of Constantinople, as you have heard.

Baldwin, Count of Flanders, Elected Emperor

Then a parliament assembled, and the commons of the host declared that an emperor must be elected, as had been settled aforetime. And they parliamented so long that the matter was adjourned to onather day, and on that day would they choose the twelve electors who were to make the election. Nor was it possible that there should be lack of candidates, or of men covetous, seeing that so great an honour was in question as the imperial throne of Constantinople. But the greatest discord that arose was the discord concerning Count Baldwin of Flanders and Hainault and the Marquis Boniface of Montferrat; for all the people said that either of those two should be elected.

And when the chief men of the host saw that all held either for Count Baldwin or for the Marquis of Montferrat, they conferred together and said : « Lords, if we elect one of these two great men, the other will be so filled with envy that he will take away with him all his people. And then the land that we have won may be lost, just as the land of Jerusalem came nigh to be lost when, after it had been conquered, Godfry of Bouillon was elected king, and the Count of St. Giles became so fulfilled with envy that he enticed the other barons, and whomsoever he could, to abandon the host. Then did many people depart, and there remained so few that, if God had not sustained them, the land of Jerusalem would have been lost. Let us, therefore, beware lest the same mischance befall us also, and rather bethink ourselves how we may keep both these lords in the host. Let the one on whom God shall bestow the empire so devise that the other is well content, let him grant to that other all the land on the further side of the straits, towards Turkey,

Three churches were appointed for the receiving of the spoils, and guards were set to have them in charge, both Franks and Venetians, the most upright that could be found.

Then each began to bring in such booty as he had taken, and to collect it together. And some brought in loyally, and some in evil sort, because covetousness, which is the root of all evil, let and hindered them. So from that time forth the covetous began to keep things back, and our Lord began to love them less. Ah God ! how loyally they had borne themselves up to now ! And well had the Lord God shown them that in all things He was ready to honour and exalt them above all people. But full oft do the good suffer for the sins of the wicked.

The spoils and booty were collected together, and you must know that all was not brought into the common stock, for not a few kept things back, maugre the excommunication of the Pope. That which was brought to the churches was collected together and divided, in equal parts, between the Franks and the Venetians, according to the sworn covenant. And you must know further that the pilgrims, after the division had been made, paid out of their share fifty thousand marks of silver to the Venetians, and then divided at last one hundred thousand marks between themselves, among their own people. And shall I tell you in what wise ? Two sergeants on foot counted as one mounted, and two sergeants mounted as one knight. And you must know that no man received more, either on account of his rank or because of his deeds, than that which had been so settled and ordered save in so far as he may have stolen it.

And as to theft, and those who were convicted thereof, you must know that stern justice was meted out to such as were found guilty, and not a few were hung. The Count of St. Paul hung one of his knights, who had kept back certain spoils, with his shield to his neck; but many there were, both great and small, who kept back part of the spoils, and it was never known. Well may you be assured that the spoil was very

At the same time that this palace was surrendered to the Marquis Boniface of Montferrat, did the palace of Blachernal surrender to Henry, the brother of Count Baldwin of Flanders, on condition that no hurt should be done to the bodies of those who were therein. There too was found much treasure, not less than in the palace of Bucoleon. Each garrisoned with his own people the castle that had been surrenderd to him, and set a guard over the treasure. And the other people, spread abroad throughout the city, also gained much booty. The booty gained was so great that none could tell you the end of it : gold and silver, and vessels and precious stones, and samite, and cloth of silk, and robes noir and grey, and ermine, and every choicest thing found upon the earth. And well does Geoffry of Villehardouin, the Marshal of Champagne, bear witness, that never, since the world was created, had so much booty been won in any city.

Every one took quarters where he pleased, and of lodgings there was no stint. So the host of the pilgrims and of the Venetians found quarters, and greatly did they rejoice and give thanks because of the victory God had vouchsafed to them — for those who before had been poor were now in wealth and luxury. Thus they celebrated Palm Sunday and the Easter Day following (25th April 1204) in the joy and honour that God had beatowed upon them. And well might they praise our Lord, since in all the host there were no more than twenty thousand armed men, one with another, and with the help of God they had conquered four hundred thousand men, or more, and in the strcngest city in all the world — yea, a great city — and very well fortified.

Division of the Spoil

Then was it proclaimed throught the host by the Marquis Boniface of Montferrat, who was lord of the host, and by the barons, and by the Doge of Venice, that all the booty should be collected and brought together, as had been covenanted under oath and pain of excommunication.

shipping and commerce. Nevertheless, we are led by the paternal love which we have for you to forbid you to aid the Saracens by selling them, giving them, or exchanging with them, iron, flax (oakum), pitch, sharp instruments, rope, weapons, galleys, ships, and timbers, whether hewn or in the rough. But for the present and until we order to the contrary, we permit those who are going to Egypt to carry other kinds of merchandise whenever it shall be necessary. In return for this favor you should be willing to go to the aid of the province of Jerusalem and you should not attempt to evade our apostolic command. For there is no doubt that he who, against his own conscience, shall fraudulently try to evade this prohibition, shall be under divine condemnation.

13. — THE CRUSADERS OCCUPY THE CITY (CONSTANTINOPLE) 1204 (1)

The Marquis Boniface of Montferrat rode all along the shore to the palace of Bucoleon, and when he arrived there, it surrendered, on condition that the lives of all therein should be spared. At Bucoleon we found the larger number of the great ladies who fled to the castle, for there were found the sister of the king of France, who had been empress, and the sister of the king of Hungary who had also been empress, and other ladies very many. Of the treasure that was found in that palace I cannot well speak, for there was so much that it was beyond end or counting.

(1) Villehardouin's Chronicle of the Fourth Crusade and the conquest of Constantinople, p. 64

freedom from tolls or at least a reduction in them, and quarter, consisting of a few city blocks, in which their agents or colonists could reside. They carried on an extensive commerce with the Mohammedans and cleverly and selfishly made use of the crusades to increase it. While the church was glad to have their aid in the wars with the Mohammedans, it found them a disturbing element, because they were content and wished to end hostilities as soon as they had secured good commercial advantages. The popes took the position that there should be no peaceable intercourse between Christians and Mohammedans, and so tried to prevent all commerce between them. This letter of Innocent III to the people of Venice illustrates the attitude of the pope in this matter, informs us what some of the chief articles of commerce were, and shows the pope was compelled to make concessions to the commercial spirit.

In support of the eastern province (that is, the crusading states), in addition to the forgiveness of sins which we promise those who, at their own expense, set out thither, and besides the papal protection which we give those who aid that land, we have renewed that decree of the Lateran council (held under Alexander III, 1179), which excommunicated those Christians who shall furnish the Saracens with weapons, iron, or timbers for their galleys, and those who serve the Saracens as helmsmen or in any other way on their galleys and other piratical craft, and which furthermore ordered that their property be confiscated by the secular princes and the consuls of the cities, and that, if any such persons should be taken prisoner, they should be the slaves of those who captured them. We furthermore excommunicated all those Christians who shall hereafter have anything to do with the Saracens either directly or indirectly, or shall attempt to give them aid in any way so long as the war between them and us shall last. But recently our beloved sons, Andreas Donatus and Benedict Grillon, your messengers, came and explained to us that your city was suffering great loss by this our decree, because Venise does not engage in agriculture, but in

terms. Whoever entretains a different opinion concerning this treaty, I would have him know that he will expose himself to the charge of perversely deviating from the truth.

How the king and Saladin corresponded amicably with one another by means of messengers.

When, therefore, the king, in his present emergency, had settled matters in the way described, he, in his magnanimity, which always aimed at something lowly and difficult, sent ambassadors to Saladin, announcing to him, in the presence of numerous of his chiefs, that he had only asked for a truce of three years for the purpose of revisiting his country, and collecting more men and money, where with to return and rescue all the lands of Jerusalem from his domination, if indeed Saladin should have the courage to face him in the field. To this Saladin replied, calling his own Holy Law and God Almighty to witness, that he entretained such an exalted opinion of king Richard's honour, magnanimity, and general excellence, that he would rather lose his dominions to him than to any other king he had ever seen, always supposing that he was obliged to lose his dominions at all. Alas ! how blind are men, whilst they lay plans for many years to come, they know not what to-morrow may bring forth : the king's mind was looking forward into the future, and he hoped to recover the sepulchre of our Lord; but he did not.

Reflect how every human thing
Hangs pendant on a slender string.

12. — INNOCENT III FORBIDS THE VENETIANS TO TRAFFIC WITH THE MOHAMMEDANS, 1198 (1)

The maritime cities of Italy took quite a part in the crusades, but their interests were largely commercial. In all the cities of the eastern Mediterranean and the Black Sea they tried to get harbor privileges,

(1) Thatcher : op. cit, p. 535

objection. Richard was vexed and embarrassed by this conduct, and it gave him the most bitter pain that none of them symphatised with his misfortunes. Seeing, then, that all left him, and that none took the slightest interest in the common cause, he ordered proclamation to be made, that whoever wished to receive the king's pay should come together to give him their helps. At once two thousand footmen and fifty knights came forward. But the king's health now began to get so bad, that he despaired of its being re-established; wherefore in his anxiety both for the others and for himself, he thought it best, of all the plans which suggested themselves, to ask a truce, rather than to leave the land a prey to devastation, as many others had done, by sailing home in numbers to their own country. Thus the king, perplexed and hesitating what he had best do, requested Saphadin, the brother of Saladin, to mediate between them, and obtain the most honourable terms of truce in his power. Now Saphadin was a man of extraordinary liberality, who on many occasions paid a great honour to the king for his singular virtues; and he now with great zeal procured for Richard a truce on the following conditions, namely, that Ascalon, which had always been a cause of annoyance in Saladin's government, should be destroyed, and not rebuilt for the space of at least three years, beginning at the following festival of Easter; but at the end of that time, whoever could get possession of it might fortify it; that the Christians should be allowed to inhabit Joppa without let or molestation, together with all the adjoining country, both on the sea-coast and in the mountains; that peace should strictly be observed between the Christians and Saracens, each having free leave to come and go wherever they pleased; that pilgrims should have free access to the Holy Sepulchre, without any payment or pecuniary exaction whatever, and with leave to carry merchandise for sale through the whole land, and to practice commercial pursuits without opposition. This treaty was presented in writing to king Richard, who gave it his approbation, for in his weak condition, and having so few troops about him, and that too within two miles of the enemy, he did not think it in his power to secure more favourable

Zion(1), cut the anchor of the little boat of St. Peter and permitted it to be tossed about and beaten by the storms of this world. For the great emperor, Frederick, while on the road to Tarsus, after a part of the army, had crossed a certain river, went into the water to refresh himself. For it was very hot and he was a good swimmer. But the cold water overcame him and he sank. So the emperor, powerful by land and sea, met with an unfortunate death. Some say that this happened in the Cydnus river, in which Alexander the Great almost met the same fate. For the Cydnus is near Tarsus. He died in the 38th year of his reign, the 35th of his rule as emperor (June 10, 1190). If he had lived he would have been a terror to all the Orient, but by his death the army, had crossed a certain river, went into the water to refresh him- and flesh were buried in Tarsus, but his bones were carried to Antioch and buried with royal ceremony.

11. — KING RICHARD ASKED SALADIN A TRUCE FOR THREE YEARS. A.D. 1192 (2)

In the meantime the king began to be anxious about the health, and after long reflection he sent for his relation Count Henry, with the Templars and Hospitallers, to whom he explained the enfeebled state of his body, and protested that in consequence of the vitiated atmosphere, and the bad state of the fortifications, he must immediately leave the place. To this proposition they all with one heart and one voice made

(1) PS 102 13

(2) Chronicle of the Crusade. Crusade of Richard Cœur de Lion by Richard of Derizes and Geoffrey de Vinsauf. London 1848, p. 329

philia, and Phrygia with slaughter, rapine, fire, and sword, while the pagan army constantly withdrew before them. The army now turned toward Iconium, which is the capital of Cilicia and the chief residence of the Sultan, and quickly took it (May, 18, 1190). It was a very populous city, well fortified with strong walls and high towers, and had in its midst an impregnable citadel. It was well supplied with victuals against a siege, while all the surrounding country was stripped of provisions, in order that when the emperor came he would not long be able to support an army there. But God overruled treir efforts so that the outcome was just the opposite of what they sought. For the emperor suddenly attacked the city with great violence before the third hour of the day (3 o'clock p.m.). Many people, of both sexes and of all ages, were put to sword. The Sultan with many of his nobles fled into the citadel, which the emperor began to besiege the same day. Now the Sultan saw that nothing could resist the force of the Germans and that, supported by some divine power, they despised death and without hesitation attacked everything that resisted them. So, taught by dangerous experience, and thinking it necessary to demand peace from the emperor, he asked to speak with him. The emperor granted his request. The Sultan then marched out of the citadel and surrendered at the discretion of the emperor, and gave hostages. After peace was made the city of Iconium and his kingdom were restored to him.

The army was thus made rich with spoils and the emperor left Iconium in triumph. The Armenian princes from all sides began to come to him, among them Leo, the noblest Christian prince of all that country. They all welcomed Frederick with joy and thanked him heartly for coming and attacking the Saracens. They were all well disposed toward him, so he set out for Tarsus, famous as the birthplace of St. Paul. But God who is terrible in his doing toward the children of Men (1), showing that the time had not yet come for showing mercy on

(1) PS. 66:5.

the princes, the emperor determined to pass the winter in Greece. So he took possession of the country round about, fortified a strong mountain as a camp for his soldiers and called it Kings-mountain. Having then taken up a strong position against Constantinople, he had supplies for the army brought from the neighbouring territory, and thus overcame Greek treachery with Roman strength and German bravery. He remained there all winter to the next Easter (March, 25 1190). The Greeks were unable to resist his army, and always fled before it.

Now the Greek emperor, not being able to withstand the power of Frederick, made amends for what he had done, and entered into a treaty with him. He appeased the army by supplying them with provisions. Thus, having been reconciled with Frederick, he set him and his army across the Propontis (March 22-28, 1190, from Gallipolis). Frederick now entered Asia with his army. He marched for some time, meeting everywhere with success, and all the people in Romania (Western Asia Minor) submitted to him. As the emperor approached Iconium, the Sultan broke his treaty, caused all the provisions to be carried into the fortress, and, like a barbarian and Scythian, refused to sell the army provisions. The army suffered from hunger and were compelled to eat the flesh of mules, donkeys, and horses. Besides, the pagans attacked the rear and those who went out foraging, and killed some of them. In this way they hindered the army. Our troops wished to meet the Saracens in open battle and often drew themselves up in battle away, but the Saracens always withdrew and refused to join in a general engagement. Now although the army was annoyed in this way and was suffering from hunger and want, the emperor, out of regard for the treaty with the Sultan, kept his army from devastating and plundering the country, because he thought the people were attacking him without the permission of the Sultan. But when he learned from couriers that the Sultan had perfidiously ordered the people to attack him, he was angry, and, declaring the Sultan an enemy, he permitted the army to take vengeance. They devastated Cilicia, Pam-

of the Sultan, and the pagans, fearing for their land, preferred to have peace rather than war. But the outcome was not what they had expected.

At Pentecost, 1189, Frederick held a general diet at (Regensburg)... and had his army gathered there. He gave the royal insignia to his son, king Henry. He appointed a certain income to each of his other sons, conferred titles on them, and after making all necessary arrangements, said farewell to all. His son, Frederick, duke of Suabia, the marquis of Meissen, with the Saxons, and many other princes and bishops, went with him. And so with a very large army, well equipped and organised, he set out for Orient to attack Saladin and all the enemies of the cross. While passing through Hungary its king honoured him with many gifts and gave the army large supplies of flour, wine, and meat. When he entered Bulgaria the inhabitants tried to block the road. But he forced his way through, killed many of those who opposed him, took some of them prisoners, and hung them on the trees along the road. By this he showed that he was visiting the grave of the Lord not with a pilgrim's wallet, but with the sword and lance of a warrior. Thus he passed through Bulgaria and entered Greece. But the Greeks were worse than the Bulgarians. At the command of the Greek emperor, they showed the army no kindness and even refused to sell them anything to eat. They shut themselves up in their fortresses, into which they had taken all their possessions. It made Frederick angry to receive such treatment from Christians, and so he permitted his army to plunder the country. He determined to treat the Greeks as pagans because, by their acts, they showed that they were aiding his enemy, Saladin. His whole army besieged Philipopolis, a very rich city, and took and plundered it. He likewise captured a very strong fortress called Demotica. By this he so frightened the Greeks that he got possession of several fortresses and cities. After devastating the country and taking much booty, he compelled the rest of the Greeks to furnish the army with provisions. These things were done about the end of August (1189). After consulting

to the ground. After the city had surrendered, as had been said, the sepulchre of the Lord was held in veneration for the sake of gain...

Frederick the emperor, after ending the wars all over Germany and establishing peace, held a general diet in Mainz at mid-lent (March 27, 1188), and discussed the affairs of State. Papal delegates came to this diet and told the emperor about the destruction of the church beyond the Sea (in Palestine), and, making complaint in the name of the pope and of the whole church, begged for his aid. A meeting having been held to consider the matter, Frederick offered to go to the aid of Jerusalem, and, for the remission of their sins, he and his son, Frederick, duke of Suabia, took the cross. Frederick publicly declared that he would avenge the insult which had been offered the cross, and by his example he aroused many nobles and a great multitude of various ranks and ages to take the cross. After these things were done, the cardinals preached the crusade in various parts of the country and persuaded many to leave father and mother, wife and children, and lands, for the name of Christ and to take the Cross and follow him across the sea. They raised a large army. The emperor set the time of departure in May of the following year. He ordered the poor to provide themselves with a least three marks (about thirty dollars) for their expenses, and the rich to take as much money as they could. Under threat of excommunication he forbade anyone to go who did not have three marks, because he did not wish the army to be burdened with a useless crowd. After these things were done in Germany the pope sent cardinals to Philip (II), king of the Franks, and to Richard, king of the English, and persuaded them to take the cross. In England and in France he also raised a large army for the crusade.

At this time messengers of the Sultan of Iconium came to Frederick and, with the intention to deceive, renewed the treaty with him. They promised him a free passage through all Cilicia if he would go peaceably. For Frederick was going to pass with his army through Cilicia the land

with discord, hatred, and avarice thought the time was favourable and so planned to conquer all Syria with Palestine. He collected a very large army of Saracens from all the Orient and made war on the Christians. Attacking them everywhere in Palestine with fire and sword, he took many fortress and cities and killed or took prisoner all their Christian inhabitans, and put Saracen colonists in their place. The king of Jerusalem and the noble prince, Reinaldus (of Chatillon, governor of Kerak), and other nobles collected a large army and went out to meet Saladin. The true cross was carried at the head of the army. But they were defeated (at a battle of the Horns of Hattin, July 5, 1187) and many thousands of Christians were slain. The true cross, alas ! was captured by the Saracens, and the Christians, were put to flight. The king and Reinaldus and many others were taken prisoners and carried off to Damascus, where Reinaldus was beheaded, confessing the true faith. The pagans were made bold by this victory and took all the cities of the Christians except, Tyre, Sidon, Tripolis, and Antioch, and a few other cities and fortresses which were the best fortified and most difficult to take. After taking Acco, where there is a port which had been the sole refuge of the Christians, they besieged Jerusalem. They destroyed all the churches about the city, among them those in Bethlehem and on the mount of Olives. Finally the Christians surrendered. Jerusalem was taken, and the holy places were profaned and inhabited by pagans (Oct. 2, 1187).

I think that I should relate that while Jerusalem was besieged by the pagans, one of the towers of the city was taken, many of the Christians defending it were slain, and the standard of Saladin was raised over it. This caused the people to despair and they gave up the defense of the walls. And on that day the city came very nearly being taken and destroyed. But a certain German knight, seeing this, and made bold by the desperate situation, urged some of his companions to join him in making a bold attack on the enemy. They retook the tower, killed the pagans in it, tore down the standard of Saladin and threw it

he shall strike him with his fist without drawing blood, he shall be 'dipped three times in the sea. But if anyone shall taunt or insult a comrade or charge him with hatred of God : as many times as he shall have insulted him, so many ounces of silver shall he pay. A robber, moreover, convicted of theft, shall be shown like a hired fighter, and boiling tar shall be poured over his head, and feathers from a cushion shall be shaken out over his head, — so that he may be publicly known; and at the first land where the ships put in, he shall be cast on shore. Under my own witness at Chinon.

---

10. — THE THIRD CRUSADE 1189—1190 FROM THE CHRONICLE OF OTTO OF St. BLASIEN (1)

The Greek emperor, Isaac Angelus, and Saladin had made an alliance against the Sultan of Iconium, who was their common enemy. Isaac's hostility of Frederic is explained in part by the fact that he had promised Saladin to try to prevent the Crusaders from reaching Palestine. It was only natural that the Sultan of Iconium should try to make an alliance with Frederick, since the latter was going to attack Saladin. But before Frederick reached Iconium, the Sultan had divided his government among his sons, one of whom, Kutbeddin was governor of Iconium. Kutbeddin had made an alliance with Saladin and married one of his daughters. This explains why the treaty with Frederick was broken.

In the year 1187, Saladin, king of the Saracens, seeing the very base conduct of the Christians, and knowing that they were afflicted

(1) Thatcher : op. cit : pp. 529-535

belonging to another than to him to whom he owes them, and if the proprietor can prove that they legitimately belonging to him, the former cannot retain these tenths. The crossed soldier, a legitimate heir or son-in-law of a non-crossed soldier, or of a widow will receive the tenth of his father and mother. Nobody shall lay hands on the property of archbishops, bishops, chapters, or churches that depend upon them, but the archbishops, bishops, chapters, or churches themselves. If the bishops collect the tenth, they shall remit them to those who are appointed to receive them. The Crusaded subject to the taille, or to the tenth, and who shall refuse to pay them be arrested and placed at the disposal of him to whom he is indebted. He who has arrested him cannot be excommunicated for doing so. He who shall pay his tenth with readiness, according to the law without constraint ,shall be recompensed by God.

9. — LAWS OF RICHARD I CONCERNING CRUSADERS WHO WERE TO GO BY SEA, 1189

Richard by the grace of God, king of England, and duke of Normandy and Aquitaine, and count of Anjou, to all his subjects who are about to go by sea to Jerusalem, greeting.

Know that we, by the common counsel of upright men, have made the laws here given. Whoever slays a man on shipboard shall be bound to the dead man and thrown into the sea. But if he shall slain him on land, he shall be bound to the dead man and buried in the earth. If anyone, moreover, shall be convicted through lawful witnesses of having struck him so as to draw blood, he shall lose his hand. But if

creditors or the debtors may be, refuse to give their hand to the execution of that which is ordered by the present decree, on account of the privileges given to the debtor, or of the consignments to be made, and if, warned by the metropolitan or the bishop, they have not done it within forty days, they will be liable to excommunication; but if the lord or the suzerain make it his duty to show, in presence of the metropolitan or the bishop, that he has not failed in this formality towards the creditor, or even the debtor, and that he is ready to execute what is ordered, the metropolitan or the bishop cannot excommunicate him. No crusader whether clerk, soldier, or other, shall be held responsible but for debts already demanded legally at the time at which they shall have taken the cross; he shall not be possible to others before his return from the Holy Land. They who are not crusaders shall pay, at least this year, the tenth of all their property and revenues, except the monks of the order of Citeaux; of the Chartreux, of Fontevraud, and the layar-houses, with regard to the property which belongs to them. Nobody shall meddle with the property of the communes, unless it be the lord of whom they hold. For the rest, every one shall retain the rights he had before in the commune. The grand justiciary of an estate shall always levy the tenth of it. Let it be observed, that they who are subject to pay the tenth, shall pay it upon their goods and revenues, without beforehand subtracting their debts. It is not till after they have paid the tenth that they may pay their creditors from the remainder of their property; all laymen, as well soldiers as those that are subject to the taille (poll-tax, or something like land-tax), upon taking the oath, under pain of anathema, and clerks under pain of excommunication, shall pay the tenth. The soldier whi is not crossed shall pay to his lord who is crossed, and of whom he holds, the tenth of his own property and of the fief which he holds of him. If he holds no fief of him, he will pay him the tenth of his own property, and will pay the tenth to those of whom he holds directly. If he holds of no lord, he will pay the tenth of his own property to him upon whose fief he lives. If a man possessing an estate in proper, finds upon his estate tenth

shall not have lands or revenues enough to form such a consignment, shall furnish their creditors guarantees and securities for the acquittal of their debts at the term fixed, if within the fortnight after the festival of St. John the Baptist, they have not satisfied their creditors by a consignment of lands, or by guarantees and securities, if they have no property, as it has been ordered, they shall not enjoy the privilege granted to others. If a clerk or a crusade soldier be the debtor of a clerk or of crusade soldier, he shall not be troubled before the next all Saints, provided he can furnish him with a good guarantee for payment at that time.

If one of the crusaders, eight days before the Purification of the Virgin, or later, consign, in favour of his creditor, some money, some work, or some bill, the creditor cannot be forced on that account to consider him liberated. The bargain by which a man has bought of another crusader the annual produce of an estate is good and valid. If a soldier or a clerk has engaged or consigned his lands or his revenue for some years to another crusader, or to a clerk or a soldier not crossed, the debtor for that year, shall collect the produce of the lands or the revenues; but the creditor, after the expiration of the years during which he has enjoyed the consignment or the guarantee, shall continue to enjoy it a year longer to compensate for the loss of the first year, so that, however, the creditor shall have for that first year half of the revenue for the cultivation, if he has cultivated the vines and the lands which were consigned to him as security. All bargains which shall have been made eight days before the Purification of the Virgin, or which shall be made after, shall be authentic. It will be necessary for all the debts coming within the favour of the present decree, that the debtor shall give a guarantee as good, or even better than that which he had given before. If the parties are not agreed upon the goodness of the guarantee, it shall be referred to the lord of the creditor; if he do not answer to this demand, the affair shall be taken before the suzerain. If the lords or princes under whose direction the

Philip. An infinite number of soldiers and people there took the cross. It was resolved with the consent of the clergy and the people, that, considering the urgent wants then experienced (the king having nothing more at heart than the undertaking of the voyage to Jerusalem), a general tenth, from which no one should be exempt, wich was named the Saladin Tenth, should be pre-levied for that year only.

Establishment of the Tenth : In the name of the holy and indivisible Trinity, greeting. It is ordered by us, Philip, king of France, with the advice of the archbishops, bishops, and barons of our dominions, that the bishops, prelates, and clerks of the churches, convoked, and the soldiers who have taken the cross, shall not be troubled for the repayment of the debts they may have before contracted, with Jews or Christians, until two years have revolved, reckoning from the first festival of All Saints which shall follow the decree of our said lord the king : so that at the following. All Saints the creditors shall receive a third of that which is due to them, and thus from year to year, at the same period, until the entire acquittal of the debt. The interests for anterior debts shall run no longer, dating from the day on which the debtor shall have taken the cross. The Crusader who is a legitimate heir, son or son-in-law of a soldier not a crusader, or of a widow, shall procure for his father or his mother the advantage granted by the present decree; provided he not in the enjoyment of other revenues than that arising from the labour of his father and mother; but if their son or son-in-law was not at their charge, or even if he did not bear arms and the cross, they shall not enjoy the said advantage : but the debtors who shall have lands and revenues, within the fortnight which follows the approaching festival of St. John the Baptist, shall point out to his creditors the lands and revenues upon which they shall be able to recover their debts, on the terms above expressed, and according to the form prescribed, by means of the lords in the jurisdiction of whom these lands shall be. The lords shall have no power to oppose this consignment, short of satisfying the creditor themselves. Those who

received into your order, having taken its vows assumed its dress, shall ever be permitted to desert and go back to the world. Nor shall any member be permitted to lay aside the dress of the order and go into another order or to any other place without the permission of the brothers and of the master of the order. No person, whether lay or cleric, shall have the right to receive and harbor any such deserters. You shall have your alters and churches consecrated, your clergy ordained, and your other ecclesiastical matters attended to by the bishop of the diocese (in which you may happen to be), provided that he is in the favor and communion of the Roman church, and he shall not wish to charge you anything for these services. Otherwise, you may secure the services of any catholic bishop. When you, who are now the master of the order, die, the brothers shall have the right to elect your successor. We confirm all the possessions which the order has, or may acquire on both sides of the sea (that is, in Asia and in Europe).

8. — SALADIN TENTHS (1)

Council of Paris, held in 1188, under the Pontificate of Pope Clement III. The Tenths, called Saladin Tenths were then decreed, to provide for the expenses of the war against Saladin King of the Turks :

In the month of March of the year of grace 1188, towards Mid Lent, a general council, to which were summoned the archbishops, bishops, abbots, and barons of the kingdom, was convoked at Paris, by king

(1) Michaud : History of the Crusades. Trans. by W. Robson, vol. I, London, 1852, pp. 384-387

that no damage is thereby done to neighbouring monasteries and religious houses which already exist. And you may build chapels and lay out cemeteries for the use of pilgrims on whatever lands you may acquire. We further decree that your tax collectors shall be under the protection of St. Peter and of us, and wherever they may be, no one shall attack them. We decree that if any member of your fraternity dies in a territory which is under the interdict, he shall not be denied a Christian burial unless he has been excommunicated by name. If any of your members, when sent out as tax collectors, come to a city, fortress, or village, which is under the interdict, they may, once a year, open the churches in such a place and hold divine services in them.

Since all your possessions should be used only to supply the needs of the pilgrims and of the poor, we decree that no one, either lay or cleric, shall presume to levy tithes on the income which you receive from lands cultivated at your own expense. No bishop shall have the right to pronounce the sentence of interdict, suspension, or excommunication in your churches. If a general interdict is put on these lands in which you are living, you shall have the right to hold divine services in your churches, provided that all those who are excommunicated by name be excluded, the doors of the churches closed, and no bells rung. In order that nothing may be lacking for the care and salvation of your souls and that you may love the advantages and blessings of the sacraments and divine services, we grant you the privilege of receiving into your mother house (at Jerusalem), as well as into all your dependent houses, all the clergy and priests who may ask for admission, provided that you first inquire into their character and ordination, and, secondly, that they are not already members of some other order. Even though their bishops do not give their consent, you have, nevertheless, our consent to receive all such clergy, and they shall not be subject to anyone outside of your order except the bishop of Rome. You may receive laymen, provided that they are freemen, into your order to assist in caring for the poor. No man who has been

of his body the entire man sherved implacable and savage both in his size and glance, methinks and even his laughter sounded to others like snorting. He was so made in mind and body that both courage and passion reared their crest within him and both inclined to war. His wit was manifold and crafty and able to find a way of escape... in every emergency. In conversation he was well informed, and the answers he gave were quite inefutable. This man who was of such a size and such a character was inferior to the emperor alone in fortune and eloquence and in other gifts of nature.

---

7. — ANASTASIUS IV GRANTS PRIVILEGES TO THE KNIGHTS OF St. JOHN (HOSPITALLERS), 1154 (1)

...In accordance with your request, and following the example of our predecessors of blessed memory, Innocent (II, 1130 — 43), Celestine (II, 1143 — 44), Lucius (II, 1144 — 45), and Eugene (III, 1145 — 53), we take under the protection of St.Peter and of the apostolic see your hospital and house in Jerusalem, and all the persons and possessions belonging thereto. And we decree and command that all your goods and possessions, present and future, which are used for supplying the needs of the pilgrims and the poor, whether in Jerusalem or in other churches or cities, from whatever source they may be acquired, shall remain unmolested in the hands of you and of your successors. You shall have the right to build houses and churches and lay out cemeteries on whatever lands may be given to your house in Jerusalem, provided

(1) Tatcher : op. cit. ; p. 494

12

6. — BOHEMOND THE CRUSADER (1)

ANNA COMNENA

Early Twelfth Century

Now the man was such as, to put it briefly, had never before been seen in the land of the Romans, be he either of the barbarians or of the Greeks (for he was a marvel for the eyes to behold, and his reputation was terrifying). Let me describe the barbarian's appearance more particularly -- he was so tall in stature that he overtopped the tallest by nearly one cubit, narrow in the waist and loins, with broad shoulders and a deep chest and powerful arms. And in the whole build of the body he was neither too slender nor overweighted with flesh, but perfectly proportioned. He had powerful hands and stood firmly on his feet and his neck and back were well compacted. An accurate observer would notice that he stooped slightly, but this was not from any weakness of the vertebral of his spine but he had probably had this posture slightly from the birth. His skin all over his body was very white, and in his face the white was tempered with red. His hair was yellowish, but did not hang down to his waist like that of the other barbarians; for the man was not inordinately vain of his hair, but had it cut short to the ears. Whether his beard was reddish, or any other colour I cannot say, for the razor had passed out it very closely and left a surface smoother than chalk; most likely it too was reddish. His blue eyes indicated both a high spirit and dignity; and his nose and nostrils breathed in the air freely, his chest corresponded to his nostrils and by his nostrils... the breadth of his chest. For by his nostrils nature had given free passage for the high spirit which bubbled up from his heart. A certain charm hung about this man but was partly marred by a general air of the horrible. For in the whole

(1) The Alexiad – Trans. E. Dawes; London, 1928.

protection of the holy church, of ourselves, and of the archbishops, bishops and other prelates of the church of God. And until they retunrn, or their death is known, we forbid by our apostolic authority any law suit to be brought against them about any of the property of which they were in peaceful possession when they took the cross. Moreover, since those who fight for the Lord should not have their minds set on fine clothing, or personal decoration, or (hunting) dogs, or falcons, or other things which savor of worlddliness, we urge you to take care that those who undertake so holy a journey shall not deck themselves out with gay clothing and furs, or with gold and silver weapons, but that they shall try to supply themselves with such arms, horses, and other things as will aid them to defeat the infidels.

If any are in debt but with a pure intention set out in this holy journey, they shall not pay the interest already due; and if they or others are pledged to pay the interest, by our apostolic authority we absolve them from their oath or pledge. If their relatives or the lords on whose fiefs they live cannot or will not lend them the money (necessary for the journey), they may pawn their lands and other possessions to churches, to clergymen, or to others, without the consent of the lords of their fiefs. In accordance with the grant of our predecessor and by the authority of omnipotent God, and of St. Peter, prince of the apostles which authority is vested in us, we grant such remission of sins and absolution that whoever shall devoutly undertake and complete so holy a journey, or shall have died while on the way, shall have absolution for all his sins which he shall have confessed with a humble and contrite heart, and he shall receive the reward of eternal life from God the rewarder of all.

remained in the hands of the Christians, and Christianity has been spread in those parts, and other cities have been valiantly taken from the infidels. But now, because of our sins and the sins of the people in the east (we cannot say it without great sorrow and weeping), the city of Edessa, or Rohais, as we call it, which was the only Christian city in those parts when the pagans held that country, has been taken by the enemies of the cross of Christ, and many Christian fortresses have been seized by them. The archbishop of Edessa and his clergy and many other Christians have been killed there. The relics of the Saints have been trampled under foot by the infidels and scattered. You know as well as we, how great a danger is threatening the Church and the whole Christian world. If you bravely defend those things which the courage of your fathers acquired it will be the greatest proof of your nobility and worth. But if not, it will be shown that you have less bravery than your fathers. Therefore, we exhort, ask, command, and for the remission of your sins, we order all of you, and especially the nobles and the more powerful, to arm yourselves manfully to defend the oriental church, and to attack the infidels and to liberate the thousands of your brethren who are now their captives, that the dignity of the Christian name may be increased, and your reputation for courage, which is praised throughout the world, may remain unimpaired. Take for your example that Mattathias, who, to preserve the laws of his country, did not hesitate to expose himself, his children, and his relatives to death, and to leave all that he possessed in this world. And finally, by the divine aid, after many labors, he and his family triumphed over his enemies (1 Maccabees 2:1 ff.).

Wishing, therefore, to provide for your welfare as well as to relieve the church in the east, we grant to those who, in a spirit of devotion, shall determine to accomplish this holy and necessary work, by the authority of God conferred on us, the same remission of sins as our predecessor, Pope Urban, granted. And we decree that their wives and children, their goods and possessions, shall be under the

5. — EUGENE III ANNOUNCES A CRUSADE, DECEMBER 1, 1145 (1)

Edessa was taken by Zenki, the emir of Mosul, in December, 1144. The news of this disaster was carried to the west and at the same time an appeal for help was made. For some time no response was made to this appeal, but finally Eugene III issued this call, and appoined Bernard of Clairvaux to preach to crusade. The student will observe that the pope exercices high authority in secular matters, such as the payment of interest, the pawning of fiefs, etc. Since the days of Gregory VII (1073 — 1085), the pope acts as the supreme lawgiver in all matters, both spiritual and secular.

Eugene, bishop, servant of the servants of God, to his most beloved son, Louis, the illustraious and glorious king of the Franks, and to his beloved sons, the princes, and to all the faithful in God in Gaul, greeting and apostolic benediction.

From the history of our predecessors we learn how much they labored for the deliverance of the oriental church. For, in order to deliver it, our predecessor, Urban II, of blessed memory sounded, as it were, a trumpet, and called together the sons of the holy Roman church from all parts of the world. At his voice, people from beyond the mountains, and especially the bravest and strongest warriors of the Franks and of Italy were inflamed with the ardor of love and came together. So a great army was collected which, with the aid of God, and not without great loss of life, freed from the filth of the pagans that city in which our Saviour died for us and left his glorious tomb as a memorial of his suffering for us. And they took many other cities which, for the sake of brevity, we omit. By the grace of God and the zeal of your fathers in defending them, these cities have, up this time,

(1) Thatcher : op. cit ; p. 526

as well as we how great a danger is threitening the church and the year a councii was held at Troyes (1128) in France at which were present the archbishops of Rhiems and Sens with their suffragans, the cardinal bishop of Albano, papal legate, and the abbots of Citeaux, Clairvaux, and Pontigny, and many others. At this council a rule was established for them, and at the direction of the pope, Honorius III, and of the patriarch of Jerusalem, Stephen, white robes were appointed for their dress. Up to their ninth year they had only nine members, but then their number began to increase and their possessions to multiply. Afterward, in the time of Eugene III, in order that their appearance might be more striking, they all, knights as well as the other members of a lower grade, who were called serving men, began to sew crosses of red cloth on their robes. Their order grew with great rapidity, and now (about 1180) they have 300 knights in their house clothed in white mantles, besides the serving men, whose number is almost infinite. They are said to have immense possessions both here (in Palestine) and beyond the sea (in Europe). There is not a province in the whole Christian world which has not given property to this order, so that they may be said to have possessions equal to those of kings. Since they dwelt in a palace at the side of the temple they were called «Brothers of the army of the temple». For a long time they were steadfast in their purpose and were true to their vows, but then they forgot their humility, which is the guardian of all virtues, and rebelled against the patriarch of Jerusalem who had assisted in the establishment of their order and had given them their first lands, and refused him the obedience which their prodecessors had shown him. They also made themselves very obnoxious to the churches by seizing their titles and first-fruits and plundering their possessions.

7

4. — THE ORIGIN OF THE TEMPLARS, 1119

by

WILLIAM OF TYRE

The Middle Age had two ideals, the monk and the soldier. The monk was the spiritual, the soldier the military hero. The military monkial-orders, whose members were both monks and soldiers, represent a fusion of these two ideals. The fact that all these orders arose on the borderland between Christians and Mohammedans, that is, in Palestine and Spain, would indicate their close connection with the spirit of the crusades.

In the same year (1118 — 1119) certain nobles of knightly rank, devout, religious, and God-fearing, devoting themselves to the service of Christ, made their vows to the patriarch (of Jerusalem) and declared that they wished to live foreover in chastity, obedience, and poverty, according to the rule of regular canons. Chief of these were Hugo de Payens and Geoffrey of St. Omer. Since they had neither a church nor a house, the king of Jerusalem gave them a temporary residence in the palace which stands on the west side of the temple. The canons of the temple granted them, on certain conditions the open space around the aforsaid palace for the erection of their necessary buildings, and the king, the nobles, the patriarch, and the bishops, each from his own possessions, gave them lands for their support. The patriarch and bishops ordered that for the forgiveness of their sins their first vow should be to protect the roads and especially the pilgrims against robbers and marauders. For the first nine years after their order was founded, they wore the ordinary dress of a layman, making use of such clothing as the people, for the salvation of their souls, gave them. But in their ninth many other Christians have been killed there. The relics of the saints have been trampled under foot by the infidels and scattered. You know

Hellespont, which is called the Arm of St. George. They have occupied more and more of the lands of those Christians, and have overcome them in seven battles. They have killed and captured many, and have destroyed the churches and devastated the empire. If you permit them to continue thus for awhile with impunity, the faithful of God will be much more widely attacked by them. On this account I, or rather the Lord, beseech you as Christ's heralds to publish this everywhere and to persuade all people of whatever rank, foot-soldiers and knights, poor and rich, to carry aid promptly to those Christians and to destroy that vile race from the lands of our friends. I say this to those who are present, it is meant also for those who are absent. Moreover, Christ commands it. All who die by the way, whéther by land or by sea, or in battle against the pagans, shall have immediate remission of sins. This I grant them through the power of God with which I am invested. O what a disgrace if such a despised and base race, which worships demons, should conquer a people which has the faith of omnipotent God and is made glorious with the name of Christ ! With what reproaches will the Lord overwhelm us if you do not aid those who, with us, profess the Christian religion ! Let those who have been accustomed unjustly to wage private warfare against the faihful now go against the infidels and end with victory this war which should have been begun long ago. Let those who, for a long time, have been robbers, now become knights. Let those who have been fighting against their brothers and relatives now fight in a proper way against the barbarians. Let those who have been serving as mercenaries for small pay now obtain the eternal reward. Let those who have been wearing themselves out in both body and soul now work for a double honor. Behold ! on this side will be the sorrowful and poor, on that, the rich; on this side, the enemies of the Lord, on that, his friends. Let those who go not put off the journey, but rent their lands and collect money for their expenses, and as soon as winter is over and spring comes, let them eagerly set out on the way with God as their guide».

how should he be punished who robs another of his goods ? For this it happened to the rich man in the gospel (Luke 16:19); for he was not punished because he had stolen the goods of another, but because he had not used well the things which were his.

« You have seen for a long time the great disorder in the world caused by these crimes. It is so bad in some of your provinces, I am told, and you are so weak in the administration of justice, that one can hardly go along the road by day or night without being attacked by robbers; and whether at home or abroad, one is in danger of being despoiled either by force or fraud. Therefore, it is necessary to reenact the truce, as it is commonly called, which was proclaimed a long time ago by our holy fathers. I exhort and demand that you, each, try hard to have the truce kept in your diocese. And if anyone shall be led by his cupidity or arrogance to break this truce, by the authority of God and with the sanction of this council he shall be anathematized».

After these and various other matters had been attended to, all who were present, clergy and people, gave thanks to God and agreed to the pope's proposition. They all faithfully promised to keep the decrees. Then the pope said that in another part of the world Christianity was suffering from a state of affairs that was worse than the one just mentioned. He continued :

« Although, O sons of God, you have promised more firmly than ever to keep the peace among yourselves and to preserve the rights of the church, there remains still an important work for you to do. Freshly quickened by the divine correction, you must apply the strength of your righteousness to another matter which concerns you as well as God. For your brethren who live in the east are in urgent need of your help, and you must hasten to give them the aid which has often been promised them. For, as the most of you have heard, the Turks and Arabs have attacked them and have conquered the territory of Romania (the Greek empire) as far west as the shore of the Mediterranean and the

But if you fall short in your duty, how, it may be asked, can it be salted ? O how great the need of salting ! It is indeed necessary for you to correct with the salt of wisdom this foolish people which is so devoted to the pleasures of this world, lest the Lord, when He may wish to speak to them, find them putrefied by their sins, unsalted and stinking. For if He shall find worms, that is, sins, in them, because you have been negligent in your duty, He will command them as worthless to be thrown into the abyss of unclean things. And because yoa cannot restore to Him His great loss, He will surely condemn you and drive you from His loving presence. But the man who applies this salt should be prudent, provident, modest, learned, peaceable, watchful, pious, just, equitable, and pure. For how can the ignorant teach others ? How can the licentious make others modest ? And how can the impure make others pure ? If anyone hates peace, how can he make others peaceable ? Or if anyone has soiled his hands with baseness, how can he cleanse the impurities of another ? We read also that if the blind lead the blind, both will fall into the ditch (Matt. 15:14). But first correct yourselves, in order that, free from blame, you may be able to correct those who are subject to you. If you wish to be friends of God, gladly do the things which you know will please Him. You must especially let all matters that pertain to the church be controlled by the law of the church. And be careful that simony does not take root among you, lest both those who buy and those who sell (church offices) be beaten with the scourges of the Lord through narrow streets and driven into the place of destruction and confusion. Keep the church and the clergy in all its grades entirely free from the secular power. See that the tithes that belong to God are faithfully paid from all the produce of the land; let them not be sold or witheld. If anyone seizes a bishop let him be treated as an outlaw. If anyone seiezs or robs monks, or clergymen, or nuns, or their servants, or pilgrims, or merchants, let him be anathema (that is, cursed). Let robbers and incendiaries and all their accomplices be expelled from the church and anathematized. If a man who does not give a part of his goods as alms is punished with the damnation of hell,

3

3. — THE SPEECH OF URBAN II AT THE COUNCIL OF CLERMONT, 1095. FULCHER OF CHARTRES (1)

In 1094 or 1095, Alexuis, the Greek emperor, sent to the pope, Urban II, and asked for aid from the west against the Turks, who had taken nearly all of Asia Minor from him. At the council of Clermont Urban addressed a great crowd and urged all to go to the aid of the Greeks and to recover Palestine from the rule of the Mohammedans. The acts of the council have not been preserved, but we have four accounts of the speech of Urban which were written by men who were present and heard him. We give here the most important of these accounts. The interest of the speech lies in the fact that it gave the impulse which started the crusading movement.

«Most beloved brethren : Urged by necessity, I, Urban, by the permission of God chief bishop and prelate over the whole world, have come into these parts as an ambassador which a divine admonition to you, the servants of God. I hoped to find you as faitnful and as zealous in the service of God as I had supposed you to be. But if there is in you any deformity or crookedness contrary to God's law, with divine help I will do my best to remove it. For God has put you as stewards over his family to minister to it. Happy indeed will you be if he finds you faithful in your stewardship. You are called shepherds; see that you do not act as hirelings. But be true shepherds, with your crooks always in your hands. Do not go to sleep, but guard on all sides the flock committed to you. For if through your carelessness or negligence a wolf carries away one of your sheep, you will surely lose the reward laid up for you with God. And after you have been bitterly scourged with remorse for your faults, you will be fiercely overwhelmed in hell, the abode of death. For according to the gospel you are the salt of the earth (Maat. ':13).

(1) Thatcher : op. cit. ; p. 513

adoption of the sons of God, and by the authority of St. Peter, prince of apostles, we admonish you that you be moved to proper compassion by the wounds and blood of your brethren and the danger of the aforesaid empire and that, for the sake of Christ, you undertake the difficult task of bearing aid to your brethren (the Greeks). Send messenger to us at once to inform us of what God may inspire you to do in this matter.

2. — THE TRUCE OF GOD AND INDULGENCE FOR CRUSADERS. THE COUNCIL OF CLERMONT, 1093 (1)

The canons of this council in their original form have not been preserved. We have translated the first two canons as Mansi has formulated them.

1. It was decreed that monks, clergymen, women, and whatever they may have with them, shall be under the protection of the peace all the time (that is, shall never be attacked). On three days of the week, that is, Monday, Tuesday, and Wednesday, an act of violence committed by one person against another shall not be regarded as a violation of the peace (truce). But on the remaining four days of the week if anyone does an injury to another, he shall be held to be a violator of the holy peace (truce), and he shall be punished as has been decreed.

2. If anyone out of devotion alone and not for honor or gain sets out for Jerusalem to free the Church of God, the journey shall be regarded as the equivalent of all penance.

---

(1) Thatcher : op. cit. ; 521.

I. — GREGORY VII CALLS FOR A CRUSADE, 1074 (1)

Gregory VII missed the honor of having begun the crusading movement. His plan is clear from the following letter. The situation in 1095 was not materially different from that in 1074, and it is probable that Urban II, when he called for a crusade, had nothing more in mind than Gregory VII had when he wrote this letter. Gregory was unable to carry out his plans because he became involved in the struggle with Henry IV.

Gregory, bishop, servant of the servants of God, to all who are willing to defend the Christian faith, greeting and apostolic benediction.

We hereby inform you that the bearer of this letter, on his recent return from across the sea (from Palestine), came to Rome to visit us. He repeated what we had heard from many others, that a pagan race had overcome the Christians and with horrible cruelty had devastated everything almost to the walls of Constantinople, and were now governing the conquered lands with tyrannical violence, and that they had slain many thousands of Christians as if they were but sheep. If we love God and wish to be recognized as Christians, we should be filled with grief at the misfortune of this great empire (the Greek) and the murder of so many Christians. But simply to grieve is not our whole duty. The exemple of our Redeemer and the bond of fraternel love demand that we should lay down our lives to liberate them. «Because he laid down his life for us : and we ought to lay down our lives for the brethren» (John 3:16). Know, therefore, that we are trusting in the mercy of God and in the power of his might and that we are striving in all possible ways and making preparations to render aid to the Christian empire (the Greek) as quickly as possible. Therefore we beseech you by the faith in which you are united through Christ in the

---

(1) Thatcher : op. cit. : p. 512

محتويـــات الكتاب

الصفحة

مقدمة الكتاب	٥ ــ ٨
الفصل الاول : اهمية الحروب الصليبية	٩ ــ ١٣
الفصل الثاني : الاسباب التاريخية للحروب الصليبية	١٤ ــ ٢٤
الفصل الثالث : الحملة الصليبية الاولى ــ خطة سيرها	٢٥ ــ ٣٨
الفصل الرابع : المملكة اللاتينية في بيت المقدس زمن الملوك الثلاث الاوائل	٣٩ ــ ٥٢
الفصل الخامس : تنظيم مملكة بيت المقدس	٥٣ ــ ٧١
الفصل السادس : مملكة بيت المقدس والحروب الصليبية	٧٢ ــ ٧٣
الفصل السابع : محاولات الصليبين لاستعادة بيت المقدس	٨٤ ــ ٩٣
الفصل الثامن : الحملة الصليبية الرابعة	٩٤ ــ ١٠٤
الفصل التاسع : الحملة الصليبية الخامسة	١٠٥ ــ ١١٠
الفصل العاشر : الحملة الصليبية السادسة	١١١ ــ ١١٩
الفصل الحادي عشر : حملات القديس لويس	١٢٠ ــ ١٣٢
الفصل الثاني عشر : طيف الحروب الصليبية	١٣٣ ــ ١٤١
الفصل الثالث عشر : نتائج الحروب الصليبية	١٤٢ ــ ١٥٢
ملحق عن مراحل الجهاد ضد الصليبيين حتى سقوط بيت المقدس سنة ١١٨٧.	١٥٣ ــ ١٨٤
المصادر والمراجــــع	١٨٥ ــ ٢٠٤
جـــدول انساب ملوك بيت المقدس	٢٠٥
ملحق نصوص ووثائق عن الحروب الصليبية	٢٦٥ ــ ٢٠٧